كتاب مذهب السلف القويم
في تحقيق مسئلة
كلام الله الكريم

مجموع من فتاوى

شيخ الإسلام ابن تيمية
قدس الله سره

وما حققه فى مواضع من كتبه ومؤلفاته

علق عليه

السيد محمد رشيد رضا

الجزء الثالث

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الامام أبو الحسن بن عروة رحمه الله تعالى في الكواكب [1]

نقل من سؤال قدم من بلاد كيلان في مسئلة القرآن إلى دمشق في سنة أربع وسبعمائة من جهة سلطان تلك البلاد على يد قاضيها ، لاجل معرفة الحق من الباطل عند ما كثر عندهم الاختلاف والاضطراب ، ورغب كل من الفريقين في قبول كلام شيخ الاسلام أبي العباس احمد بن تيمية في هذا الباب ، فأملاه شيخ الاسلام في المجلس، وكتبه احمد بن محمد بن مري الشافعي بخط جيد قوي . ثم ان كاتب هذه الاوراق اطلع على هذه الفتوى يوم الاثنين ثالث ربيع الآخر سنة إحدى وعشرين وثمانمائة فاخترت لنفسي منها مواضع نقلتها في هذه الاوراق إذ الجواب جواب طويل جداً

صورة السؤال

ما تقول السادة العلماء أئمة الدين رضي الله عنهم في قوم يقولون : إن كلام الناس وغيرهم قديم ، سواء كان الكلام [2] صدقا أو كذبا ، فحشاً أوغير فحش ، نظما أو نثراً ، ولا فرق بين كلام الله عزوجل وكلامهم في القدم الا من جهة الثواب . وقال قوم منهم بل أكثرهم : أصوات الحمير والكلاب كذلك [3] لما قرىء عليهم ما نقل عن الامام احمد رداً على قولهم تأولوا ذلك القول وقالوا ان أحمد انما قال ذلك خوفا من الناس ، فهل هم مصيبون او مخطئون ؟ فاذا كانوا مخطئين فهل على ولي الامر

---

(١) نقل من الجزء العشرين من الكواكب المودع في خزانة المكتبة العمومية بدمشق في المدرسة الظاهرية (٢) وجد في الاصل ههنا لفظة كلام وهي زائدة كما أشار اليه في حاشية نسختنا (٣) لعل الاصل ولما

وفقه الله ردعهم وزجرهم عن ذلك أم لا ؟ واذا وجب زجرهم فهل يكفرون ان أصروا ام لا ؟ وهل الذى نقل عن الامام احمد حق ، او هو كما يزعمون؟ افتونا مأجورين

أجاب الامام العلامة شيخ الاسلام قامع البدع ومظهر الحق للخلق ، ابو العباس أحمد بن تيمية .

الحمد لله . بل هؤلاء مخطئون في ذلك خطأ محرما فاحشاً باجماع المسلمين، وقد قالوا منكراً من القول وزوراً ، بل كفراً وضلالا ومحالا ، ويجب نهيهم عن هذا القول الفاحش ، ويجب على ولاة الامور عقوبة من لم ينته منهم عن ذلك جزاءاً بما كسب نكالا من الله . فان هذا القول مخالف للعقل والنقل والدين ، مناقض للكتاب والسنة واجماع المؤمنين. وهي بدعة شنيعة لم يقلها قط أحد من علماء المسلمين ،لا من علماء السنة ولا من علماء البدعة ، ولا يقولها عاقل يفهم مايقول ، ولا يحتاج في مثل هذا الكلام الذي فساده معلوم ببداهة العقل أن يحتج له بنقل عن امام من الائمة، الا من جهة ان رده وانكاره منقول عن الائمة ،وان قائله مخالف للامة مبتدع في الدين، ولتزول بذلك الشبهة من يتوهم ان قولهم من لوازم قول احد من السلف،وليعلم انهم مخالفون لمذاهب الائمة المقتدى بهم ، بل قول الائمة مناقض لقولهم، فان الائمة كلهم نصوا على ان كلام الآدميين مخلوق، بل نص أحمد على ان أفعال العباد مخلوقة عموما وعلى كلام الآدميين خصوصاً، لم يمتنعوا عن هذا الاطلاق لاجل الشبهة التي عرضت لمثل هؤلاء المبتدعة

ثم ساق الشيخ كلاما طويلا الى ان قال : ومن المشهور في كتاب صريح السنة لمحمد بن جرير الطبري- وهو متواتر عنه- لما ذكر الكلام في ابواب السنة قال: وأما القول في ألفاظ العباد بالقرآن فلا أثر فيه نعلمه عن صحابي مضى ،ولا عن تابعي قفا ، إلا عمن في قوله الشفا والغنى ، وفي اتباعه الرشد والهدى ، ومن قام مقام الائمة الاول : أبي عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل، فان أبا اسماعيل الترمذي

حدثني قال سمعت أباعبدالله يقول: اللفظية جهمية. قال ابن جرير سمعت جماعة من أصحابنا لا أحفظ اسماءهم يحكون عنه انه كان يقول: من قال لفظي بالقرآن مخلوق فهو جهمي، ومن قال غير مخلوق فهو مبتدع. قال ابن جرير: القول في ذلك عندنا لا يجوز أن يقول احد غير قوله، اذ لم يكن امام قائم به سواه، وفيه كفاية لكل متبع، وقناعة لكل مقتنع، وهو الامام المتبع

وقال صالح بن الامام احمد: بلغ أبي ان أبا طالب يحكي عن أبي انه يقول: لفظي بالقرآن غير مخلوق، فقال: ابعث إلى أبي طالب فوجهت اليه فجاء فقال له أبي: أنا قلت لك لفظي بالقرآن غير مخلوق؟ وغضب أبي وجعل يرتعد، فقال له قرأت عليك (قل هو الله أحد) فقلت لي: هذا ليس بمخلوق، فقال له: فلم حكيت عني اني قلت لفظي بالقرآن غير مخلوق؟ وبلغني أنك وضعت ذلك في كتابك وكتبت به لى قوم، فان كان في كتابك فامحه أشد المحو، واكتب إلى القوم الذين كتبت اليهم أني لم أقل هذا، وغضب وقال له: تحكي عني مالم أقل؟ فجعل فوزان يعتذر اليه(١) وانصرف من عنده وهو مرعوب، فعاد ابو طالب فذكر انه حكى ذلك من كتابه وكتب إلى أولئك القوم يخبرانه وهم على ابي عبدالله في الحكاية عنه. قال ابو عبدالله القرآن حيث تصرف غير مخلوق

وقال عبدالوهاب الوراق: من قال لفظي بالقرآن غير مخلوق فانه يهجر ولا يكلم ويحذر منه، وذكر الخلال في كتاب القراءة عن إسحاق بن ابراهيم قال: قال ابو عبدالله - يعني احمد بن حنبل يوما - وكنت سألته عن قوله(٢) «من لم يتغن بالقرآن» قال هو الرجل يرفع صوته به فهذا معناه إذا رفع صوته فقد تغنى به، وعن منصور وصالح أنه قال لابيه يرفع صوته بالقرآن بالليل؟ فقال نعم إن شاء رفع، ثم ذكر

(١) كذا بالاصل وليحرر (٢) يعني قول النبي ﷺ وهو في سنن أبي داود بلفظ «ليس منا من لم يتغن بالقرآن»

حديث ام هاني «كنت أسمع قراءة النبي ﷺ وأنا على عريشي من الليل» وقال الاثرم : سألت أبا عبدالله عن القراءة بالالحان فقال: كل شيء محدث فانه لا يعجبني إلا أن يكون صوت رجل لا يتكلفه

قال وأما قول القائل ان احمد قال ذلك خوفا من الناس فبطلان هذا القول يعلمه كل عاقل بلغه شيء من اخبار احمد ، وقائل هذا هو إلى العقوبة البليغة أحوج منه إلى جوابه لافترائه على الأئمة ، فان الامام احمد صار مثلا سائراً يضرب به المثل في المحنة والصبر على الحق ، فانه لم يكن يأخذه في الله لومة لائم ، حتى صارت الامامة مقرونة باسمه في لسان كل أحد فيقال قال الامام احمد وهذا مذهب الامام احمد لقوله تعالى (وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون) فانه أعطي من الصبر واليقين مانال به الامامة في الدين ، وقد تداوله ثلاثة خلفاء يسلطون عليه من شرق الارض الى غربها ومعهم من العلماء المتكلمين والقضاة والوزراء والسعاة والامراء والولاة مالا يحصيه إلا الله ، فبعضهم تسلط عليه بالحبس ، وبعضهم بالتهديد الشديد ، وبعضهم يعده بالقتل ، وبغيره من الرعب ، وبعضهم بالترغيب في الرياسة والمال ، وبعضهم بالنفي والتشريد من وطنه ، وقد خذله في ذلك أهل الارض حتى أصحابه العلماء والصالحون ، وهو مع ذلك لا يجيبهم إلى كلمة واحدة مما طلبوا منه ، وما رجع عما جاء به الكتاب والسنة ولا كتم العلم ، ولا استعمل التقية ، بل قد أظهر من سنة رسول الله ﷺ وآثاره ما دفع به البدع المخالفة لذلك مما لم يتأت مثله لعالم من نظرائه . ولهذا قال بعض علماء الشام لم يظهر أحد ما جاء به الرسول كما أظهره احمد بن حنبل ، فكيف يظن به انه كان يخاف هذه الكلمة التي لا قدر لها ، وأيضا فمن أصوله أنه لا يقول في الدين قولا مبتدعا ، فكيف بكلمة ماقالها أحد قبله

(قال) فالمنتسبون إلى السنة والحديث وإن كانوا أصلح من غيرهم وفيهم من الخير

مالا يوجد في غيرهم ، فان السنة في الاسلام كالاسلام في الملل،فكما أنه يوجد في المنتسبين إلى الاسلام مايوجد في غيرهم من الخير فكل خير فهو في المسلمين أكثر وكل شر في المسلمين فهوفي غيرهم أكثر ، فكذلك المنتسبون إلى السنة قد يوجد فيهم من الخيرمالا يوجد في غيرهم،وان كان في غيرهم خيرفهو فيهم أكثر، وكل شر فيهم فهو في غيرهم أكثر ،

(قال) ويجب القطع بأن كلام الآدميين مخلوق ويطلق القول بذلك إطلاقاً ولا يحتاج إلى تفصيل بأن يقال نظمه أو تأليفه أوغير ذلك ، وذلك لان كلام المتكلم هو عبارة عن ألفاظه ومعانيه، وعامة ما يوجد في كتاب الله وسنة رسوله وكلام السلف وسائر الامم عربهم وعجمهم فانه عند إطلاقه يتناول اللفظ والمعنى جميعاً لشموله لهما فيقال عن كلام الله وهو القرآن هذا كلام الله وهذا كلام فلان

(قال) وأما الامة الوسط الباقون على الفطرة فيقولون لما بلغه المبلغ عن غيره وأداه: هذا كلام ذاك لا كلامك وانما بلغته بقولك ،كما قال ابو بكر الصديق لما خرج على قريش فقرأ (الٓمٓ * غلبت الروم في أدنى الارض) الآية فقالوا هذا كلامك او كلام صاحبك ؟ فقال ليس بكلامي ولا كلام صاحبي ولكنه كلام الله

وفي سنن ابي داودمن حديث جابر ان رسول الله ﷺ كان يعرض نفسه على الناس بالموقف فيقول « ألا رجل يحملني الى قومه لأبلغ كلام ربي،فان قريشاً قد منعوني ان أبلغ كلام ربي عز وجل » فبين أن ما يبلغه ويتلوه هو كلام الله لا كلامه وان كان يبلغه بأفعاله وصوته ، والامم متفقون على هذا إذا سمعوا من يروي قصيدة او كلاما أو قرآنا ،أو مسئلة قالوا هذا كلام فلان وقوله فانه هو الذي اتصف به وألفه وأنشاه

(قال) وكذلك من تبع آباءه الذين سلفوا من غير اعتصام منه بالكتاب والسنة والاجماع فانه ممن ذمه الله في كتابه في مثل قوله (واذا قيل لهم تعالوا إلى

ما أنزل الله والى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا) وفي قوله (يوم تقلب وجوههم في النار يقولون ياليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا * وقالوا ربنا انا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا) الآية وكذلك من اتبع الظنون والاهواء معتقداً انها عقليات وذوقيات فهو ممن قال الله فيه (إن يتبعون الا الظن وما تهوى الانفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى) وانما يفصل بين الناس فيما تنازعوا فيه الكتاب المنزل من السماء والرسول المؤيد بالمعجزات كما قال تعالى (فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه) وقال (فان تنازعتم في شيء فردوه الى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا) وقال (بلى من اسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه) الآية وقال (ان الذين آمنوا والذين هادوا) الآية فأخبر سبحانه عمن مضى ممن كان متمسكا بدين حق من اليهود والنصارى والصابئين وعن المؤمنين بعد مبعث محمد من جميع الامم ان من تلبس بهذه الخصال من سائر الامم وهي جماع الصلاح وهي الايمان بالله والبعث والمعاد والايمان بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً وهو أداء المامورات وترك المحظورات فان له أجره عند ربه ولا خوف عليه مما أمامه ولا يحزن على ما وراءه . وإسلام الوجه هو إخلاص الدين لله وهو عبادته وحده لاشريك له وهو حقيقة قول (إياك نعبد وإياك نستعين) وهو محسن، فالاول وهو اسلام الوجه هو النية وهذا الثاني وهو الاحسان هو العمل الصالح.وهذا الذي ذكره في هاتين الآيتين هو الايمان العام والاسلام العام الذي اوجبه على جميع عباده من الاولين والآخرين ، وهو دين الله العام الذي بعث به جميع الرسل وأنزل به جميع الكتب

فكان أول أول بدعة حدثت في هذه الامة بدعة الخوارج المكفرة بالذنوب فانهم يكفرون الفاسق الملي، فزعمت الخوارج والمعتزلة ان الذنوب الكبيرة ـ ومنهم

من قال والصغيرة ـ لا تجامع الايمان أبداً بل تنافيه وتفسده كما يفسد الاكل والشرب الصيام ، (قالوا) والايمان هو فعل المأمور وترك المحظور فمتى بطل بعضه بطل كله كسائر المركبات فيكون العاصي كافراً لانه ليس الا مؤمن او كافر . وقالت المعتزلة : ننزله منزلة بين المنزلتين : نخرجه من الايمان ولا ندخله في الكفر. وقابلتهم المرجئة والجهمية ومن اتبعهم من الاشعرية والكرامية فقالوا ليس من الايمان فعل الاعمال الواجبة ولا ترك المحظورات البدنية فان الايمان لا يقبل الزيادة ولا النقصان، بل هو شيء واحد يستوي فيه جميع المؤمنين من الملائكة والمقتصدين والمقربين والظالمين .

وأما السلف والائمة فاتفقوا على ان الايمان قول وعمل ، فيدخل في القول قول القلب واللسان ، وفي العمل عمل القلب والاركان ، (وقال) المنتصرون لمذهبهم (١) ان للايمان أصولا وفروعا وهو مشتمل على أركان وواجبات ومستحبات بمنزلة اسم الحج والصلاة وغيرها من العبادات ، فان اسم الحج يتناول كل مايشرع فيه من فعل أو ترك مثل الاحرام ومثل ترك محظوراته والوقوف بعرفة ومزدلفة ومنى والطواف بالبيت وبين الجبلين المكتنفين له وهما الصفا والمروة . ثم الحج مع هذا اشتمل على أركان متى تركت لم يصح الحج كالوقوف بعرفة ،وعلى ترك محظور متى فعله فسد حجه وهي الوطء ، ومشتمل على واجبات من فعل وترك يأثم بتركها عمدا ، ويجب مع تركها لعذر أو غيره الجبران بدم ، كالاحرام من المواقيت المكانية، والجمع بين الليل والنهار بعرفة، وكرمي الجمار ونحو ذلك ، ومشتمل على مستحبات من فعل وترك يكمل الحج بها ولا يأثم بتركها ولا توجب دما ،مثل رفع الصوت بالاهلال والاكثار منه وسوق الهدي وذكر الله ودعائه في تلك المواضع ، وقلة الكلام إلا في أمر أو نهي أو ذكر :من فعل الواجب

(١) لفظ (وقال) ليست من الاصل الذي طبعنا عنه ولكنها ضرورية

وترك المحظور فقد تم حجه وعمرته لله وهو مقتصد من أصحاب اليمين في هـذا العمل ، لـكن من أتى بالمستحب فهو أكمل منه وأتم حجا وعملا وهو سابق مقرب ، ومن ترك المأمور وفعل المحظور لـكنه أتى باركانه وترك مفسداته فهو حج ناقص يثاب على ما فعله من الحج ويعاقب على ماتركه، وقد سقط عنـه أصل الفرض بذلك مع عقوبته على ماتركه ، ومن أخل بركن أو فعـل مفسداً فحجه فاسد لايسقط به فرضه بل عليـه اعادته ، مع انه قد تنازعوا في إثابته على مافعله وإن لم يسقط به الفرض، والا شبه انه يثاب عليه، فصار الحج ثلاثة أقسام كاملا بالمستحبات ،وتاما بالواجبات فقط ،وناقصا عن الواجب، والفقهاء يقسمون الوضوء الى كامل فقط ومجزيء ،ويريدون بالكامل ماأتى بمفروضه ومسنونه وبالمجزيء مااقتصر على واجبه. فهـذا في الاعمال المشروعة وكذلك في الاعيـان المشهودة فان الشجرة مثلا اسم لمجموع الجذع والاغصان وهي بعد ذهاب الورق شجرة كاملة وبعد ذهاب الاغصان شجرة ناقصة ، فليكن مثل ذلك في مسمى الايمان ،

والذين قالوا (١) الايمان ثلاث درجات: ايمان السابقين المقربين، وهو ماأتي فيه بالواجبات والمستحبات من فعل وترك ، وايمان المقتصدين أصحاب اليمين وهو ماترك صاحبه فيه بعض الواجبات ، او فعل فيه بعض المحظورات، ولهذا قال علماء السنة لايكفر أحد بذنب ، اشارة الى بدعة الخوارج الذين يكفرون بالذنب ، وايمان الظالمين لانفسهم وهو من أقر باصل الايمان وهو الاقرار بما جاءت به الرسل عن الله وهو شهادة أن لا إله إلا الله ولم يفعل المأمورات ويجتنب المحظورات، فان أصل الايمان التصديق والانقياد فهذا أصل الايمان الذي من لم يأت به فليس بمؤمن وقد تواتر في الاحاديث « اخرجوا من النـار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان ، مثقال حبة من خير ،مثقال ذرة من خير »و« الايمان بضع وستون أو بضع

---

(١) قوله والذين قالوا — ليس بعده مايصلح ان يكون خبرا له فالظاهر ان اصله: وقالوا

وسبعون(١) شعبة أعلاها قول لا إله إلا الله وأدناها اماطة الاذى عن الطريق ، والحياء شعبة من الايمان » فعلم ان الايمان يقبل التبعيض والتجزئة ، وان قليله يخرج به صاحبه من النار ان دخلها ، وليس كما يقوله الخارجون عن مقالة أهل السنة أنه لايقبل التبعيض والتجزئة بل هو شيء واحد اما أن يحصل كله واما أن لايحصل منه شيء

واعلم أن عامة السور المكية التي أنزلها الله بمكة هي في هذا الايمان العام المشترك بين الانبياء جميعهم . وهذا القدر المشترك هو في بعض الملل أعظم قدراً ووصفاً، فان ماجاء به محمد من صفات الله وأسمائه وذكر اليوم الآخر أكمل مما جاء به سائر الانبياء ، ومنه ماتختلف فيه الشرائع والمناهج كالقبلة والنسك ومقادير العبادات واوقاتها وصفاتها والسنن والاحكام وغير ذلك . فمسمى الايمان والدين في اول الاسلام ليس هو مسماه في آخر زمان النبوة ، بل مسماه في الآخر أكمل من مسماه في أول البعثة وأوسطها ، كما قال تعالى في آخر الامر (اليوم أكملت لكم دينكم) وقال بعدها (ومن يكفر بالايمان فقد حبط عمله) ولهذا قال الامام احمد : كان الايمان في أول الاسلام ناقصا فجعل يتم . وهكذا مسمى الايمان والدين قد يتنوع بحسب الاشخاص، وبحسب أمر الله كلا منهم، وبحسب مايفعله مما أمر به، وبحسب اقباله وحضوره واخلاصه، فان المؤمنين من الاولين والآخرين مشتركون في الايمان بالله واليوم الآخر والعمل الصالح ولكن بينهم تفاوت مافي القلوب إذا ذكر الله وما في اليوم الآخر ماتفاوت به الايمان، فعند ذكر الجنة والنجاة من النار وذم من ترك بعضه ونحو ذلك يزداد الايمان الواجب لقوله (انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا) الآية وقوله (انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا) الآيات

١) هذه رواية مسلم بالشك واعتمد البخاري رواية العدد الاول واصحاب السنن العدد الثاني

وقوله (إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله واذا كانوا معـه على أمر جامع) الآية وقوله في الجنة (أعدت للذين آمنوا بالله ورسله) وقوله ﷺ « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن » الحديث نفي الايمان الواجب عنه الذي يستحق به الجنة ولا يستلزم ذلك نفي أصل الايمان وسائر أجزائه وشعبه ، هذا معنى قولهم نفي كمال الايمان ، وحقيقة ذلك أن الكمال الواجب ليس هو الكمال المستحب المذكور في قول الفقهاء : الغسل كامل ومجزىء ، ومنه قوله عليه السلام « من غشنا فليس منا » ليس المراد به انه كافر كما تأولته الخوارج ، ولا أنه ليس من خيارنا كما تأولته المرجئة ، ولكن المضمر يطابق المظهر ، والمظهر هو المؤمنون المستحقون للثواب ، السالمون من العذاب ، والغاش ليس منا (١) لانه متعرض لعذاب الله وسخطه .

اذا تبين هذا فمن ترك بعض الايمان الواجب في الجملة لعجزه عنه إما لعدم تمكنه من العلم اولعدم تمكنه من العمل لم يكن مأموراً بما يعجز عنـه ، ولم يكن ذلك من الايمان والدين الواجب في حقه ، وان كان من الدين والايمان الواجب في الاصل ، بمنزلة صلاة المريض والخائف وسائر أهل الاعذار الذين يعجزون عن اتمام الصلاة فان صلاتهم صحيحة بحسب ما قدروا عليه وبه أمروا ، وإن كانت صلاة القادر على الاتمام أفضل وأكمل كما قال النبي ﷺ « المؤمن القوي خير وأحب الى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير » رواه مسلم من حديث أبي هريرة وفي حديث حسن السياق « ان الله يلوم على العجز ولكن عليك بالكيس » ولو أمكنه العلم به دون العمل لوجب الايمان به علما واعتقادا وإن لم يعمل به ،

(قال) فان الله قد بين بنصوص معروفة ان الحسنات يذهبن السيئات ، وانه من يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ، وان مصائب الدنيا تكفر الذنوب ، وانه يقبل شفاعة النبي ﷺ في أهل الكبائر ،

«١» الاظهر أن يكون : ليس منهم

وانه يغفر الذنوب جميعا، ويغفر مادون الشرك، وان الصدقة يبطلها المن والأذى، وان الرياء يبطل العمل، ونحو ذلك، فجعل للسيئات مايوجب رفع عقابها، كما قد جعل للحسنات ماقد يبطل ثوابها، لكن ليس شيء يبطل جميع السيئات إلا التوبة، كما انه ليس شيء يبطل جميع الحسنات إلا الردة، وبهذا يتبين انا نشهد بأن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما انما يأكلون في بطونهم ناراً على الاطلاق والعموم، ولا نشهد لمعين أنه في النار لانا لانعلم لحوق الوعيد له بعينه، لأن لحوق الوعيد بالمعين مشروط بشروط وانتفاء موانع، ونحن لانعلم ثبوت الشروط وانتفاء الموانع في حقه. وفائدة هذا الوعيد ان هذا الذنب سبب مقتضٍ لهذا العذاب، والسبب قد يقف تأثيره على وجود شرطه وانتفاء مانعه

يبين هذا انه قد ثبت عن النبي ﷺ انه لعن الخمر وعاصرها ومعتصرها وحاملها والمحمولة اليه وشاربها وساقيها وبائعها ومبتاعها وآكل ثمنها. وثبت عنه في الصحيح ان رجلا كان يكثر شرب الخمر فلعنه رجل فقال النبي ﷺ «لاتلعنه فانه يحب الله ورسوله» فنهى عن لعن هذا المعين وهو مدمن الخمر لانه يحب الله ورسوله، وقد لعن أولا شاربها على العموم،

(قال) فمسئلة تكفير أهل البدع والاهواء متفرعة على هذا الاصل فنبدأ بمذاهب الائمة في ذلك قبل التنبيه على الحجة فنقول: المشهور من مذهب أحمد وعامة أئمة السنة تكفير الجهمية وهم المعطلة لصفات الرحمن، فان قولهم صريح في مناقضة ماجاءت به الرسل من الكتاب، وحقيقة قولهم جحود الصانع وجحود ماأخبر به عن نفسه على لسان رسوله، بل وجميع الرسل. ولهذا قال عبد الله بن المبارك: إنا لنحكي كلام اليهود والنصارى ولا نستطيع أن نحكي كلام الجهمية. وقال غير واحد من الائمة: انهم أكفر من اليهود والنصارى. وبهذا كفروا من يقول ان القرآن مخلوق وان الله لا يرى في الآخرة، وان الله ليس على العرش، وانه ليس له علم ولا قدرة ولا رحمة ولا غضب

ونحو ذلك من صفاته. وأما المرجئة فلا تختلف نصوصه انه لايكفرهم فان بدعهم من جنس اختلاف الفقهاء في الفروع ، وكذلك الذين يفضلون علياً على أبي بكر لايختلف قوله انه لايكفرهم ، وذلك قول طائفة من الفقهاء والكن يبدعون .

(قال) وعنه في تكفير من لم يكفر الجهمية روايتان أصحهما لا يكفر . والجهمية عند كثير من السلف مثل ابن المبارك ويوسف بن اسباط وطائفة من أصحاب احمد ليسوا من الثلاث والسبعين فرقة التي افترقت عليها هذه الامة ، بل أصول هذه الفرق هم الخوارج والشيعة والمرجئة والقدرية .

(قال) فان الدعاء الى المقالة أعظم من قولها (١) واثابة قائلها، وعقوبة تاركها أعظم من مجرد الدعاء اليها

(قال) وفى الادلة الشرعية مايوجب ان الله لايعذب من هذه الامة مخطئا على خطأه وإن عذب المخطيء من غير هذه الامة، فقد ثبت في الصحيح من حديث أبي هريرة ان رسول الله ﷺ قال « قال رجل لم يعمل حسنة قط لاهله اذا مات فحرقوه ثم ذروا نصفه في البر ونصفه في البحر، فوالله لئن قدر الله عليه ليعذبنه عذابا لايعذبه أحداً من العالمين ، فلما مات الرجل فعلوا به كما أمرهم فأمر الله البر فجمع مافيه وأمر البحر فجمع مافيه ثم قال لم فعلت هذا ؟ قال من خشيتك يارب وأنت أعلم ، فغفر له » . وهذا الحديث متواتر عن النبي ﷺ رواه أصحاب الصحيح والمسانيد من حديث أبي سعيد وحذيفة وعقبة بن عامر وغيرهم عن النبي ﷺ من وجوه متعددة يعلم أهل الحديث انها تفيد العلم اليقيني وإن لم يحصل ذلك لغيرهم ، فهذا الرجل قد وقع له الشك والجهل في قدرة الله تعالى على إعادة من يصل الى الحالة التي أمر أهله أن يفعلوها به ، وأن من أحرق وذري لايقدر الله أن يعيده ويحشره اذا فعل به ذلك ، وانه ظن ذلك ظنا ولم يجزم به .

---

(١) هذه الجملة تعليل لمن كفروا دعاة البدعة دون سائر اهلها وكان ينبغي لابن عروة ان لا يحذف ذكرهم من تلخيصه لكلام شيخ الاسلام

وهذان أصلان عظيمان: أحدهما متعلق بالله وهو الايمان بأنه على كل شيء قدير ، والثاني متعلق باليوم الآخر وهو الايمان بأن الله يعيد هذا الميت ولو صار الى مايقدر صيرورته اليه مهما كان فلا بد أن الله يحييه ويجزيه بأعماله . فهذا الرجل مع هذا لما كان مؤمنا بالله في الجملة ومؤمنا باليوم الآخر في الجملة وهو أن الله يثيب ويعاقب بعد الموت فهذا عمل صالح وهو خوفه من الله أن يعاقبه على تفريطه غفر له بما كان معه من الايمان بالله واليوم الآخر، وانما أخطأ من شدة خوفه ، كما ان الذي وجد راحلته بعد إياسه منها أخطأ من شدة فرحه ،

وقد وقع الخطأ كثيراً الخلق من هذه الامة واتفقوا على عدم تكفير من أخطأ ، مثل ما أنكر بعض الصحابة أن يكون الميت يسمع نداء الحي، وانكر بعضهم أن يكون المعراج يقظة، ولبعضهم في الخلافة والتفضيل كلام، وكذلك لبعضهم في قتال بعض وتكفير بعض أقوال معروفة ، وكان القاضي شريح ينكر قراءة من قرأ (بل عجبتُ) ويقول ان الله لايعجب ، فبلغ ذلك ابراهيم النخعي فقال: انما شريح شاعر يعجبه علمه ، كان عبد الله أفقه منه وكان يقرأ (بل عجبت) فهذا قد أنكر قراءة ثابتة ، وأنكر صفة لله دل عليها الكتاب والسنة ، واتفقت الأمة على ان شريحا إمام من الائمة . وكذلك بعض العلماء أنكر حروفا من القرآن كما أنكر بعضهم (أولم ييأس الذين آمنوا) فقال انما هي (أو لم يتبين الذين آمنوا) وآخر أنكر (وقضى ربك أن لاتعبدوا الا اياه) فقال انما هي (ووصى ربك) وبعضهم كان حذف المعوذتين . وآخر يكتب سورتي القنوت . وهذا الخطأ معفو عنه بالاجماع ، وكذلك الخطأ في الفروع العملية فان المخطيء فيها لايكفر ولايفسق بل ولا يأثم ، وان كان بعض المتكلمة والمتفقهة يجعل المخطيء فيها آثما. وبعض المتفقهة يعتقد أن كل مجتهد فيها مصيب ، فهذان القولان شاذان ولم يقل أحد بتكفير المخطيء فيها. فقد أخطأ بعض السلف فيها مثل خطأ بعضهم في بعض

انواع الربا واستحلال آخرين الخمر واستحلال آخرين القتال في الفتنة. وقد قال تعالى (وداود وسليمان اذ يحكمان في الحرث — الى قوله — ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكما وعلماً) وفي الصحيح « إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران واذا اجتهد فأخطأ فله أجر »

والسنة والاجماع منعقد على أن من بلغته دعوة النبي ﷺ فلم يؤمن فهو كافر لايقبل منه الاعتذار بالاجتهاد لظهور أدلة الرسالة وأعلام النبوة، والنصوص انما أوجبت رفع المؤاخذة بالخطأ لهذه الامة، وإذا كان كذلك فالمخطيء في بعض هذه المسائل إما أن يلحق بالكفار من المشركين وأهل الكتاب مع مباينته لهم في عامة أصول الايمان، وإما أن يلحق بالمخطئين في مسائل الايجاب والتحريم مع انها أيضاً من أصول الايمان، فان الايمان الذي يوجب الواجبات الظاهرة المتواترة وتحريم المحرمات الظاهرة المتواترة هو اعظم اصول الايمان وقواعد الدين، والجاحد لها كافر بالاتفاق، مع أن المجتهد في بعضها اذا أخطأ ليس بكافر بالاتفاق، واذا كان لابد من إلحاقه باحد الصنفين فالحاقه بالمؤمنين المخطئين أشد شبهاً من إلحاقه بالمشركين وأهل الكتاب، مع العلم بان كثيراً من أهل البدع منافقون النفاق الاكبر، فما أكثر ما يوجد في الرافضة والجهمية ونحوهم زنادقة منافقون(١) وأولئك في الدرك الاسفل من النار. بل اصل هذه البدع من المنافقين الزنادقة ممن يكون أصل زندقته ماخوذاً عن الصابئين والمشركين وأصل هؤلاء هو الاعراض عما جاء به الرسول من الكتاب والحكمة وابتغاء الهدى في غير ذلك ممن كان هذا أصله، فهو يعد الرسالة انما هي للعامة دون الخاصة، كما يقوله قوم من المتفلسفة والمتكلمة والمتصوفة، فنفي الصفات كفر، والتكذيب بان الله لايرى في الآخرة

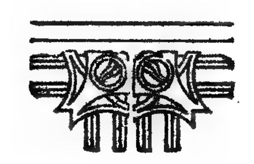
---

(١) كذا في الاصل وهو محرف فاما أن يكون اول الجملة فأكثر مايوجد الخ واما أن يكون آخرها . من الزنادقة المنافقين

كفر، وإنكار أن يكون الله على العرش كفر، وكذلك ما كان في معنى ذلك كانكار تكليم الله لموسى واتخاذ الله ابراهيم خليلا

(قال) فان الجزاء في الحقيقة انما هو في الدار الآخرة التي هي دار الثواب والعقاب. وأما الدنيا فانما يشرع فيها ماشرع من العقوبات دفعاً للظلم والعدوان وكسراً للنفوس العاتية الباغية ودفعاً لشر الجبار الطاغي، واذا كان الامر كذلك فعقوبة الدنيا غير مستلزمة لعقوبة الآخرة ولا بالعكس ولهذا أكثر السلف على قتل الداعي الى البدعة لما يجري على يديه من الفساد في الدين سواء قالوا هو كافر أو ليس بكافر

وإذا عرف هذا فتكفير المعين من هؤلاء الجهال وأمثالهم بحيث يحكم عليه بانه مع الكفار لايجوز الاقدام عليه إلا بعد أن تقوم على أحدهم الحجة بالرسالة التي يبين بها لهم انهم مخالفون للرسول، وان كانت مقالتهم هذه لاريب انها كفر، وهكذا الكلام في جميع تكفير المعينين، مع أن بعض هذه البدع أشد من بعض، وبعض المبتدعة يكون فيه من الايمان والعمل الصالح ماليس في بعض، والله أعلم



فصل

[في مسألة القرآن العزيز وذكر دلالة الكتاب والسنة على ما اتفق عليه السلف الصالح من الصحابة والتابعين لهم باحسان ومن بعدهم من أئمة المسلمين: الأئمة الاربعة وغيرهم والتنبيه على الاقوال التي حدثت بعد السلف الصالح كقول السلف ان القرآن كلام الله]

قال تعالى (وان أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله) وهو منزل من الله كما قال تعالى (أفغير الله أبتغي حكما وهو الذي أنزل اليكم الكتاب مفصلا والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق) فأخبر سبحانه أنهم يعلمون ذلك والعلم لا يكون إلا حقا

وقال تعالى (تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم — حم ، تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم — حم تنزيل من الرحمن الرحيم) وقال تعالى (ولكن حق القول مني لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين) وقال تعالى (ولولا كلمة سبقت من ربك لكان لزاما وأجل مسمى) ونحو ذلك وقال تعالى (قل نزله روح القدس من ربك بالحق) فأخبر سبحانه انه منزل من الله ولم يخبر عن شيء نه منزل من الله الا كلامه بخلاف نزول الملائكة والمطر والحديد وغير ذلك، بذا كان القول المشهور عن السلف أن القرآن كلام الله غير مخلوق، منه بدأ واليه د، فان من قال انه مخلوق يقول انه خلق في بعض المخلوقات القائمة بنفسها، ف المخلوق أنزل وبدأ لم ينزل من الله ، فاخبار الله تعالى أنه ...

من الارادة والمحبة والمشيئة والرضى والغضب والمقت وغير ذلك من الامور،لو كان مخلوقا في غيره لم يكن الرب تعالى متصفا به ، بل كان يكون صفة لذلك المحل، فان المعنى اذا قام بمحل كان صفة لذلك المحل ولم يكن صفة لغيره فيمتنع أن يكون المخلوق او الخالق موصوفا بصفة موجودة قائمة بغيره لانه فطر ذلك(١) ما وصف به نفسه من الافعال اللازمة يمتنع أن يوصف الموصوف بامر لم يقم به. وهذا مبسوط في مواضع أخر .

ومن قول السلف ان الناس من الله تعالى كما يقول ذلك بعض المتأخرين، قال الله تعالى (لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته) وفي الصحيحين عن ابن مسعود قال : قال لي النبي ﷺ « اقرأ علي القرآن » قلت: أقرأ عليك وعليك أنزل ؟ قال « اني أحب أن أسمعه من غيري » فقرأت عليه سورة النساء ، حتى بلغت الى هذه الآية (فكيف اذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً) قال « حسبك » فنظرت فاذا عيناه تذرفان من البكاء ، والنبي ﷺ سمعه من جبريل وهو الذي نزل عليه به ، وجبريل سمعه من الله تعالى، كما نص على ذلك أحمد وغيره من الأئمة ، قال تعالى (قل من كان عدواً لجبريل فانه نزله على قلبك باذن الله) وقال تعالى (نزل به الروح الامين على قلبك لتكون من المنذرين * بلسان عربي مبين) وقال تعالى (واذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل قالوا انما أنت مفتر بل أكثرهم لايعلمون * قل نزله روح القدس من ربك بالحق) فاخبر سبحانه انه نزله روح القدس -وهو الروح الامين وهو جبريل- من الله بالحق، ولم يقل احد من السلف ان النبي ﷺ سمعه من الله وانما قال ذلك بعض المتاخرين، وقوله تعالى (ان

(١) قوله لأنه فطر ذلك ليس له معني فلابد ان يكون محرفا وماقبله ومابعده سيآتى بيانه فى مواضيع أخري من هذه المباحث كما اشار اليه فى قوله وهذا مبسوط فى مواضع أخر

علينا جمعه وقرآنه * فاذا قرأناه فاتبع قرآنه * ثم ان علينا بيانه) هو كقوله تعالى (نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق) وقوله (نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن) ونحو ذلك مما يكون الرب فعله بملائكته، فان لفظ نحن هو للواحد المطاع الذي له أعوان يطيعونه ، فالرب تعالى خلق الملائكة وغيرها تطيعه الملائكة أعظم مما يطيع المخلوق أعوانه، فهو سبحانه أحق باسم نحن، وفعلنا، ونحو ذلك من كل مايستعمل

وفي الصحيحين عن ابن عباس قال: كان النبي ﷺ يعالج من التنزيل شدة وكان مما يحرك شفتيه ،فقال ابن عباس: أنا أحركهما لك كما كان رسول الله ﷺ يحركهما. وقال سعيد بن جبير: أنا أحركهما كما رأيت ابن عباس يحركهما، فحرك شفتيه فانزل الله (لا تحرك به لسانك لتعجل به ان علينا جمعه وقرآنه) قال: جمعه لك في صدرك وتقرأه (فاذا قرأناه فاتبع قرآنه) فاذا قرأه رسولنا ، وفي لفظ : فاذا قرأه جبريل فاستمع له وأنصت (ثم ان علينا بيانه) اي تقرؤه . فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ذلك اذا أتاه جبريل استمع ، فاذا انطلق جبريل قرأه النبي صلى الله عليه وسلم كما قرأه

وقد بين الله تعالى أنواع تكليمه لعباده في قوله (وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحي باذنه مايشاء) فبين سبحانه ان التكليم تارة يكون وحياً ، وتارة من وراء حجاب كما كلم موسى ،وتارة يرسل رسولا فيوحي الرسول بإذن الله مايشاء ، وقال تعالى (الله يصطفي من الملائكة رسلا ومن الناس) فاذا أرسل الله تعالى رسولا كان ذلك مما يكلم به عباده فيتلوه عليهم وينبئهم به كما قال تعالى (قل لا تعتذروا لن نؤمن لكم قد نبأنا الله من أخباركم) وانما نبأهم بوساطة الرسول، والرسول مبلغ به، كما قال تعالى (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل اليك من ربك) وقال تعالى (ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم) وقال تعالى (وما على

الرسول إلا البلاغ المبين) والرسول أمر أمته بالتبليغ عنه. ففي صحيح البخاري عن عبد الله ابن عمرو عن النبي ﷺ انه قال «بلغوا عني ولو آية وحدثوا عن بني اسرائيل ولا حرج، ومن كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار» وقال ﷺ، لما خطب المسلمين «ليبلغ الشاهد الغائب، فرب مبلغ أوعى من سامع» وقال ﷺ «نضر الله امرأ سمع منا حديثا فبلغه الى من لم يسمعه، فرب حامل فقه الى غير فقيه، ورب حامل فقه الى من هو أفقه منه» وفي السنن عن جابر قال كان النبي ﷺ يعرض نفسه على الناس بالموسم فيقول «ألا رجل يحملني الى قومه لابلغ كلام ربي فان قريشا منعوني أن أبلغ كلام ربي» وكما لم يقل أحد من السلف انه مخلوق فلم يقل أحد منهم انه قديم، لم يقل واحداً من القولين أحد من الصحابة ولا التابعين لهم باحسان ولا من بعدهم من الائمة الاربعة ولا غيرهم، بل الآثار متواترة عنهم بأنهم كانوا يقولون القرآن كلام الله، ولما ظهر من قال انه مخلوق قالوا رداً لكلامه انه غير مخلوق، ولم يريدوا بذلك انه مفترى كما ظنه بعض الناس فان أحداً من المسلمين لم يقل انه مفترى بل هذا كفر ظاهر يعلمه كل مسلم وانما قالوا انه مخلوق خلقه الله في غيره فرد السلف هذا القول، كما تواترت الآثار عنهم بذلك وصنف في ذلك مصنفات متعددة وقالوا: منه بدا واليه يعود

وأول من عرف انه قال مخلوق الجعد بن درهم وصاحبه الجهم بن صفوان، وأول من عرف انه قال هو قديم عبد الله بن سعيد بن كلاب، ثم افترق الذين شاركوه في هذا القول فمنهم من قال الكلام معنى واحد قائم بذات الرب ومعنى القرآن كله والتوراة والانجيل وسائر كتب الله وكلامه هو ذلك المعنى الواحد الذي لا يتعدد ولا يتبعض، والقرآن العربي لم يتكلم الله به بل هو مخلوق خلقه في غيره . وقال جمهور العقلاء: هذا القول معلوم الفساد بالاضطرار فانه من المعلوم بصريح العقل ان معنى آية الكرسي ليس معنى آية الدين، ولا معنى قل هو الله أحد معنى تبت يدا

أبي لهب، فكيف بمعاني كلام الله كله في الكتب المنزلة وخطابه لملائكته وحسابه لعباده يوم القيامة وغير ذلك من كلامه. ومنهم من قال هو حروف أو حروف وأصوات قديمة أزلية لازمة لذاته لم يزل ولا يزال موصوفا بها . وكلا الحزبين يقول: ان الله تعالى لا يتكلم بمشيئته وقدرته، وانه لم يزل ولا يزال يقول: يا نوح، يا ابراهيم، يا أيها المزمل، يا أيها المدثر ، كما قد بسطت أقوالهم في غير هذا الموضع، ولم يقل أحد من السلف بواحد من القولين ولم يقل أحد من السلف ان هذا القرآن عبارة عن كلام الله ولا حكاية له ، ولا قال أحد منهم ان لفظي بالقرآن قديم او غير مخلوق، فضلا عن أن يقول ان صوتي به قديم أو غير مخلوق بل كانوا يقولون بما دل عليه الكتاب والسنة من أن هذا القرآن كلام الله والناس يقرأونه بأصواتهم ويكتبونه بمدادهم وما بين اللوحين كلام الله وكلام الله غير مخلوق

وفي الصحيحين عن النبي ﷺ انه قال « لا تسافروا بالقرآن الى أرض العدو » وقال تعالى (بل هو قرآن مجيد *في لوح محفوظ) والمداد الذي يكتب به القرآن مخلوق والصوت الذي يقرأ به هو صوت العبد والعبد وصوته وحركاته وسائر صفاته مخلوقة ، فالقرآن الذي يقرؤه المسلمون كلام الباريء ، والصوت الذي يقرأ به العبد صوت القاريء ، كما قال تعالى (وان احد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم ابلغه مأمنه) وقال النبي ﷺ « زينوا القرآن بأصواتكم » فبين أن الاصوات التي يقرأ بها القرآن أصواتنا والقرآن كلام الله ، ولهذا قال أحمد بن حنبل وغيره من أئمة السنة: يحسنه الانسان بصوته كما قال ابو موسى الاشعري للنبي ﷺ: لو علمت انك تسمع لحبرته لك تحبيراً . فكان ماقاله احمد وغيره من أئمة السنة من ان الصوت صوت العبد موافقا للكتاب والسنة، وقد قال تعالى (واقصد في مشيك واغضض من صوتك) وقال تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي) وقال تعالى (ان

الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى) وقال تعالى (قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مدداً) ففرق سبحانه بين المداد الذي تكتب به كلماته وبين كلماته ، فالبحر وغيره من المداد الذي يكتب به الكلمات مخلوق وكلمات الله غير مخلوقة . وقال تعالى (ولو أن ما في الارض من شجرة اقلام والبحر يمده من بعده سبعة ابحر ما نفدت كلمات الله) فالابحر اذا قدرت مداداً تنفد وكلمات الله لا تنفد . ولهذا قال أئمة السنة: لم يزل الله متكلما كيف شاء وبما شاء كما ذكرت الآثار بهذه المعاني عن ابن المبارك وأحمد بن حنبل وغيرهما

هذا وقد اخبر سبحانه عن نفسه بالنداء في اكثر من عشرة مواضع، فقال تعالى (فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوآتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وناداهما ربهما الم انهكما عن تلكما الشجرة واقل لكما ان الشيطان لكما عدو مبين) وقال تعالى (ويوم يناديهم اين شركائي الذين كنتم تزعمون) (ويوم يناديهم فيقول ماذا اجبتم المرسلين) وذكر سبحانه نداءه لموسى عليه السلام في سورة طه ومريم والطس الثلاث وفي سورة والنازعات، واخبر انه ناداه في وقت بعينه فقال تعالى (فلما أتاها نودي من شاطىء الوادى الايمن في البقعة المباركة من الشجرة ان ياموسى اني انا الله رب العالمين) وقال تعالى (هل اتاك حديث موسى اذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى) وقال تعالى (وما كنت بجانب الطور اذ نادينا) واستفاضت الآثار عن النبي ﷺ والصحابة والتابعين ومن بعدهم من ائمة السنة انه سبحانه ينادي بصوت، نادى موسى وينادي عباده يوم القيامة بصوت، ويتكلم بالوحي بصوت، ولم ينقل عن احد من السلف انه قال ان الله يتكلم بلا صوت او بلا حرف، ولا انه انكر ان يتكلم الله بصوت او بحرف، كما لم يقل احد منهم ان الصوت الذى سمعه موسى قديم، ولا أن ذلك النداء قديم، ولا قال احد منهم ان هذه

الاصوات المسموعة من القراء هي الصوت الذى تكلم الله به، بل الآثار مستفيضة عنهم بالفرق بين الصوت الذى يتكلم الله به و بين اصوات العباد

وكان أئمة السنة يعدون من انكر تكلمه بصوت من الجهمية كما قال الامام احمد لما سئل عمن قال ان الله لا يتكلم بصوت، فقال: هؤلاء جهمية، انما يدورون على التعطيل. وذكر بعض الآثار المروية في انه سبحانه يتكلم بصوت. وقد ذكر من صنف في السنة من ذلك قطعة كما [1] من ذلك قطعة وعلى ذلك ترجم عليه البخارى في صحيحه قوله تعالى (حتى اذا فزع عن قلوبهم) وقد ذكر البخارى في كتاب خلق الافعال مما يبين به الفرق بين الصوتين آثارا متعددة . وكانت محنة البخاري مع اصحابه محمد بن يحيي الذهلي وغيره بعد موت احمد بسنين ولم يتكلم احمد في البخارى الا بالثناء عليه، ومن نقل عن احمد انه تكلم في البخاري بسوء فقد افترى عليه

وقد ذكر الشيخ ابو الحسن محمد بن عبد الملك الكرخي في كتابه الذي سماه (الفصول في الاصول) قال سمعت الامام أبا منصور محمد بن احمد يقول : سمعت أبا حامد الاسفراييني يقول: مذهبي ومذهب الشافعي وفقهاء الامصار ان القرآن كلام الله غير مخلوق ومن قال مخلوق فهو كافر ، والقرآن حمله جبريل مسموعا من الله والنبي ﷺ سمعه من جبريل والصحابة سمعوه من رسول الله ﷺ وهو الذي نتلوه نحن بألسنتنا وفيما بين الدفتين وما في صدورنا مسموعا ومكتوبا ومحفوظا وكل حرف منه كالباء والتاء كله كلام الله غير مخلوق ، ومن قال مخلوق فهو كافر، عليه لعائن الله والناس أجمعين

وقد كان طائفة من أهل الحديث والمنتسبين الى السنة تنازعوا في اللفظ بالقرآن هل يقال انه مخلوق ، ولما حدث الكلام في ذلك أنكرت أئمة السنة كاحمد

---

(١) بياض بالاصل

ابن حنبل وغيره أن يقال لفظي بالقرآن مخلوق او غير مخلوق، وقالوا من قال انه مخلوق فهو جهمي ، ومن قال انه غير مخلوق فهو مبتدع . وأما صوت العبد فلم يتنازعوا انه مخلوق ،فان المبلغ لكلام غيره بلفظ صاحب الكلام انما بلغ غيره، كما يقال روى الحديث بلفظه وانما يبلغه بصوت نفسه لا بصوت صاحب الكلام

واللفظ في الاصل مصدر لفظ يلفظ لفظا وكذلك التلاوة والقراءة مصدران لكن شاع استعمال ذلك في نفس الكلام الملفوظ المقروء المتلو(١)وهو المراد باللفظ في اطلاقهم. فاذا قيل لفظي أو اللفظ بالقرآن مخلوق أشعر أن هذا القرآن الذي يقرؤه ويلفظ به مخلوق ، واذا قيل لفظي غير مخلوق،أشعر أن شيئا مما يضاف اليه غير مخلوق ،وصوته وحركته مخلوقان،لكن كلام الله الذي يقرؤه غير مخلوق، والتلاوة قد يراد بها نفس الكلام الذي يتلى وقد يراد بها نفس حركة العبد ، وقد يراد بها مجموعهما . فاذا أريد بها الكلام نفسه الذي يتلى فالتلاوة هي المتلو ، واذا أريد بها حركة العبد فالتلاوة ليست هي المتلو ، واذا أريد بها المجموع فهي متناولة للفعل والكلام فلا يطلق عليها انها المتلو ولا أنها غيره

ولم يكن أحد من السلف يريد بالتلاوة مجرد قراءة العباد وبالمتلو مجرد معنى واحد يقوم بذات الباري تعالى ، بل الذي كانوا عليه ان القرآن كلام الله تكلم الله به بحروفه ومعانيه ليس شيء منه كلاما لغيره، لا لجبريل ولا لمحمد ولا لغيرهما،بل قد كفر الله من جعله قول البشر ، مع انه سبحانه أضافه تارة الى رسول من البشر وتارة الى رسول من الملائكة،فقال تعالى (انه لقول رسول كريم *وما هو بقول شاعر قليلا ماتؤمنون * ولا بقول كاهن قليلا ماتذكرون * تنزيل من رب العالمين) فالرسول هنا محمد ﷺ ،وقال تعالى (انه لقول رسول كريم*ذي قوة عند ذي العرش مكين*مطاع ثمّ أمين*وماصاحبكم بمجنون*ولقد

(١) يعبر عن الاول بالمعني المصدري وعن الثاني بالحاصل بالمصدر

رآه بالافق المبين * وما هو على الغيب بضنين * وما هو بقول شيطان رجيم * فأين تذهبون * إن هو إلا ذكر للعالمين) فالرسول هنا جبريل وأضافه سبحانه الى كل منهما باسم رسول لأن ذلك يدل على انه مبلغ له عن غيره وانه رسول فيه لم يحدث هو شيئا منه، إذ لو كان قد أحدث منه شيئا لم يكن رسولا فيما أحدثه بل كان منشئاً له من تلقاء نفسه، وهو سبحانه يضيف الى رسول من الملائكة تارة ومن البشر تارة. فلو كانت الاضافة لكونه انشأ حروفه لتناقض الخبران ، فان انشاء أحدهما له يناقض انشاء الآخر له ، وقد كفر الله تعالى من قال انه قول البشر، فمن قال ان القرآن أو شيئا منه قول بشر أو ملك فقد كذب، ومن قال انه قول رسول من البشر ومن الملائكة بلغه عن مرسله ليس قول [1] ولم يقل أحد من السلف ان جبريل أحدث ألفاظه ولا محمداً ﷺ ولا ان الله تعالى خلقها في الهواء أو غيره من المخلوقات، ولا ان جبريل أخذها من اللوح المحفوظ بل هذه الاقوال هي من أقوال بعض المتأخرين ، وقد بسط الكلام في غير هذا الموضع على تنازع المبتدعين الذين اختلفوا في الكتاب وبين فساد أقوالهم ، وأن القول السديد هو قول السلف وهو الذي يدل عليه النقل الصحيح والعقل الصريح وإن كان عامة هؤلاء المختلفين في الكتاب لم يعرفوا القول السديد قول السلف بل ولا سمعوه ولا وجدوه في كتاب من الكتب التي يتداولونها لانهم لا يتداولون الآثار السلفية ولا معاني الكتاب والسنة إلا بتحريف بعض المحرفين لها ، ولهذا انما يذكر أحدهم أقوالا مبتدعة إما قولين وإما ثلاثة وإما أربعة وإما خمسة ، والقول الذي كان عليه السلف ودل عليه الكتاب والسنة لا يذكره لانه لا يعرفه ولهذا تجد الفاضل من هؤلاء حائراً مقراً بالحيرة على نفسه وعلى من سبقه من هؤلاء.

(١) بياض بالاصل والمعنى يقتضي ان يكون المحذوف : ليس قولا انشأه من عنده فقد صدق

المختلفين لانه لم يجد فيما قالوه قولا صحيحا

وكان أول من ابتدع الاقوال الجهمية المحضة النفاة الذين لايثبتون الاسماء والصفات، فكانوا يقولون أولا ان الله تعالى لايتكلم بل خلق كلاما في غيره وجعل غيره يعبر عنه وان قوله تعالى (وإذ نادى ربك موسى) وقول النبي ﷺ « ان الله ينزل الى السماء الدنيا كل ليلة اذا بقي ثلث الليل، فيقول : من يدعوني فأستجيب له ؟ من يسألني فأعطيه؟ من يستغفرني فأغفر له ؟ » معناه ان ملكا يقول ذلك عنه، كما يقال: نادى السلطان، أي أمر مناديا نادى عنه، فاذا تلي عليهم ما أخبر الله تعالى به عن نفسه من انه يقول ويتكلم. قالوا هذا مجاز، كقول العربي * امتلأ الحوض وقال قطني * وقالت (١) اتساع بطنه ونحو ذلك.

فلما عرف السلف حقيقته وانه مضاه لقول المتفلسفة المعطلة الذين يقولون ان الله تعالى لم يتكلم وانما اضافت الرسل اليه الكلام بلسان الحال كفروهم وبينوا ضلالهم، ومما قالوا لهم ان المنادي عن غيره كنادي السلطان يقول أمر السلطان بكذا خرج مرسومه بكذا، لايقول اني آمركم بكذا وأنهاكم عن كذا، والله تعالى يقول في تكليمه لموسى (انني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري) ويقول تعالى اذا نزل ثلث الليل الغابر « من يدعوني فأستجيب له، من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له » واذا كان القائل ملكا قال كما في الحديث الذي في الصحيحين « اذا أحب الله العبد نادى في السماء ياجبريل اني أحب فلانا فاحبه، فيحبه جبريل وينادي في السماء ان الله يحب فلانا فأحبوه، فيحبه أهل السماء، ويوضع له القبول في الارض » فقال جبريل في ندائه عن الله تعالى: ان الله يحب فلانا فأحبوه، وفي نداء الرب يقول « من يدعوني فأستجيب له؟ من يسألني فأعطيه؟ من يستغفرني فأغفر له ؟ » فان قيل: فقد روي أنه يأمر مناديا

(١) كذا في الاصل والظاهر انه سقط منه شيء

فينادي، قيل هذا ليس في الصحيح، فان صح أمكن الجمع بين الخبرين بان ينادي هو ويأمر منادياً ينادي. أما أن يعارض بهذا النقل النقل الصحيح المستفيض الذي اتفق أهل العلم بالحديث على صحته وتلقيه بالقبول مع أنه صريح في أن الله تعالى هو الذي يقول «من يدعوني فأستجيب له من يسألني فأعطيه من يستغفرني فاغفر له» فلا يجوز،

وكذلك جهم كان ينكر أسماء الله تعالى فلا يسميه شيئا ولا حيا ولا غير ذلك إلا على سبيل المجاز. قال لانه إذا سمي باسم تسمى به المخلوق كان تشبيها، وكان جهم مجبراً يقول ان العبد لا يفعل شيئا، فلهذا نقل عنه أنه سمى الله قادراً لان العبد عنده ليس بقادر

ثم ان المعتزلة الذين اتبعوا عمرو بن عبيد على قوله في القدر والوعيد دخلوا في مذهب جهم، فأثبتوا أسماء الله تعالى ولم يثبتوا صفاته، وقالوا نقول ان الله متكلم حقيقة، وقد يذكرون إجماع المسلمين على أن الله متكلم حقيقة، لئلا يضاف اليهم أنهم يقولون انه غير متكلم، لكن معنى كونه سبحانه متكلما عندهم أنه خلق الكلام في غيره، فمذهبهم ومذهب الجهمية في المعنى سواء، لكن هؤلاء يقولون هو متكلم حقيقة وأولئك ينفون أن يكون متكلما حقيقة. وحقيقة قول الطائفتين انه غير متكلم، فانه لا يعقل متكلم إلا من قام به الكلام، ولا مريد الا من قامت به الارادة، ولا محب ولا راض ولا مبغض ولا رحيم إلا من قام به الارادة والمحبة والرضى والبغض والرحمة، وقد وافقهم على ذلك كثير ممن انتسب في الفقه إلى أبي حنيفة من المعتزلة. وغيرهم من أئمة المسلمين ليس فيهم من يقول بقول المعتزلة لا في نفي الصفات ولا في القدر ولا المنزلة بين المنزلتين ولا انفاذ الوعيد.

ثم تنازع المعتزلة والكلابية في حقيقة المتكلم، فقالت المعتزلة: المتكلم من فعل الكلام ولو انه أحدثه في غيره، ليقولوا ان الله يخلق الكلام في غيره وهو متكلم به. وقالت الكلابية: المتكلم من قام به الكلام وان لم يكن متكلما بمشيئته

وقدرته ولا فعل فعلا اصلا . بل جعلوا المتكلم بمنزلة الحي الذي قامت به الحياة ، وان لم تكن حياته بمشيئته ولا قدرته ولا حاصلة بفعل من أفعاله

وأما السلف واتباعهم وجمهور العقلاء فالمتكلم المعروف عندهم من قام به الكلام وتكلم بمشيئته وقدرته ، لايعقل متكلم لم يقم به الكلام ولا يعقل متكلم بغير مشيئته وقدته ، فكان كل من تينك الطائفتين المبتدعتين أخذت بعض وصف المتكلم : المعتزله أخذوا انه فاعل والكلابية اخذوا انه محل الكلام ، ثم زعمت المعتزلة انه يكون فاعلا للكلام في غيره وزعموا هم ومن وافقهم من اتباع الكلابية كابي الحسن [1] وغيره ان الفاعل لا يقوم به الفعل ، وكان هـذا مما انكره السلف وجمهور العقلاء ، وقالوا لايكون الفاعل الا من قام به الفعل ، وانه يفرق بين الفاعل والفعل والمفعول وذكر البخارى في كتاب خلق افعال العباد اجماع العلماء على ذلك . والذين قالوا إن الفاعل لا يقوم به الفعل وقالوا مع ذلك ان الله فاعل افعال العباد كابي الحسن(١) وغيره ان يكون الرب(٢) هو الفاعل لفعل العبد وان العبد لم يفعل شيئا وان جميع ما يخلقه العبد فعل له ، وهم يصفونه بالصفات الفعلية المنفصلة عنه ويقسمون صفاته الى صفات ذات وصفات افعال مع ان الافعال عندهم هي المفعولات المنفصلة عنه فلزمهم ان يوصف بما خلقه من الظلم والقبائح مع قولهم انه لا يوصف بما خلقه من الكلام وغيره فكان هذا تناقضا منهم تسلطت به عليهم المعتزلة . ولما قرروا ما هو من اصول اهل السنة وهو ان المعنى اذا قام بمحل اشتق له منه اسم ولم يشتق لغيره منه اسم كاسم المتكلم نقض عليهم المعتزلة ذلك باسم الخالق والعادل فلم يجيبوا عن النقض بجواب سديد

---

(١) ابو الحسن الاشعري (٢) كذا في الاصل ولعله سقط منه شيء « كما نكروا » فانهم يقولون ان العبد هو الفاعل لفعله من اكل وشرب ونوم ولو كان الله هو الفاعل لذلك لوجب ان يقال انه هو الآكل الشارب النائم لان الفاعل من قام به الفعل

واما السلف والأئمة فاصلهم مطرد . ومما احتجوا به على ان القرآن غير مخلوق ما احتج به الامام احمد وغيره من قول النبي ﷺ «اعوذ بكلمات الله التامات» قالوا والمخلوق لا يستعاذ به، فعورضوا بقوله «اعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك وبك منك» فطرد السلف والأئمة اصلهم وقالوا معافاته فعله القائم به، وأما العافية الموجودة في الناس فهي مفعوله

وكذلك قالوا ان الله خالق افعال العباد فأفعال العباد القائمة بهم مفعولة له لا نفس فعله، وهي نفس فعل العبد، وكان حقيقة قول اولئك نفي فعل الرب ونفي فعل العبد . فتسلطت عليهم المعتزلة في مسئلة الكلام والقدر تسلطاً بينوا به تناقضهم كما بينوا هم تناقض المعتزلة .

وهذا أعظم مايستفاد من اقوال المختلفين الذين اقوالهم باطلة ، فانه يستفاد من قول كل طائفة بيان فساد قول الطائفة الاخرى، فيعرف الطالب فساد تلك الاقوال، ويكون ذلك داعياً له إلى طلب الحق ، ولا تجد الحق الا موافقا لما جاء به الرسول ﷺ ولا تجد ماجاء به الرسول الا موافقا لصريح المعقول، فيكون ممن له قلب او ألقى السمع وهو شهيد، وممن له قلب يعقل به وأذن يسمع بها ، بخلاف الذين قالوا (لو كنا نسمع او نعقل ما كنا في أصحاب السعير)

وقد وافق الكلابية على قولهم كثير من أهل الحديث والتصوف ومن اهل الفقه المنتسبين الى الأئمة الاربعة وليس من الائمة الاربعة وأمثالهم من أئمة المسلمين من يقول بقولهم

وحدث مع الكلابية ونحوهم طوائف اخرى من الكرامية وغير الكرامية من اهل الفقه والحديث والكلام فقالوا انه سبحانه متكلم بمشيئته وقدرته كلاما قائما بذاته ، وهو يتكلم بحروف وأصوات بمشيئته وقدرته ، ليتخلصوا بذلك من بدعتي المعتزلة والكلابية . لكن قالوا انه لم يكن يمكنه في الاول أن يتكلم بل صار

الكلام ممكناً له بعد ان كان ممتنعاً عليه ، من غير حدوث سبب أوجب إمكان الكلام وقدرته عليه ، وهذا القول مما وافق الكرامية عليه كثير من أهل الكلام والفقه والحديث ، لكن ليس من الائمة الاربعة ونحوهم من ائمة المسلمين من نقل عنه مثل قولهم . وهذا مما شاركوا فيه الجهمية والمعتزلة فان هؤلاء كلهم يقولون انه لم يكن الكلام ممكنا له في الازل ثم صار ممكنا له بعد أن كان ممتنعاً عليه من غير حدوث سبب اوجب إمكانه، لكن الجهمية والمعتزلة يقولون انه خلق كلاما في غيره من غير أن يقوم به كلام لانه لو قام به كلام بمشيئته وقدرته لقامت به الحوادث قالوا ولا تقوم به الحوادث . قالت الجهمية والمعتزلة لان الحوادث هي من جملة الصفات التي يسمونها الاعراض. وعندهم لايقوم به شيء من الصفات قالوا لان الصفات اعراض والعرض لايقوم الا بجسم وليس هو بجسم لان الجسم لايخلو من الحوادث وما لا يخلو من الحوادث فهو حادث ، وقالت الكلابية بل تقوم به الصفات ولا تقوم به الحوادث، ونحن لا نسمي الصفات اعراضا لان العرض عندنا لايبقى زمانين وصفات الله تعالى باقية . وقالوا وأما الحوادث فلو قامت به لم يخل منها لان القابل للشيء لايخلو منه ومن ضده ، ومالا يخلو عن الحوادث فهو حادث

فقال الجمهور المنازعون للطائفتين اما قول أولئك انه لاتقوم به الصفات لانها اعراض والعرض لايقوم إلا بجسم وليس بجسم ، فتسمية مايقوم بغيره عرضا اصطلاح حادث ، وكذلك تسمية مايشار اليه جسما اصطلاح حادث أيضا ، والجسم في لغة العرب هو البدن وهو الجسد كما قال غير واحد من أهل اللغة منهم الاصمعي وابو عمرو ، فلفظ الجسم يشبه لفظ الجسد وهو الغليظ الكثيف . والعرب تقول هذا جسيم وهذا أجسم من هذا أي أغلظ منه . قال تعالى (وزاده بسطة في العلم والجسم) وقال تعالى (وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وان يقولوا تسمع لقولهم) ثم قد يراد بالجسم نفس الغلظ والكثافة ويراد به الغليظ الكثيف .

وكذلك النظار يريدون بلفظ الجسم تارة المقدار وقد يسمونه الجسم التعليمي ، وتارة يريدون به الشيء المقدر وهو الجسمي الطبيعي ، والمقدار المجرد عن المقدر كالعدد المجرد عن المعدود ، وذلك لايوجد إلا في الاذهان دون الاعيان . وكذلك السطح والخط والنقطة المجردة عن المحل الذي تقوم به لا يوجد إلا في الذهن . قالوا واذا كان هذا معنى الجسم بلغة العرب فهو أخص من المشار اليه ، فان الروح القائمة بنفسها لايسمونها جسما ، بل يقولون خرجت روحه من جسمه ويقولون انه جسم وروح ولا يسمون الروح جسما ، ولا النفس الخارج من الانسان جسما ، لكن أهل الكلام اصطلحوا على أن كل مايشار اليه يسمى جسما ، كما اصطلحوا على أن كل مايقوم بنفسه يسمى جوهرا ، ثم تنازعوا في ان كل مايشار اليه هل هو مركب من الجواهر الفردة اومن المادة والصورة او ليس مركبا لامن هذا ولا من هذا على اقوال ثلاثة قد بسطت في غير هذا الموضع ، ولهذا كان كثير منهم يقولون الجسم عندنا هو القائم بنفسه او هو الموجود لا المركب

قال اهل العلم والسنة فاذا قالت الجهمية وغيرهم من نفاة الصفات ان الصفات لاتقوم الا بجسم والله تعالى ليس بجسم ، قيل لهم ان اردتم بالجسم ماهو مركب من جواهر فردة او ما هو مركب من المادة والصورة لم نسلم لكم المقدمة الاولى وهي قولكم ان الصفات لا تقوم الا بما هو كذلك ، قيل لكم ان الرب تعالى قائم بنفسه والعباد يرفعون ايديهم اليه في الدعاء ويقصدونه بقلوبهم وهو العلي الاعلا سبحانه ، ويراه المؤمنون بابصارهم يوم القيامة عيانا كما يرون القمر ليلة البدر ، فان قلتم إنما هو كذلك فهو جسم وهو محدث ، كان هذا بدعة مخالفة للغة والشرع والعقل ، وان قلتم نحن نسمي ما هو كذلك جسما ونقول انه مركب ، قيل تسميتكم التى ابتدعتموها هى من الاسماء التي ما انزل الله بها من سلطان ، ومن عمد الى المعاني المعلومة بالشرع والعقل وسماها باسماء منكرة لينفر الناس عنها قيل له

النزاع في المعاني لا في الالفاظ ولو كانت الالفاظ موافقة للغة ، فكيف اذا كانت من ابتداعهم، ومعلوم ان المعاني التي يعلم ثبوتها بالشرع والعقل لا تدفع بمثل هذا النزاع اللفظي الباطل . واما قولهم ان كل ما كان يقوم به الصفات وترفع الايدي اليه ويمكن ان يراه الناس بابصارهم فانه لا بد ان يكون مركبا من الجواهر المفردة او من المادة والصورة فهذا ممنوع بل هو باطل عند جمهور العقلاء من النظار والفقهاء وغيرهم ، كما قد بسط في موضعه .

قال الجمهور واما تفريق الكلابية بين المعاني التي لاتتعلق بمشيئته وقدرته والمعاني التي تتعلق بمشيئته وقدرته التي تسمى الحوادث ـ ومنهم من يسمي الصفات اعراضا لان العرض لايبقى زمانين ـ فيقال قول القائل ان العرض الذي هو السواد والبياض والطول والقصر ونحو ذلك لا يبقى زمانين قول محدث في الاسلام ، لم يقله احد من السلف والائمة ، وهو قول مخالف لما عليه جماهير العقلاء من جميع الطوائف ، بل من الناس من يقول انه معلوم الفساد بالاضطرار، كما قد بسط في موضع آخر

وأما تسمية المسمي للصفات اعراضاً فهذا امر اصطلاحي لمن قاله من أهل الكلام ليس هو عرف أهل اللغة ولا عرف سائر أهل العلم ، والحقائق المعلومة بالسمع والعقل لايؤثر فيها اختلاف الاصطلاحات ، بل يعد هذا من النزاعات اللفظية ، والنزاعات اللفظية اصوبها ما وافق لغة القرآن والرسول والسلف ، فما نطق به الرسول والصحابة جاز النطق به باتفاق المسلمين ، ومالم ينطقوا به ففيه نزاع وتفصيل ليس هذا موضعه

وأما قول الكلابية مايقبل الحوادث لا يخلو منها ومالم يخل من الحوادث فهو حادث ، فقد نازعهم جمهور العقلاء في كلا المقدمتين حتى أصحابهم المتأخرون نازعوهم في ذلك ، واعترفوا ببطلان الادلة العقلية التي ذكرها سلفهم على نفي

حلول الحوادث به ، واعترف بذلك المتأخرون من أئمة الاشعرية والشيعة والمعتزلة وغيرهم كما قد بسط في غير هذا الموضع

وحدثت طائفة اخرى من السالمية وغيرهم ممن هو من اهل الكلام والفقه والحديث والتصوف ومنهم كثير ممن هو ينتسب الى مالك والشافعي وأحمد بن حنبل وكثر هذا في بعض المتأخرين المنتسبين الى احمد بن حنبل فقالوا بقول المعتزلة وبقول الكلابية :وافقوا هؤلاء في قولهم انه قديم ، ووافقوا اولئك في قولهم انه حروف وأصوات، وأحدثوا قولا مبتدعا كما احدث غيرهم فقالوا القرآن قديم وهو حروف وأصوات قديمة أزلية لازمة لنفس الله تعالى أزلا وأبداً . واحتجوا على انه قديم بحجج الكلابية، وعلى انه حروف وأصوات بحجج المعتزلة. فلما قيل لهم الحروف مسبوقة بعضها ببعض فالباء قبل السين والشين قبل الميم ، والقديم لايسبق بغيره، والصوت لايتصور بقاؤه فضلا عن قدمه ، قالوا الكلام له وجود وماهية ، كقول من فرق بين الوجود والماهية من المعتزلة وغيرهم. قالوا والكلام له ترتيب في وجوده ، وترتيب ماهية الباء للسين بالزمان هي في وجوده وهي مقارنة لها في ماهيتها لم تتقدم عليها بالزمان وان كانت متقدمة بالمرتبة كتقدم بعض الحروف المكتوبة على بعض. فان الكاتب قد يكتب آخر المصحف قبل أوله ومع هذا فاذا كتبه كان أوله متقدما بالمرتبة على آخره

فقال لهم جمهور العقلاء هذا مما يعلم فساده بالاضطرار فان الصوت لايتصور بقاؤه، ودعوى وجود ماهية غير الوجود في الخارج دعوى فاسدة كما قد بسط في موضع آخر . والترتيب الذي في المصحف هو ترتيب للحروف المدادية والمداد أجسام، فهو كترتيب الدار والانسان، وهذا أمر يوجد الجزء الاول منه مع الثاني بخلاف الصوت فانه لايوجد الجزء الثاني منه حتى يعدم الاول كالحركة ، فقياس هذا بهذا قياس باطل ، ومن هؤلاء من يطلق لفظ القديم ولا يتصور معناه، ومنهم من يقول

يعني بالقديم انه بدأ من الله وانه غير مخلوق، وهذا المعني صحيح لكن الذين نازعوا هل هو قديم أو قديم لم يعنوا هذا المعنى ، فمن قال لهم انه قديم وأراد هذا المعنى قد أراد معنى صحيحا لكنه جاهل بمقاصد الناس مضل لمن خاطبه بهذا الكلام مبتدع في الشرع واللغة ،

ثم كثير من هؤلاء يقولون ان الحروف القديمة والاصوات ليست هي الاصوات المسموعة من القراء ولا المداد الذي في المصحف ومنهم من يقول بل الاصوات المسموعة من القراء هو الصوت القديم ، ومنهم من يقول بل يسمع من القاريء شيئان الصوت القديم وهو مالا بد منه في وجود الكلام والصوت المحدث وهو مازاد على ذلك ، وهؤلاء يقولون المداد الذي في المصحف مخلوق لكن الحروف القديمة ليست هي المداد بل الاشكال والمقادير التي تظهر بالمداد ، وقد تنقش في حجر وقد تخرق في ورق ، ومنهم من يمنع أن يقال في المداد انه قديم أو مخلوق ، وقد يقول لاأمنع عن ذلك بل أعلم انه مخلوق لكن أسدُّ باب الخوض في هذا ، وهو مع هذا يهجر من يتكلم بالحق ومن يبين الصواب الموافق للكتاب والسنة واجماع سلف الامة مع موافقته لصريح المعقول ، ومع دفعه للشناعات التي يشنع بها بعضهم على بعض . وخوض الناس وتنازعهم في هذا الباب كثير قد بسطناه في مواضع . وانما المقصود هنا ذكر قول مختصر جامع يبين الاقوال السديدة التي دل عليها الكتاب والسنة وكان عليها سلف الأمة في مسألة الكلام ، التي حيرت عقول الانام، والله تعالى أعلم .



مسألة الاحرف التى أنزلها الله على آدم عليه السلام

وسئل شيخ الاسلام أبو العباس تقي الدين ابن تيمية قدس الله روحه عن رجلين تجادلا في الاحرف التي أنزلها الله على آدم. فقال أحدهما انها قديمة ليس لها مبتدأ وشكلها ونقطها محدث. فقال الآخر ليست بكلام الله وهي مخلوقة بشكلها ونقطها، والقديم هو الله وكلامه منه بدأ واليه يعود، منزل غير مخلوق، ولكنه كتب بها. وسألا أيهما أصوب قولا وأصح اعتقاداً ؟

فأجاب: الحمد لله رب العالمين. أصل هذه المسألة هو معرفة كلام الله تعالى ومذهب سلف الامة وأئمتها من الصحابة والتابعين لهم باحسان وسائر أئمة المسلمين كالأئمة الاربعة وغيرهم مادل عليه الكتاب والسنة، وهو الذي يوافق الادلة العقلية الصريحة، أن القرآن كلام الله منزل غير مخلوق، منه بدأ واليه يعود، فهو المتكلم بالقرآن والتوراة والانجيل وغير ذلك من كلامه ليس مخلوقا منفصلا عنه، وهو سبحانه يتكلم بمشيئته وقدرته، فكلامه قائم بذاته، ليس مخلوقا بائنا عنه، وهو يتكلم بمشيئته وقدرته، لم يقل أحد من سلف الامة ان كلام الله مخلوق بائن عنه، ولا قال أحد منهم ان القرآن أو التوراة أو الانجيل لازمة لذاته أزلا وأبداً، وهو لايقدر أن يتكلم بمشيئته وقدرته، ولا قالوا ان نفس ندائه لموسى أو نفس الكلمة المعينة قديمة أزلية، بل قالوا لم يزل الله متكلما إذا شاء فكلامه قديم بمعنى أنه لم يزل متكلما إذا شاء. وكلمات الله لانهاية لها كما قال تعالى (قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددا) والله سبحانه تكلم بالقرآن العربي وبالتوراة العبرية، فالقرآن العربي كلام الله، كما قال تعالى (فاذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم - الى قوله - لسان

عربي مبين) فقد بين سبحانه أن القرآن الذي يبدل منه آية مكان آية نزله روح القدس وهو جبريل ـ وهو الروح الامين كما ذكر ذلك في موضع آخر ـ من الله بالحق ،وبين بعد ذلك ان من الكفار من قال (انما يعلمه بشر) كما قال بعض المشركين يعلمه رجل بمكة أعجمي، فقال تعالى (لسان الذي يلحدون اليه أعجمي) أي الذي يضيفون اليه هذا التعليم أعجمي (وهذا لسان عربي مبين) ففي هذا مايدل على أن الآيات التي هي لسان عربي مبين نزلها روح القدس من الله بالحق كما قال في الآية الاخرى (أفغير الله أبتغي حكما وهو الذي أنزل اليكم الكتاب مفصلا والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق فلا تكونن من الممترين) والكتاب الذي أنزل مفصلا هو القرآن العربي باتفاق الناس، وقد أخبر ان الذين تاهم الكتاب يعلمون انه منزل من الله بالحق، والعلم لايكون إلا حقا فقال (يعلمون) ولم يقل يقولون، فان العلم لايكون إلا حقا بخلاف القول. وذكر علمهم ذكر مستشهداً به ، وقد فرق سبحانه بين ايحائه الى غير موسى وبين تكليمه لموسى في قوله تعالى (إنا أوحينا اليك كما أوحينا الى نوح ـ الى قوله ـ حجة بعد الرسل) فرق سبحانه بين تكليمه لموسى وبين ايحائه لغيره ووكد تكليمه لموسى بالمصدر، وقال تعالى (تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض ـ الى قوله ـ روح القدس) وقال تعالى (وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا) الى آخر السورة . فقد بين سبحانه انه لم يكن لبشر أن يكلمه الله إلا على أحد الاوجه الثلاثة ، إما وحياً وإما من وراء حجاب وإما أن يرسل رسولا فيوحي باذنه مايشاء ، فجعل الوحي غير التكليم والتكليم من وراء حجاب كان لموسى . وقد أخبر في غير موضع انه ناداه كما قال (وناديناه من جانب الطور) الآية . وقال (فلما أتاها نودي من شاطيء الوادي الأيمن) الآية والنداء باتفاق أهل اللغة لايكون إلا صوتا مسموعا، فهذا مما اتفق عليه سلف المسلمين وجمهورهم ، وأهل الكتاب يقولون ان موسى ناداه ربه نداء سمعه

بإذنه وناداه بصوت سمعه موسى، والصوت لا يكون إلا كلاما والكلام لا يكون إلا حروفا منظومة، وقد قال تعالى (تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم) وقال (حم تنزيل من الرحمن الرحيم) وقال (حم تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم) فقد بين في غير موضع ان الكتاب والقرآن العربي منزل من الله،

وهذا معنى قول السلف : منه بدا ، قال أحمد بن حنبل رحمه الله : منه أي هو المتكلم به، فان الذين قالوا انه مخلوق قالوا خلقه في غيره فبدا من ذلك المخلوق، فقال السلف : منه بدا، أي هو المتكلم به لم يخلقه في غيره فيكون كلاما لذلك المحل الذي خلقه فيه، فان الله تعالى اذا خلق صفة من الصفات في محل كانت الصفة صفة لذلك المحل ولم تكن صفة لرب العالمين ، فاذا خلق طعما أو لونا في محل كان ذلك المحل هو المتحرك[١] المتكون به ، وكذلك اذا خلق حياة أو ارادة أو قدرة أو علما أو كليهما في محل كان ذلك المحل هو المريد القادر العالم المتكلم بذلك الكلام، ولم يكن ذلك المعنى المخلوق في ذلك المحل صفة لرب العالمين ، وانما يتصف الرب تعالى بما يقوم به من الصفات، لا بما يخلقه في غيره من المخلوقات، فهو الحي العليم القدير السميع البصير الرحيم المتكلم بالقرآن وغيره من الكلام، بحياته وعلمه وقدرته وكلامه القائم به لا بما يخلقه في غيره من هذه المعاني ، ومن جعل كلامه مخلوقا لزمه أن يقول المخلوق هو القائل لموسى (إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري) وهذا ممتنع لا يجوز أن يكون هذا كلاما إلا لرب العالمين ، واذا كان الله قد تكلم بالقرآن والتوراة وغير ذلك من الكتب بمعانيها وألفاظها المنتظمة من حروفها لم يكن شيء من ذلك مخلوقا بل كان ذلك لرب العالمين[٢] وقد قيل للامام أحمد

(١) قوله المتحرك غير ظاهر لان ما قبله ليس فيه معنى الحركة فاما أن يكون قد سقط منه شيء واما ان يقال المتصف أي بالطعم واللون (٢) لعل الاصل صفة او كلاما لرب العالمين

ابن حنبل ان فلانا يقول لما خلق الله الأحرف سجدت له إلا ألف ، فقالت : لاأسجد حتى أؤمر ، فقال : هذا كفر . فأنكر على من قال ان الحروف مخلوقة، لانه اذا كان جنس الحروف مخلوقا لزم أن يكون القرآن العربي والتوراة العبرية وغير ذلك مخلوقا وهـذا باطل مخالف لقول السلف والائمة ، مخالف للأدلة العقليه والسمعية ، كما قد بسط في غير هذا الموضع

والناس قد تنازعوا في كلام الله نزاعا كثيرا . والطوائف الكبار نحو ست فرق ، فابعدها عن الاسلام قول من يقول من المتفلسفة والصابئة ان كلام الله انمـا هو ما يفيض على النفوس اما من العقل الفعال ، واما من غيره ، وهؤلاء يقولون : انما كلم الله موسى من سماء عقله اى بـكلام حدث في نفسه لم يسمعه من خارج . واصل قول هؤلاء ان الافلاك قديمة أزلية ، وان الله لم يخلقها بمشيئته وقدرته في ستة ايام كما اخبرت به الانبياء ، بل يقولون ان الله لا يعلم الجزيئات، فلما جاءت الانبياء بما جاءوا به من الامور الباهرة جعلوا يتأولون ذلك تأويلات يحرفون فيها الكلم عن مواضعه ، ويريدون ان يجمعوا بينها وبين اقوال سلفهم اللاحدة ، فقالوا مثل ذلك . وهؤلاء اكفر من اليهود والنصارى ، وهم كثيرو التناقض ، كقولهم ان الصفة هي الموصوف ، وهذه الصفة هي الاخرى فيقولون: هو عقل وعاقل ومعقول ، ولذيذ وملتذ ولذة ، وعاشق ومعشوق وعشق . وقد يعبرون عن ذلك بانه حي عالم معلوم محب محبوب ،ويقولون نفس العلم هو نفس المحبة ، وهو نفس القدرة . ونفس العلم هو نفس العالم . ونفس المحبة هي نفس المحبوب . ويقولون انه علة تامة في الازل . فيجب أن يقارنها معلولها في الازل في الزمن وان كان متقدما عليها بالعلة لا بالزمان . ويقولون إن العلة التامة ومعلولها يقترنان في الزمان ويتلازمان ، فلا يوجد معلول الا بعلة تامة ، ولا تكون علة تامة الا مع معلولهـا في الزمان . ثم يعترفون بان حوادث العالم حدثت شيئا بعد

شيء من غير ان ان يتجدد من المبدع الاول ما يوجب ان يصير علة للحوادث المتعاقبة ، بل حقيقة قولهم أن الحوادث حدثت بلا محدث ، وكذلك عدمت بعد حدوثها من غير سبب يوجب عدمها على أصلهم

وهؤلاء قابلهم طوائف من اهل الكلام ظنوا أن المؤثر التام يتراخى عنه أثره ، وأن القادر المختار يرجح أحد مقدوريه على الآخر بلا مرجح ، والحوادث لها ابتداء وقد حدثت بعد أن لم تكن بدون سبب حادث . ولم يهتد الفريقان للقول الوسط ، وهو أن المؤثر التام مستلزم أن يكون اثره عقب تأثيره التام لا مع التأثير ولا متراخيا عنه ، كما قال تعالى (انما امره اذا اراد شيأ ان يقول له كن فيكون) فهو سبحانه يكون كل شيء فيكون عقب تكوينه لا مع تكوينه في الزمان ولا متراخيا عن تكوينه ، كما يكوّن الانكسار عقب الكسر والانقطاع عقب القطع ووقوع الطلاق عقب التطليق لا متراخيا عنه ولا مقارنا له في الزمان .

والقائلون بالتراخي ظنوا امتناع حوادث لا تتناهى ، فلزمهم أن الرب لا يمكنه فعل ذلك ، فالتزموا أن الرب يمتنع أن يكون لم يزل متكلما بمشيئته ، ويمتنع أن يكون لم يزل قادرا على الفعل والكلام بمشيئته . فافترقوا بعد ذلك ، منهم من قال كلامه لا يكون إلا حادثا ، لان الكلام لا يكون الا مقدورا مرادا ، وما كان كذلك لا يكون الا حادثا ، وما كان حادثا كان مخلوقا منفصلا عنه لامتناع قيام الحوادث به وتسلسلها في ظنهم .

ومنهم من قال بل كلامه لا يكون الا قائما به ، وما كان قائما به لم يكن متعلقا بمشيئته وارادته ، بل لا يكون الا قديم العين ، لانه لو كان مقدورا مرادا لكان حادثا فكانت الحوادث تقوم به ، ولو قامت به لم يسبقها ولم يخل منها ، وما لم يخل من الحوادث فهو حادث لامتناع حوادث لا اول لها .

ومنهم من قال بل هو متكلم بمشيئته وقدرته ، لكنه يمتنع ان يكون متكلما في الازل او انه لم يزل متكلما بمشيئته وقدرته ، لان ذلك يستلزم وجود حوادث لا اول لها ، وذلك ممتنع

قالت هذه الطوائف : ونحن بهذا الطريق علمنا حدوث العالم فاستدللنا على حدوث الاجسام بانها لا تخلو من الحوادث ولا تسبقها ، وما لم يسبق الحوادث فهو حادث . ثم من هؤلاء من ظن ان هذه قضية ضرورية ولم يتفطن لاجمالها . ومنهم من تفطن للفرق بين ما لم يسبق الحوادث المحصورة المحدودة وما يسبق جنس الحوادث المتعاقبة شيأ بعد شيء . اما الاول فهو حادث بالضرورة لان تلك الحوادث لها مبدأ معين فما لم يسبقها يكون معها او بعدها وكلاهما حادث

وأما جنس الحوادث شيئا بعد شيء فهذا شيء تنازع فيه الناس ، فقيل ان ذلك ممتنع في الماضي والمستقبل كقول الجهم وأبي الهذيل . فقال الجهم : بفناء الجنة والنار . وقال ابو الهذيل: بفناء حركات أهلهما . وقيل بل هو جائز في المستقبل دون الماضي لأن الماضي دخل في الوجود دون المستقبل . وهو قول كثير من طوائف النظار . وقيل بل هو جائز في الماضي والمستقبل . وهذا قول أئمة اهل الملل وأئمة السنة كعبدالله بن المبارك واحمد بن حنبل وغيرهما ممن يقول بأن الله لم يزل متكلما اذا شاء ،وان كلمات الله لا نهاية لها وهي قائمة بذاته وهو متكلم بمشيئته وقدرته. وهو ايضا قول أئمة الفلاسفة . لكن ارسطو وأتباعه مدعون ذلك في حركات الفلك ويقولون انه قديم أزلي،وخالفوا في ذلك جمهور الفلاسفة مع مخالفة الانبياء والمرسلين وجماهير العقلاء . فانهم متفقون على ان الله خلق السموات والارض بل هو خالق كل شيء وكل ماسوى الله مخلوق حادث كائن بعد أن لم يكن . وان القديم الأزلي هو الله تعالى بما هو متصف به من صفات الكمال وليست صفاته خارجة عن مسمى اسمه ، بل من قال عبدت الله ودعوت الله فانما عبد ذاته المتصفة بصفات الكمال التي تستحقها ويمتنع وجود ذاته بدون صفاتها اللازمة لها .

ثم لما تكلم في النبوات من اتبع ارسطو كابن سينا وأمثاله ورأوا ماجاءت به الانبياء من اخبارهم بأن الله يتكلم وانه كلم موسى تكليما وانه خالق كل شيء ،

أخذوا يحرفون كلام الانبياء عن مواضعه ، فيقولون : الحدوث نوعان ، ذاتي وزماني ، ونحن نقول ان الفلك محدث الحدوث الزماني بمعنى انه معلول وإن كان أزليا لم يزل مع الله ، وقالوا انه مخلوق بهذا الاعتبار ، والكتب الالهية أخبرت بأن الله خلق السموات والارض في ستة أيام ، والقديم الازلي لايكون في أيام ،

وقد علم بالاضطرار ان ما أخبرت به الرسل من أن الله خلق كل شيء وانه خلق كذا انما أرادوا بذلك انه خلق المخلوق وأحدثه بعد أن لم يكن كما قال (وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا) والعقول الصريحة توافق ذلك وتعلم ان المفعول المخلوق المصنوع لايكون مقارنا للفاعل في الزمان ولا يكون إلا بعده ، وان الفعل لايكون إلا باحداث المفعول ، وقالوا لهؤلاء قولكم « انه مؤثر تام في الازل » لفظ مجمل يراد به التأثير العام في كل شيء ، ويراد به التأثير المطلق في شيء بعد شيء ، ويراد به التأثير في شيء معين دون غيره ، فان أردتم الاول لزم أن لا يحدث في العالم حادث ، وهذا خلاف المشاهدة ، وان أردتم الثاني لزم أن يكون كل ماسوى الله مخلوقا حادثا كائنا بعد أن لم يكن ، وان كان الرب لم يزل متكلما بمشيئته فعالا لما يشاء ، وهذا يناقض قولكم ويستلزم ان كل ماسواه مخلوق ويوافق ما أخبرت به الرسل ، وعلى هذا يدل العقل الصريح ، فتبين ان العقل الصريح يوافق ما أخبرت به الانبياء ، وإن أردتم الثالث فسد قولكم لانه يستلزم انه يشاء [حدوثها] بعد أن لم يكن فاعلا لها من غير تجدد سبب يوجب الاحداث ، وهذا يناقض قولكم . فان صح هذا جاز ان يحدث كل شيء بعد أن لم يكن محدثا لشيء ، وإن لم يصح هذا بطل ، فقولكم باطل على التقديرين . وحقيقة قولكم ان المؤثر التام لايكون إلا مع أثره ولا يكون الاثر إلا مع المؤثر التام في الزمن وحينئذ فيلزمكم أن لا يحدث شيء ، ويلزمكم ان كل ماحدث حدث بدون مؤثر ، ويلزمكم بطلان الفرق بين أثر وأثر ، وليس لكم أن تقولوا بعض الآثار يقارن المؤثر التام وبعضها يتراخى عنه .

وأيضا فكونه فاعلا لمفعول معين مقارن له أزلا وأبداً باطل في صريح العقل، وأيضاً فأنتم وسائر العقلاء موافقون على ان الممكن الذي لايكون ممكنا يقبل الوجود والعدم وهو الذي جعلتموه الممكن الخاص الذي قسيمه الضروري الواجب والضروري الممتنع لايكون إلا موجوداً تارة ومعدوما أخرى ، وان القديم الازلي لا يكون الا ضروريا واجبا يمتنع عدمه . وهذا مما اتفق عليه ارسطو واتباعه حتى ابن سينا ، وذكره في كتبه المشهورة كالشفا وغيره . ثم تناقض فزعم أن الفلك ممكن مع كونه قديما ازليا لم يزل ولا يزال ، وزعم ان الواجب بغيره القديم الازلي الذى يمتنع عدمه يكون ممكنا يقبل الوجود والعدم ، وزعم ان له ماهية غير وجوده . وقد بسط الكلام على فساد قول هؤلاء وتناقضه في غير هذا الموضع

والقول الثانى للناس في كلام الله تعالى قول من يقول ان الله لم يقم به صفة من الصفات ، لا حياة ولا علم ولا قدرة ولا كلام ولا ارادة ولا رحمة ولا غضب ولا غير ذلك ، بل خلق كلاما في غيره فذلك المخلوق هو كلامه ، وهذا قول الجهمية والمعتزلة . وهذا القول ايضا مخالف للكتاب والسنة واجماع السلف، وهو مناقض لاقوال الانبياء ونصوصهم . وليس مع هؤلاء عن الانبياء قول يوافق قولهم ، بل لهم شبه عقلية فاسدة قد بينا فسادها في غير هذا الموضع . وهؤلاء زعموا أنهم يقيمون الدليل على حدوث العالم بتلك الحجج ، وهم لا الاسلام نصروا، ولا لأعدائه كسروا

والقول الثالث قول من يقول انه يتكلم بغير مشيئته وقدرته بكلام قائم بذاته أزلا وابدا ، وهؤلاء موافقون لمن قبلهم في اصل قولهم ، لكن قالوا الرب يقوم به الصفات ولا يقوم به ما يتعلق بمشيئته وقدرته من الصفات الاختيارية

وأول من اشتهر عنه انه قال هذا القول في الاسلام عبد الله بن سعيد بن

كلاب . ثم افترق موافقوه ، فمنهم من قال ذلك الكلام معنى واحد هو الامر بكل مامور،والنهي عن كل محظور،والخبر عن كل مخبر عنه ، إن عبر عنه بالعربية كان قرآنا ، وان عبر عنه بالعبرية كان توراة . وقالوا معنى القرآن والتوراة والانجيل واحد . ومعنى آية الكرسي هو معنى آية الدّين .وقالوا الامر والنهي والخبر صفات الكلام لا أنواع له . ومن محققيهم من جعل المعنى يعود الى الخبر والخبر يعود الى العلم

وجمهور العقلاء يقولون قول هؤلاء معلوم الفساد بالضرورة .وهؤلاء يقولون تكليمه لموسى ليس الا خلق ادراك يفهم به موسى ذلك المعنى . فقيل لهم: أفهم كل الكلام ام بعضه ؟ ان كان فهمه كله فقد علم علم الله ، وان كان فهم بعضه فقد تبعض ، وعندهم كلام الله لا يتبعض ولا يتعدد . وقيل لهم : قد فرق الله بين تكليمه لموسى وايحائه لغيره . وعلى اصلكم لا فرق . وقيل لهم : قد كفر الله من جعل القرآن العربي قول البشر ، وقد جعله تارة قول رسول من البشر ، وتارة قول رسول من الملائكة ، فقال في موضع (انه لقول رسول كريم وماهو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون * ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون) فهذا الرسول محمد ﷺ . وقال في الآية الاخرى (انه لقول رسول كريم * ذي قوة عند ذي العرش مكين * مطاع ثم امين) فهذا جبريل ، فاضافه تارة الي الرسول الملكي. وتارة الى الرسول البشري . والله يصطفي من الملائكة رسلا ومن الناس. وكان بعض هؤلاء ادعى ان القرآن العربي احدثه جبريل أو محمد فقيل لهم : لو أحدثه احدهما لم يجز إضافته الى الآخر . وهو سبحانه اضافه الى كل منهما باسم الرسول الدال على مرسله لا باسم الملك والنبي ، فدل ذلك على انه قول رسول بلغه عن مرسله لا قول ملك او نبي احدثه من تلقاء نفسه، بل قد كفّر من قال انه قول البشر

والطائفة الاخرى التي وافقت ابن كلاب على ان الله لايتكلم بمشيئته وقدرته

قالت بل الكلام القديم هو حروف أو حروف وأصوات لازمة لذات الرب أزلا وأبداً لا يتكلم بها بمشيئته وقدرته ولا يتكلم بها شيئا بعد شيء . ولا يفرق هؤلاء بين جنس الحروف وجنس الكلام وبين عين الحروف قديمة أزلية ، وهذا أيضا مما يقول جمهور العقلاء انه معلوم الفساد بالضرورة ، فان الحروف المتعاقبة شيئا بعد شيء يمتنع ان يكون كل منها قديما أزليـا وان كان جنسها قديما ، لإمكان وجود كلمات لا نهاية لها وحروف متعاقبة لا نهاية لها ، وامتناع كون كل منها قديما أزليا ، فان المسبوق بغيره لا يكون أزليا. وقد فرق بعضهم بين وجودها وماهيتها فقال : الترتيب في ماهيتها لا في وجودها ، وبطلان هذا القول معلوم بالاضطرار لمن تدبره ، فان ماهية الكلام الذي هو حروف لا يكون شيئا بعد شيء ، والصوت لا يكون إلا شيئا بعد شيء ، فامتنع أن يكون وجود الماهية المعينة أزلياً متقدما عليها به ، مع ان الفرق بينهما يين لو قدر الفرق بينهما . ويلزم من هذين الوجهين أن يكون وجودها أيضاً مترتباً ترتيبا متعاقبا

ثم من هؤلاء من يزعم ان ذلك القديم هو مايسمع من العباد من الاصوات بالقرآن والتوراة والانجيل أو بعض ذلك ، وكان أظهر فساداً مما قبله ، فانه يعلم بالضرورة حدوث أصوات العباد .

وطائفة خامسة قالت : بل الله يتكلم بمشيئته وقدرته بالقرآن العربي وغيره لكن لم يكن يمكنه أن يتكلم بمشيئته في الازل لامتناع حوادث لا أول لها ، وهؤلاء جعلوا الرب في الازل غير قادر على الكلام بمشيئته ولا على الفعل كما فعله أولئك. ثم جعلوا الفعل والكلام ممكنا مقدوراً من غير تجدد شيء أوجب القدرة والامكان كما قال أولئك في المفعولات المنفصلة

وأما السلف فقالوا لم يزل الله متكلما اذا شاء ، وان الكلام صفة كمال، ومن يتكلم أكمل ممن لا يتكلم ، كما ان من يعلم ويقدر أكمل ممن لا يعلم ولا يقدر، ومن

يتكلم بمشيئته وقدرته أكمل ممن يكون الكلام لازما لذاته ليس له عليه قدرة ولا له فيه مشيئته . والكمال انما يكون بالصفات القائمة بالموصوف لا بالامور المباينة له ، ولا يكون الموصوف متكلما عالما قادراً إلا بما يقوم به من الكلام والعلم والقدرة. واذا كان كذلك فمن لم يزل موصوفا بصفات الكمال اكمل ممن حدثت له بعد أن لم يكن متصفا بها لو كان حدوثها ممكنا . فكيف اذا كان ممتنعا ؟ فتبين ان الرب لم يزل ولا يزال موصوفا بصفات الكمال ، منعوتا بنعوت الجلال ، ومن أجلها الكلام، فلم يزل متكلما اذا شاء ولا يزال كذلك، وهو يتكلم اذا شاء بالعربية كما تكلم بالقرآن العربي، وما تكلم الله به فهو قائم به ليس مخلوقا منفصلا عنه ، فلا تكون الحروف التي هي مباني أسماء الله الحسنى وكتبه المنزلة مخلوقة لان الله تكلم بها

فصل

ثم تنازع بعض المتأخرين في الحروف الموجودة في كلام الآدميين. وسبب نزاعهم أمران: أحدهما انهم لم يفرقوا بين الكلام الذي يتكلم الله به فيُسمع منه، وبين ما اذا بلغه عنه مبلغ فسُمع من ذلك المبلغ ، فان القرآن كلام الله تكلم به بلفظه ومعناه بصوت نفسه . فاذا قرأه القراء قرأوه بأصوات أنفسهم. فاذا قال القارىء (الحمد لله رب العالمين * الرحمن الرحيم) كان هذا الكلام المسموع منه كلام الله لا كلام نفسه ، وكان هو قرأه بصوت نفسه لا بصوت الله ، فالكلام كلام الباري، والصوت صوت القارىء ، كما قال النبي ﷺ «زينوا القرآن بأصواتكم» وكان يقول « ألا رجل يحملني الى قومه لابلغ كلام ربي فان قريشا قد منعوني أن أبلغ كلام ربي » وكلا الحديثين ثابت ، فبين ان الكلام الذي بلغه كلام ربه، وبين ان القارىء يقرأه بصوت نفسه ، وقال ﷺ « ليس منا من لم يتغن بالقرآن» قال أحمد والشافعي وغيرهما :هو تحسينه بالصوت، قال احمد بن حنبل:

يحسنه بصوته ، فبين احمد أن القاريء يحسن القرآن بصوت نفسه

والسبب الثاني أن السلف قالوا كلام الله منزل غير مخلوق ، وقالوا لم يزل متكلما اذا شاء . فبينوا ان كلام الله قديم ، أي جنسه قديم لم يزل ، ولم يقل أحد منهم ان نفس الكلام المعين قديم، ولا قال أحد منهم القرآن قديم ، بل قالوا انه كلام الله منزل غير مخلوق ، واذا كان الله قد تكلم بالقرآن بمشيئته كان القرآن كلامه، وكان منزلا منه غير مخلوق ، ولم يكن مع ذلك أزلياً قديما بقدم الله وإن كان الله لم يزل متكلما اذا شاء ، فجنس كلامه قديم . فمن فهم قول السلف وفرق بين هذه الاقوال زالت عنه الشبهات في هذه المسائل المعضلة التي اضطرب فيها أهل الارض

فمن قال ان حروف المعجم كلها مخلوقة وان الله تعالى [1] مخالفا للمعقول الصريح، والمنقول الصحيح ، ومن قال ان نفس أصوات العباد او مدادهم او شيئا من ذلك قديم فقد خالف أيضا أقوال السلف، وكان فساد قوله ظاهراً لكل أحد ، وكان مبتدعا قولا لم يقله أحد من أئمة المسلمين ولا قالته طائفة كبيرة من طوائف المسلمين ، بل الأئمة الاربعة وجمهور أصحابهم بريئون من ذلك . ومن قال ان الحرف المعين او الكلمة المعينة قديمة العين، فقد ابتدع قولا باطلا في الشرع والعقل . ومن قال ان جنس الحروف التي تكلم الله بها بالقرآن وغيره ليست مخلوقة وأن الكلام العربي الذي تكلم به ليس مخلوقا والحروف المنتظمة منه جزء منه ولازمة له وقد تكلم الله بها فلا تكون مخلوقة فقد أصاب .

واذا قال ان الله هدى عباده وعلمهم البيان فانطقهم بها باللغات المختلفة وأنعم عليهم بان جعلهم ينطقون بالحروف التي هي مباني كتبه وكلامه

---

(١) كذا بالاصل ويظهر انه قد سقط من هنا شيء فان قوله (وان الله تعالى) ليس له خبر يتم به الكلام . وهو تمهيد للجواب عن الاقوال التي تقدم سؤال شيخ الاسلام عنها في صفحة ٣٥ وفيه ان الذين قالوا انها مخلوقة بشكلها ونقطها الخ وقوله « مخالفا للمعقول » سقط من قبله العامل فيه ولعله فقد قال قولا مخالفا الخ

وأسمائه فهذا قد أصاب ، فالانسان وجميع مايقوم به من الاصوات والحركات وغيرها مخلوق كائن بعد ان لم يكن ، والرب تعالى بما يقوم به من صفاته وكلماته وأفعاله غير مخلوق ، والعباد إذا قرأوا كلامه فان كلامه الذي يقرؤنه هو كلامه لا كلام غيره ، وكلامه الذي تكلم به لا يكون مخلوقا وكان مايقرؤن به كلامه من حركاتهم وأصواتهم مخلوقا ، وكذلك مايكتب في المصاحف من كلامه فهو كلامه مكتوبا في المصاحف وكلامه غير مخلوق، والمداد الذي يكتب به كلامه وغير كلامه مخلوق . وقد فرق سبحانه وتعالى بين كلامه وبين مداد كلماته بقوله تعالى (قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفذ البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددا) وكلمات الله غير مخلوقة والمداد الذي يكتب به كلمات الله مخلوق والقرآن المكتوب في المصاحف غير مخلوق ، وكذلك المكتوب في اللوح المحفوظ وغيره قال تعالى (بل هو قرآن مجيد * في لوح محفوظ) وقال (كلا انها تذكرة * فمن شاء ذكره * في صحف مكرمة * مرفوعة مطهرة) وقال تعالى (يتلو صحفا مطهرة * فيها كتب قيمة) وقال (انه لقرآن كريم * في كتاب مكنون * لا يمسه الا المطهرون)

فصل

فهذان المتنازعان اللذان تنازعا في الأحرف التي أنزلها الله على آدم ، فقال أحدهما : انها قديمة وليس لها مبتدأ وشكلها ونقطها محدث . وقال الآخر : انها ليست بكلام وانها مخلوقة بشكلها ونقطها وان القديم هو الله وكلامه منه بدأ واليه يعود منزل غير مخلوق ، ولكنه كتب بها . وسؤالهما ان نبين لهما الصواب وأيهما أصح اعتقاداً ، يقال لهما : يحتاج بيان الصواب إلى بيان مافي السؤال من الكلام المجمل فان كثيراً من نزاع العقلاء لكونهما [1] لا يتصوران مورد النزاع تصوراً

(١) أي لكون المتنازعين منهم

بينا ، وكثير من النزاع قد يكون الصواب فيه في قول آخر غير القولين اللذين قالاهما، وكثير من النزاع قد يكون مبنيا على أصل ضعيف اذا بين فساده ارتفع النزاع

فأول ما في هذا السؤال قولها : الأحرف التي أنزلها الله على آدم، فانه قد ذكر بعضهم ان الله أنزل عليه حروف المعجم مفرقة مكتوبة،وهذا ذكره ابن قتيبة في المعارف وهو ومثله يوجد في التواريخ كتاريخ ابن جرير الطبري ونحوه ،وهذا ونحوه منقول عمن ينقل الاحاديث الاسرائيلية ونحوها من أحاديث الانبياء المتقدمين ،مثل وهب بن منبه وكعب الاحبار،ومالك بن دينار ،ومحمد بن اسحاق وغيرهم. وقد أجمع المسلمون على أن ماينقله هؤلاء عن الانبياء المتقدمين لايجوز أن يجعل عمدة في دين المسلمين الا إذا ثبت ذلك بنقل متواتر ، أوأن يكون منقولا عن خاتم الرسلين ، وأيضاً فهذا النقل قد عارضه نقل آخر وهو ان أول من خط وخاط ادريس. فهذا منقول عن بعض السلف وهومثل ذلك وأقوى،فقد ذكروا فيه ان ادريس أول من خاط الثياب وخط بالقلم،وعلى هذا فبنو آدم من قبل ادريس لم يكونوا يكتبون بالقلم ولا يقرؤن كتبا . والذي في حديث ابي ذر المعروف عن أبي ذر عن النبي ﷺ « ان آدم كان نبياً مكلما كلمه الله قبلا» وليس فيه انه أنزل عليه شيئاً مكتوبا،فليس فيه ان الله أنزل على آدم صحيفة ولا كتابا ولا هذا معروف عند أهل الكتاب، فهذا يدل على أن هذا لاأصل له ولو كان هذا معروفا عند اهل الكتاب لكان هـذا النقل ليس هو في القرآن ولا في الاحاديث الصحيحة عن النبي ﷺ وانما هو من جنس الاحاديث الاسرائيلية التي لا يجب الايمان بها ، بل ولا يجوز التصديق بصحتها الا بحجة ، كما قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح « اذا حدثكم أهل الكتاب فلاتصدقوهم ولاتكذبوهم فاما أن يحدثوكم بحق فتكذبوه ، وإما أن يحدثوكم بباطل فتصدقوه »

والله سبحانه علم آدم الاسماء كلها وأنطقه بالكلام المنظوم . وأما تعليم حروف

مقطعة لا سيما إذا كانت مكتوبة فهو تعليم لا ينفع، ولكن لما أرادوا تعليم المبتدىء بالخط صاروا يعلمونه الحروف المفردة حروف الهجاء، ثم يعلمونه تركيب بعضها الى بعض فيعلم أبجد هوز . وليس هذا وحده كلاما

فهذا المنقول عن آدم من نزول حروف الهجاء عليه لم يثبت به نقل، ولم يدل عليه عقل، بل الأظهر في كليهما نفيه ، وهو من جنس ما يروونه عن النبي ﷺ من تفسير اب ت ث ، وتفسير ابجد هوز حطي، ويروونه عن المسيح انه قال لمعلمه في الكتاب . وهذا كله من الاحاديث الواهية بل المكذوبة . ولا يجوز باتفاق أهل العلم بالنقل أن يحتج بشيء من هذه وان كان قد ذكرها طائفة من المصنفين في هذا الباب كالشريف المزيدي والشيخ أبي الفرج وابنه عبد الوهاب وغيرهم. وقد يذكر ذلك طائفة من المفسرين والمؤرخين ، فهذا كله عند أهل العلم بهذا الباب باطل لا يعتمد عليه في شيء من الدين . وهذا وان كان قد ذكره ابو بكر النقاش وغيره من المفسرين عن النقاش ونحوه نقله الشريف المزيدي الحراني وغيره (١) فأجل من ذكر ذلك من المفسرين أبو جعفر محمد بن جرير الطبري وقد بين في تفسيره ان كل ما نقل في ذلك عن النبي ﷺ فهو باطل . فذكر في آخر تفسيره اختلاف الناس في تفسير ابجد هوز حطي وذكر حديثا رواه من طريق محمد بن زياد الجزرى عن فرات بن أبي الفرات عن معاوية بن قرة عن أبيه قال قال رسول الله ﷺ « تعلموا أباجاد وتفسيرها ، ويل لعالم جهل تفسير ابي جاد » قال قالوا يارسول الله وما تفسيرها ؟ قال « أما الالف فآلاء الله وحرف من اسمائه . وأما الباء فبهاء الله، وأما الجيم فجلال الله، وأما الدال فدين الله،

---

(١) في هذا التركيب نظر والمعنى أن هذا ان كان النقاش والمزيدى وابو الفرج وابنه قد ذكروه وسكتوا عليه فابن جرير قد ذكره وصرح ببطلانه وهو اجل منهم

وأما الهاء فالهاوية، وأما الواو فويل لمن سهاء، وأما الزاي فالزاوية . وأما الحاء فخطوط الخطايا عن المستغفرين بالاسحار » وذكر تمام الحديث من هذا الجنس . وذكر حديثا ثانيا من حديث عبد الرحيم بن واقد حدثني الفرات ابن السائب عن ميمون بن مهران عن ابن عباس قال « ليس شيء إلا وله سبب وليس كل أحد يفطن له ولا بلغه ذلك ، ان لابي جاد حديثا عجيبا ، أما ابوجاد فأبى آدم الطاعة وجد في اكل الشجرة ، وأما هوز فزل آدم فهوى من السماء الى الارض، وأما حطي فحطت عنه خطيئته، وأما كلمن فأكله من الشجرة ومن عليه بالتوبة» وساق تمام الحديث من هذا الجنس. وذكر حديثا ثالثا من حديث اسماعيل بن عياش عن اسماعيل بن يحيى عن ابن أبي مليكة عمن حدثه عن ابن مسعود ومسعر بن كدام عن ابي سعيد قال قال رسول الله ﷺ « ان عيسى بن مريم أسلمته امه الى الكتاب ليعلمه ، فقال له المعلم : اكتب بسم الله ، فقال له عيسى . ومابسم الله؟ فقال له المعلم ما ادري . فقال له عيسى الباء بهاء الله ، والسين سناؤه ، والميم ملكه ، والله إله الآلهة ، والرحمن رحمن الدنيا والآخرة، والرحيم رحيم الآخرة. ابو جاد الف آلاء الله، وباء بهاء الله ، وجيم جمال الله، ودال الله الدائم، وهوز هاء الهاوية » وذكر حديثا من هذا الجنس وذكره عن الربيع بن انس موقوفا عليه . وروى ابو الفرج المقدسي عن الشريف المزيدي حديثا عن عمر عن النبي ﷺ في تفسير اب ت ث من هذا الجنس

ثم قال ابن جرير: ولو كانت الاخبار التي رويت عن النبي ﷺ في ذلك صحاح الاسانيد لم يعدل عن القول بها إلى غيرها ، ولكنها واهية الاسانيد غير جائز الاحتجاج بمثلها . وذلك ان محمد بن زياد الجزري الذي حدث حديث معاوية بن قرة عن فرات عنه غير موثوق بنقله ، وان عبد الرحيم بن واقد الذي خالفه في رواية ذلك عن الفرات مجهول غير معروف عند اهل النقل . وان اسماعيل

ابن يحيى الذي حدث عن ابن أبي مليكة غير موثوق بروايته ولا جائز عند اهل النقل الاحتجاج بأخباره

قلت: اسماعيل بن يحيى هذا يقال له التيمي كوفي معروف بالكذب، ورواية اسماعيل بن عياش في غير الشاميين لا يحتج بها ، بل هو ضعيف فيما ينقله عن اهل الحجاز وأهل العراق بخلاف ما ينقله عن شيوخه الشاميين فانه حافظ لحديث اهل بلده كثير الغلط في حديث اولئك ، وهذا متفق عليه بين أهل العلم بالرجال ، وعبد الرحمن ابن واقد لا يحتج به باتفاق أهل العلم ، وفرات بن السائب ضعيف أيضا لا يحتج به فهو فرات بن أبي الفرات ، ومحمد بن زياد الجزري ضعيف أيضاً

وقد تنازع الناس في أبجد هوز حطي فقال طائفة هي أسماء قوم ، قيل أسماء ملوك مدين او أسماء قوم كانوا ملوكا جبابرة . وقيل هي أسماء الستة الايام التي خلق الله فيها الدنيا . والاول اختيار الطبري. وزعم هؤلاء أن أصلها ابوجاد مثل ابي عاد وهواز مثل رواد وجواب . وانها لم تعرب لعدم العقد والتركيب

والصواب أن هذه ليست أسماء لمسميات وانما ألفت ليعرف تأليف الاسماء من حروف المعجم بعد معرفة حروف المعجم . ولفظها : أبجد ، هوز ، حطي . ليس لفظها ابوجاد هواز . ثم كثير من أهل الحساب صاروا يجعلونها علامات على مراتب العدد ، فيجعلون الالف واحداً ، والباء اثنين ، والجيم ثلاثة ، الى الياء ثم يقولون الكاف عشرون ... وآخرون من اهل الهندسة والمنطق يجعلونها علامات على الخطوط المكتوبة ، او على ألفاظ الاقيسة المؤلفة كما يقولون كل الف ب وكل ب ج فكل الف ج . ومثلوا بهذه لكونها ألفاظا تدل على صورة الشكل . والقياس لا يختص بمادة دون مادة ، كما جعل أهل التصريف لفظ فعل تقابل الحروف الاصلية ، والزائدة ينطقون بها . ويقولون وزن استخرج استفعل ، وأهل العروض يزنون بالفاظ مؤلفة من ذلك لكن يراعون الوزن من غير اعتبار بالاصل

والزائد، ولهذا سئل بعض هؤلاء عن وزن نكتل فقال نفعل ، وضحك منه أهل التصريف ووزنه عندهم نفتل فان أصله نكتال ، وأصل نكتال نكتيل تحركت الياء وانفتح ماقبلها فقلبت الفا، ثم لما جزم الفعل سقطت، كما تقول مثل ذلك في نعتد و نقتد من اعتاد يعتاد واقتاد البعير يقتاده

ونحو ذلك في نقتيل فلما حذفوا الالف التي تسمى لام الكلمة صار وزنها وجعلت ثمانية تكون متحركة وهى الهمزة (١) وتكون سا كنة وهي حرفان على الاصطلاح الاول وحرف واحد على الثاني ، والالف تقرن بالواو والياء لانهن حروف العلة ، ولهذا ذكرت في آخر حروف المعجم ونطقوا باول لفظ كل حرف منها الا الالف فلم يمكنهم أن ينطقوا بها ابتداء فجعلوا اللام قبلها فقالوا «لا» والتي في الاول هي الهمزة المتحركة فان الهمزة في أولها . وبعض الناس ينطق بها «لام الف» والصواب أن ينطق بها «لا» وبسط هذا له موضع آخر

والمقصود هنا أن العلم لابد فيه من نقل مصدق ونظر محقق . وأما النقول الضعيفة لاسيما المكذوبة فلا يعتمد عليها . وكذلك النظريات الفاسدة والعقليات الجهلية الباطلة لايحتج بها

(الثاني) أن يقال هذه الحروف الموجودة في القرآن العربي قد تكلم الله بها باسماء حروف مثل قوله (الم) وقوله (المص) وقوله (المر ـ طس ـ حم ـ كهيعص ـ حمعسق ـ ن ـ ق) فهذا كله كلام الله غير مخلوق

(الثالث) ان هذه الحروف اذا وجدت في كلام العباد، وكذلك الاسماء الموجودة

---

(١) قوله : ونحو ذلك في نقتيل — الى هنا — محرف فكلمة نقتيل ليست من الناقص فتكون لام الكلمة في وزنها ألفا منقلبة وقوله « صار وزنها » قدسقط خبره ولو ذكر لعرفنا اصل الكلمة : وقوله « جعلت ثمانية » غير مفهوم فيفهم به ماقبله وما بعده الخ

في القرآن إذا وجدت في كلام العباد مثل آدم ونوح ومحمد وابراهيم وغير ذلك، فيقال هذه الاسماء وهذه الحروف قد تكلم الله بها لكن لم يتكلم بها مفردة، فان الاسم وحده ليس بكلام ولكن يتكلم بها في كلامه الذي أنزله في مثل قوله (محمد رسول الله) وقوله (واذ قال ابراهيم رب اجعل هذا البلد آمنا ــ إلى قوله ــ رب اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي) وقوله (ان الله اصطفى آدم ونوحا وآل ابراهيم وآل عمران على العالمين) ونحو ذلك . ونحن إذا تكلمنا بكلام ذكرنا فيه هذه الاسماء فكلامنا مخلوق وحروف كلامنا مخلوقة، كما قال احمد ابن حنبل لرجل : ألست مخلوقا ؟ قال : بلى ، قال أليس كلامك منك ؟ قال : بلى ، قال : أليس كلامك مخلوقا ؟ قال : بلى ، قال : فالله تعالى غير مخلوق ، وكلامه منه ليس بمخلوق

فقد نص احمد وغيره على ان كلام العباد مخلوق وهم انما يتكلمون بالاسماء والحروف التي يوجد نظيرها في كلام الله تعالى ، لكن الله تعالى تكلم بها بصوت نفسه وحروف نفسه وذلك غير مخلوق ، وصفات الله تعالى لا تماثل صفات العباد . فان الله تعالى ليس كمثله شيء لا في ذاته ولا صفاته ولا افعاله . والصوت الذى ينادي به عباده يوم القيامة والصوت الذى سمعه منه موسى ليس كأصوات شيء من المخلوقات . والصوت المسموع هو حروف مؤلفة وتلك لا يماثلها شيء من صفات المخلوقين ، كما ان علم الله القائم بذاته ليس مثل علم عباده، فان الله لا يماثل المخلوقين في شيء من الصفات ، وهو سبحانه قد علم العباد من علمه ما شاء كما قال تعالى (ولا يحيطون بشيء من علمه الا بما شاء) وهم اذا علمهم الله ما علمهم من علمه فنفس علمه الذى اتصف به ليس مخلوقا ونفس العباد وصفاتهم مخلوقة ، لكن قد ينظر الناظر الى مسمى العلم مطلقا ، فلا يقال ان ذلك العلم مخلوق لاتصاف الرب به وان كان ما يتصف به العبد مخلوقا

واصل هذا ان ما يوصف الله به ويوصف به العباد يوصف الله به على ما يليق به (١) ويوصف به العباد بما يليق بهم من ذلك ، مثل الحياة والعلم والقدرة والسمع والبصر والكلام ، فان الله له حياة وعلم وقدرة وسمع وبصر وكلام . فكلامه يشتمل على حروف وهو يتكلم بصوت نفسه ، والعبد له حياة وعلم وقدرة وسمع وبصر وكلام ، وكلام العبد يشتمل على حروف وهو يتكلم بصوت نفسه . فهذه الصفات لها ثلاث اعتبارات : تارة تعتبر مضافة الى الرب . وتارة تعتبر مضافة الى العبد ، وتارة تعتبر مطلقة لا تختص بالرب ولا بالعبد . فاذا قال العبد : حياة الله وعلم الله وقدرة الله وكلام الله ونحو ذلك ، فهذا كله غير مخلوق ولا يماثل صفات المخلوقين ، واذا قال علم العبد وقدرة العبد وكلام العبد ، فهذا كله مخلوق ولا يماثل صفات الرب . واذا قال العلم والقدرة والكلام ، فهذا مجمل مطلق لا يقال

(١) يعني أن الاشتراك في اطلاق الوصف لا يقتضي المساواة ولا المشابهة في الصفة فضلا عن مشابهة الموصوف. وقد اختلف العلماء هل هو اشتراك في الجنس او في الاسم ؟ وسببه انه لا يمكن تعريف الوحي والرسل عباد الله بربهم وصفاته الا بلغاتهم التي يفهمونها (وما ارسلنا من رسول الا بلسان قومه ليبين لهم) فكان لا بد من تسميته صفاته تعالى باسماء صفاتهم التي تدل عليها مع اعلامهم بعدم مماثلتها لها ، قال الغزالي في بيان هذا المعنى ما حاصله : ان لله صفة يصدر عنها الابداع والاختراع ويسند اليها الايجاد والاعدام وهذه الصفة اجل وارفع من ان تدركها عين واضع اللغة فيخصها باسم يدل على كنهها، فلما أريد اعلام البشر بها استعير لها من ألسنة المتخاطبين باللغات اقرب الكلمات دلالة عليها او اشارة الى عظمة شأنها وأثرها في الخلق وهي كلمة القدرة اهـ بالمعنى من غير مراجعة الاصل وهو في كتاب الشكر من الاحياء . وما يقال في القدرة يقال في العلم والكلام والصوت به الذي هو مقتضي النداء الثابت بالقرآن والمصرح به في الحديث الصحيح خلافا لمن فرق بين هذه الصفات من المتكلمين بتحكم نظريات المذاهب

عليه كله انه مخلوق ولا انه غير مخلوق ، بل مااتصف به الرب من ذلك فهو غير مخلوق،ومااتصف به العبد من ذلك فهو مخلوق . فالصفة تتبع الموصوف . فان كان الموصوف هو الخالق فصفاته غير مخلوقة ، وان كان الموصوف هو العبد المخلوق فصفاته مخلوقة . ثم اذا قرأ بام القرآن وغيرها من كلام الله فالقرآن في نفسه كلام الله غير مخلوق،وان كان حركات العباد واصواتهم مخلوقة . ولو قال الجنب (الحمد لله رب العالمين) ينوي به القرآن منع من ذلك وكان قرآنا ، ولو قاله ينوي به حمد الله لا يقصد به القراءة لم يكن قارئا وجازله ذلك . ومنه قول النبي ﷺ « افضل الكلام بعد القرآن اربع وهن من القرآن : سبحان الله والحمد لله ، ولااله الا الله ، والله اكبر» رواه مسلم في صحيحه. فاخبر أنها أفضل الكلام بعد القرآن وقال هي من القرآن ، فهي من القرآن باعتبار ، وليست من القرآن باعتبار ، ولو قال القائل (يايحيي خذ الكتاب)ومقصوده القرآن كان قد تكلم بكلام الله ولم تبطل صلاته باتفاق العلماء ، وان قصد مع ذلك تنبيه غيره لم تبطل صلاته عند جمهور العلماء. ولو قال لرجل اسمه يحيي وبحضرته كتاب: يايحيي خذ الكتاب لكان هذا مخلوقا لان لفظ يحي هنا مراد به ذلك الشخص وبالكتاب ذلك الكتاب ليس مرادا به ما اراده الله بقوله (يايحيي خذ الكتاب) والكلام كلام [المخلوق] بلفظه ومعناه

وقد تنازع الناس في مسمى الكلام في الاصل ،فقيل هو اسم اللفظ الدال على المعنى،وقيل المعنى المدلول عليه باللفظ ، وقيل لكل منهما بطريق الاشتراك اللفظي ، وقيل بل هو اسم عام لهما جميعاً يتناولهما عند الاطلاق وان كان مع التقييد يراد به هذا تارة وهذا تارة .هذا قول السلف وأئمة الفقهاء وان كان هذا القول لايعرف في كثير من الكتب. وهذا كما تنازع الناس في مسمى الانسان هل هو الروح فقط أو الجسد فقط ؟ والصحيح انه اسم للروح والجسد جميعاً ،وان كان

مع القرينة قد يراد به هذا تارة وهذا تارة . فتنازعهم في مسمى النطق كتنازعهم في مسمى الناطق. فمن سمى شخصاً محمداً أو ابراهيم ، وقال : جاء محمد وجاء ابراهيم لم يكن هذا محمد وابراهيم المذكورين في القرآن . ولو قال : محمد رسول الله ، وابراهيم خليل الله . يعني به خاتم الرسل وخليل الرحمن لكان قد تكلم بمحمد وابراهيم الذي في القرآن لكن قد تكلم بالاسم والفه كلاما فهو كلامه لم يتكلم به في القرآن العربي الذي تكلم الله به .

ومما يوضح ذلك ان الفقهاء قالوا في آداب الخلاء انه لا يستصحب ما فيه ذكر الله واحتجوا بالحديث الذي في السنن « ان النبي ﷺ كان اذا دخل الخلاء نزع خاتمه . وكان خاتمه مكتوبا عليه « محمد رسول الله » محمد سطر ، رسول سطر ، الله سطر . ولم يمنع أحد من العلماء ان يستصحب ما يكون فيه كلام العباد وحروف الهجاء [1] مثل ورق الحساب الذي يكتب فيه أهل الديوان الحساب . ومثل الاوراق التي يكتب فيها الباعة ما يبيعونه ونحو ذلك. وفي السيرة ان النبي ﷺ لما صالح غطفان على نصف تمر المدينة أتاه سعد فقال له : اهذا شيء أمر الله به فسمعا وطاعة ، ام شيء تفعله لمصلحتنا؟ فبين له النبي ﷺ انه لم يفعل ذلك بوحي بل فعله باجتهاده فقال « لقد كنا في الجاهلية وما كانوا يأكلون منها تمرة الابقرى أو بشراء ، فلما اعزنا الله بالاسلام يريدون ان يأكلوا تمرنا؟ لا يأكلون تمرة واحدة » وبصق سعد في الصحيفة وقطعها فقره النبي ﷺ على ذلك ولم يقل هذه حروف ، فلا يجوز اهانتها والبصاق فيها . وأيضاً فقد كره السلف محو القرآن بالرجل ولم يكرهوا محو ما فيه كلام الآدميين

وأما قول القائل: ان الحروف قديمة أو حروف المعجم قديمة فان أراد جنسها فهذا صحيح ، وإن أراد الحرف المعين فقد أخطأ فان له مبدأ ومنتهى ، وهو مسبوق بغيره ، وما كان كذلك لم يكن إلا محدثا

(١) يعني بالعلماء الأئمة المجتهدين وقد قال بعض فقهاء الحنفية باحترام المكتوب من كلام الناس

وأيضا فلفظ الحروف مجمل ، يراد بالحروف الحروف المنطوقة المسموعة التي هي مباني الكلام ، ويراد بها الحروف المكتوبة ،ويراد بها الحروف المتخيلة في النفس،والصوت لايكون كلاما إلا بالحروف باتفاق الناس . وأما الحروف فهل تكون كلاما بدون الصوت ؟ فيه نزاع . والحرف قد يراد به الصوت المقطع ، وقد يراد به نهاية الصوت وحده ، وقد يراد بالحروف المداد ، وقد يراد بالحروف شكل المداد ، فالحروف التي تكلم الله بها غير مخلوقة وإذا كتبت في المصحف قيل كلام الله المكتوب في المصحف غير مخلوق، وأما نفس أصوات العباد فمخلوقة والمداد مخلوق وشكل المداد مخلوق ، فالمداد مخلوق بمادته وصورته ، و كلام الله المكتوب بالمداد غير مخلوق . ومن كلام الله الحروف التي تكلم الله بها فاذا كتبت بالمداد لم تكن مخلوقة وكان المداد مخلوقا . وأشكال الحروف المكتوبة مما يختلف فيها اصطلاح الامم

والخط العربي قد قيل ان مبدأه كان من الانبار ومنها انتقل الى مكة وغيرها ، والخط العربي تختلف صورته: العربي القديم فيه تكوف ، وقد اصطلح المتأخرون على تغيير صوره ،وأهل المغرب لهم اصطلاح ثالث حتى في نقط الحروف وترتيبها ، و كلام الله المكتوب بهذه الخطوط كالقرآن العربي هو في نفسه لا يختلف باختلاف الخطوط التي يكتب بها

فان قيل: فالحرف من حيث هو مخلوق أو غير مخلوق مع قطع النظر عن كونه في كلام الخالق او كلام المخلوق ؟ فان قلتم هو من حيث هو غير مخلوق لزم أن يكون غير مخلوق في كلام العباد ، وإن قلتم مخلوق لزم أن يكون مخلوقا في كلام الله ؟ قيل : قول القائل بل الحرف من حيث هو هو كقوله الكلام من حيث هو هو والعلم من حيث هو هو والقدرة من حيث هي هي ، والوجود من حيث هو هو ،ونحو ذلك

والجواب عن ذلك ان هذه الامور وغيرها اذا أخذت مجردة مطلقة غير مقيدة ولا مشخصة لم يكن لها حقيقة في الخارج عن الاذهان إلا شيء معين ، فليس ثم وجود إلا وجود الخالق أو وجود المخلوق ، ووجود كل مخلوق مختص به وان كان اسم الوجود عاما يتناول ذلك كله ، وكذلك العلم والقدرة اسم عام يتناول أفراد ذلك وليس في الخارج إلا علم الخالق وعلم المخلوق ، وعلم كل مخلوق مختص به قائم به،واسم الكلام والحروف يعم كل مايتناوله لفظ الكلام والحرف وليس في الخارج الا كلام الخالق وكلام المخلوقين . وكلام كل مخلوق مختص به واسم الكلام يعم كل مايتناوله هذا اللفظ . وليس في الخارج إلا الحروف التي تكلم الله بها الموجودة في كلام الخالق،والحروف الموجودة في كلام المخلوقين، فاذا قيل ان علم الرب وقدرته وكلامه غير مخلوق وحروف كلامه غير مخلوقة لم يلزم من ذلك أن يكون علم العبد وقدرته وكلامه غير مخلوق وحروف كلامه غير مخلوقة .

وأيضا فلفظ الحرف يتناول الحرف المنطوق والحرف المكتوب ، وإذا قيل ان الله تكلم بالحروف المنطوقة كما تكلم بالقرآن العربي وبقوله (الم ـ وحم ـ وطسم وطس ـ ويس ـ وق ـ ون) ونحو ذلك فهذا كلامه وكلامه غير مخلوق، وإذا كتب في المصاحف كان ما كتب من كلام الرب غير مخلوق وان كان المداد وشكله مخلوقا

وأيضا فاذا قرأ الناس كلام الله فالكلام في نفسه غير مخلوق اذا كان الله قد تكلم به ، واذا قرأه المبلغ لم يخرج عن أن يكون كلام الله ، فان الكلام كلام من قاله مبتدئا،امرا يأمر به أو خبرا يخبره ليس هو كلام المبلغ له عن غيره اذ ليس على الرسول الا البلاغ المبين . واذا قرأه المبلغ فقد يشار اليه من حيث هو كلام الله فيقال هذا كلام الله مع قطع النظر عما بلغه به العباد من صفاتهم، وقد يشار الى نفس صفة العبد كحركته وحياته ، وقد يشار اليهما ، فالمشار اليه

الاول غير مخلوق، والمشار اليه الثاني مخلوق، والمشار اليه الثالث فمنه مخلوق ومنه غير مخلوق ، وما يوجد في كلام الآدميين من نظير هذا هو نظير صفة العبد لا نظير صفة الرب أبدا ، واذا قال القائل القاف في قوله (أقم الصلاة لذكري) كالقاف في قوله * قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل * قيل ماتكلم الله به وسمع منه لايماثل صفة المخلوقين، ولكن اذا بلغنا كلام الله فانما بلغناه بصفاتنا وصفاتنا مخلوقة والمخلوق يماثل المخلوق

وفي هـذا جواب للطائفتين لمن قاس صفة المخلوق بصفة الخالق فجعلها غير مخلوقة ، فان الجهمية المعطلة أشباه اليهود ، والحلولية الممثلة أشباه النصارى دخلوا في هذا وهذا ، أولئك مثلوا الخالق بالمخلوق فوصفوه بالنقائص التي تختص بالمخلوق كالفقر والبخل، وهؤلاء مثلوا المخلوق بالخالق فوصفوه بخصائص الربوبية التي لاتصلح إلا لله ، والمسلمون يصفون الله بما وصف به نفسه وبما وصفته به رسله من غير تحريف ولا تعطيل ، ومن غير تكييف ولا تمثيل ، بل يثبتون له مايستحقه من صفات الكمال، وينزهونه عن الاكفاء والامثال، فلا يعطلون الصفات ولا يمثلونها بصفات المخلوقات، فان المعطل يعبد عدما، والممثل يعبد صنما، والله تعالى (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير)

ومما ينبغي أن يعرف ان كلام المتكلم في نفسه واحد ، واذا بلغه المبلغون تختلف أصواتهم به فاذا أنشد المنشد قول لبيد * ألا كل شيء ماخلا الله باطل * كان هـذا الكلام كلام لبيد لفظه ومعناه مع ان أصوات المنشدين له تختلف وتلك الاصوات ليست صوت لبيد ، وكذلك من روى حـديث النبي ﷺ بلفظه كقوله « انما الاعمال بالنيات وانما لكل امرىء ما نوى » كان هذا الكلام كلام رسول الله ﷺ لفظه ومعناه ، ويقـال لمن رواه أدى الحديث بلفظه وإن كان صوت المبلغ ليس هو صوت الرسول ، فالقرآن أولى أن يكون كلام

الله لفظه ومعناه ، واذا قرأه القراء فانما يقرؤنه بأصواتهم ، ولهذا كان الامام أحمد بن حنبل وغيره من أئمة السنة يقولون : من قال اللفظ بالقرآن أو لفظي بالقرآن مخلوق فهو جهمي ، ومن قال انه غير مخلوق فهو مبتدع ، وفي بعض الروايات عنه : من قال لفظي بالقرآن مخلوق يعني به القرآن فهو جهمي، لان اللفظ يراد به مصدر لفظ يلفظ لفظا، ومسمى هذا فعل العبد وفعل العبد مخلوق ، ويراد باللفظ القول الذي يلفظ به اللافظ وذلك كلام الله لا كلام القاريء ، فمن قال انه مخلوق فقد قال ان الله لم يتكلم بهذا القرآن ، وان هذا الذي يقرؤه المسلمون ليس هو كلام الله ، ومعلوم ان هذا مخالف لما علم بالاضطرار من دين الرسول. وأما صوت العبد فهو مخلوق ، وقد صرح أحمد وغيره بأن الصوت المسموع صوت العبد ولم يقل أحمد قط من قال ان صوتي بالقرآن مخلوق فهو جهمي ، وانما قال من قال لفظي بالقرآن، والفرق بين لفظ الكلام وصوت المبلغ له فرق واضح ، فكل من بلغ كلام غيره بلفظ ذلك الرجل فانما بلغ لفظ ذلك الغير لا لفظ نفسه ، وهو انما بلغه بصوت نفسه لا بصوت ذلك الغير، ونفس اللفظ والتلاوة والقراءة والكتابة ونحو ذلك لما كان يراد به المصدر الذي هو حركات العباد وما يحدث عنها من اصواتهم وشكل المداد ، ويراد به نفس الكلام الذي يقرأه التالي ويتلوه و يلفظ به ويكتبه، منع أحمد وغيره من اطلاق النفي والاثبات الذي يقتضي جعل صفات الله مخلوقة أو جعل صفات العباد ومدادهم غير مخلوق، وقال أحمد: نقول القرآن كلام الله غير مخلوق حيث تصرف أي حيث تلي وكتب وقريء مما هو في نفس الامر كلام الله فهو كلامه وكلامه غير مخلوق ، وما كان من صفات العباد وأفعالهم التي يقرؤن ويكتبون بها كلامه كأصواتهم ومدادهم فهو مخلوق ، ولهذا من لم يهتد الى هذا الفرق يحار ، فانه معلوم ان القرآن واحد ويقرأه خلق كثير ، والقرآن لا يكثر في نفسه بكثرة قراءة القراء وانما يكثر

مايقرؤن به القرآن فما يكتبو يحدث في العباد فهو مخلوق ، والقرآن نفسه لفظه ومعناه الذي تكلم الله به وسمعه جبريل من الله وسمعه محمد من جبريل وبلغه محمد الى الناس وأنذر به الامم لقوله تعالى (لانذركم به ومن بلغ) قرآن واحد ، وهو كلام الله ليس بمخلوق ،

وليس هذا من باب ماهو واحد بالنوع متعدد الاعيان ، كالانسانية الموجودة في زيد وعمرو ، ولا من باب مايقول الانسان مثل قول غيره كما قال تعالى (كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم) فان القرآن لا يقدر أحد ان يأتي بمثله ، كما قال تعالى (قل لئن اجتمعت الانس والجن على ان يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا) فالأنس والجن اذا اجتمعوا لم يقدروا ان يأتوا بمثل هذا القرآن مع قدرة كل قارىء على ان يقرأه ويبلغه . فعلم ان ما قرأه هو القرآن ليس هو مثل ذلك القرآن ، واما الحروف الموجودة في القرآن اذا وجد نظيرها في كلام غيره فليس هذا هو ذاك بعينه بل هو نظيره ، واذا تكلم الله باسم من الاسما كآدم ونوح وابراهيم وتكلم بتلك الحروف والاسماء التي تكلم الله بها فاذا قرئت في كلامه فقد بلغ كلامه ، فاذا انشأ الانسان لنفسه كلاما لم يكن عين ما تكلم الله به من الحروف والاسماء هو عين ما تكلم به العبد حتى يقال ان هذه الاسماء والحروف الموجودة في كلام العباد غير مخلوقة ، فان بعض من قال ان الحروف والاسماء غير مخلوقة في كلام العباد ادعى ان المخلوق انما هو النظم والتأليف دون المفرادت ، وقائل هذا يلزمه ان يكون ايضا النظم والتأليف غير مخلوق اذا وجد نظيره في القرآن كقوله (يايحيي خذ الكتاب) وان اراد بذلك شخصا اسمه يحيي وكتابا بحضرته

(فان قيل) يحيي هذا والكتاب الحاضر ليس هو يحيي والكتاب المذكور في القرآن وان كان اللفظ نظير اللفظ (قيل) كذلك سائر الاسماء والحروف اذا يوجد

نظيرها في كلام العباد لا في كلام الله . وقولنا يوجد نظيرها في كلام الله تقريب أي يوجد فيما نقرأه ونتلوه . فان الصوت المسموع من لفظ محمد ويحيى وابراهيم في القرآن هو مثل الصوت المسموع من ذلك في غير القرآن وكلا الصوتين مخلوق . واما الصوت الذي يتكلم الله به فلا مثل له لا يماثل صفات المخلوقين ، وكلام الله هو كلامه بنظمه ومعانيه . وذلك الكلام ليس مثل كلام المخلوقين. فاذا قلنا (الحمد لله رب العالمين) وقصد بذلك قراءة القرآن الذي تكلم الله به فذلك القرآن تكلم الله بلفظه ومعناه لا يماثل لفظ المخلوقين ومعناهم،واما اذا قصدنا به الذكر ابتداء من غير ان يقصد قراءة كلام الله فانما نقصد ذكراً ننشئه نحن يقوم معناه بقلوبنا،وننطق بلفظه بألسنتنا،وما انشأناه من الذكر فليس هو من القرآن وان كان نظيره في القرآن . ولهذا قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح « أفضل الكلام بعد القرآن أربع وهن من القرآن : سبحان الله والحمد لله ولااله الا الله والله اكبر » فجعل النبي ﷺ هذه الكلمات افضل الكلام بعد القرآن فجعل درجتها دون درجة القرآن،وهذا يقتضي انها ليست من القرآن. ثم قال « هي من القرآن » وكلا قوليه حق وصواب . ولهذا منع احمد ان يقال الايمان مخلوق . وقال لااله الا الله من القرآن . وهذا الكلام لا يجوزان يقال انه مخلوق وان لم يكن من القرآن،ولا يقال في التوراة والانجيل انهما مخلوقان، ولا يقال في الاحاديث الالهية التي يرويها عن ربه انها مخلوقة كقوله «ياعبادي اني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا » فكلام الله قديكون قرآنا وقد لا يكون قرآنا والصلاة انما تجوز وتصح بالقرآن . وكلام الله كله غير مخلوق

فاذا فهم هذا في مثل هذا فليفهم في نظائره وان ما يوجد من الحروف والاسماء في كلام الله ويوجد في غير كلام الله يجوز ان يقال انه من كلام الله

باعتبار كما انه يكون من القرآن باعتبار وغير القرآن باعتبار ، لكن كلام الله القرآن وغير القرآن غير مخلوق ، وكلام المخلوقين كله مخلوق . فما كان من كلام الله فهو غير مخلوق وما كان من كلام غيره فهو مخلوق .

وهؤلاء الذين يحتجون على نفي الخلق أو اثبات القدم بشيء من صفات العباد واعمالهم لوجود نظير ذلك فيما يضاف الى الله وكلامه والايمان به، شاركهم في هذا الاصل الفاسد من احتج على خلق ما هو من كلام الله وصفاته بان ذلك قد يوجد نظيره فيما يضاف الى العبد. مثل ذلك ان القرآن الذي يقرؤه المسلمون هو كلام الله قرؤه بحركاتهم وأصواتهم ، فقال الجهمي أصوات العباد ومدادهم مخلوقة وهذا هو المسمى بكلام الله أو يوجد نظيره في المسمى بكلام الله فيكون كلام الله مخلوقا

وقال الحلواني الاتحادي الذي يجعل صفة الخالق هي عين صفة المخلوق الذي: نسمعه من القراء هو كلام الله وانما نسمع أصوات العباد فاصوات العباد بالقرآن كلام الله وكلام الله غير مخلوق فاصوات العباد بالقرآن غير مخلوقة، والحروف المسموعة منهم غير مخلوقة، ثم قالوا الحروف الموجودة في كلامهم هي هذه او مثل هذه فتكون غير مخلوقة . وزاد بعض غلاتهم فجعل أصوات كلامهم غير مخلوقة كما زعم بعضهم ان الاعمال من الايمان وهو غير مخلوق والاعمال غير مخلوقة .
وزاد بعضهم أعمال الخير والشر وقال هي القدر والشرع المشروع وقال عمر ما مرادنا بالاعمال الحركات بل الثواب الذي يأتي يوم القيامة كما ورد في الحديث الصحيح «انه تأتي البقرة وآل عمران كأنهما غمامتان اوغيايتان اوفرقان من طير صواف » فيقال له وهذا الثواب مخلوق . وقد نص احمد وغيره من الائمة على أنه غير مخلوق . وبذلك أجابوا من احتج على خلق القرآن بمثل هذا الحديث فقالوا له الذي يجيء يوم القيامة هو ثواب القرآن لا نفس القرآن وثواب القرآن مخلوق،

الى أمثال هذه الاقوال التي ابتدعها طوائف والبدع تنشأ شيئا فشيئا وقد بسط الكلام في هذا الباب في مواضع أخر .

وقد بينا أن الصواب في هذا الباب هو الذي دل عليه الكتاب والسنة واجماع السابقين الاولين والتابعين لهم باحسان ، وهو ما كان عليه الامام احمد بن حنبل ومن قبله من أئمة الاسلام ومن وافق هؤلاء ، فان قول الامام احمد وقول الأئمة قبله هو القول الذي جاء به الرسول ودل عليه الكتاب والسنة .ولكن لما امتحن الناس بمحنة الجهمية وطلب منهم تعطيل الصفات وان يقولوا بان القرآن مخلوق وان الله لايرى في الآخرة ونحو ذلك ، ثبّت الله الامام احمد في تلك المحنة فدفع حجج المعارضين النفاة وأظهر دلالة الكتاب والسنة وان السلف كانوا على الاثبات فآتاه الله من الصبر واليقين ماصار به إماما كما قال تعالى (وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون) ولهذا قيل فيه رحمه الله : عن الدنيا ما كان أصبره ، وبالماضين ما كان أشبهه . أتته البدع فنفاها ، والدنيا فأباها ، فلما ظهر به من السنة ماظهر كان له من الكلام في بيانها وإظهارها أكثر وأعظم مما لغيره فصار أهل السنة من عامة الطوائف يعظمونه وينتسبون اليه .

وقد ذكرت كلامه وكلام غيره من الائمة ونصوص الكتاب والسنة في هذه الابواب في غير هذا الموضع وبينا أن كل مايدل عليه الكتاب والسنة فانه موافق لصريح المعقول، وان العقل الصريح لا يخالف النقل الصحيح ، ولكن كثيراً من الناس يغلطون إما في هذا وإما في هذا ، فمن عرف قول الرسول ومراده به كان عارفا بالأدلة الشرعية وليس في المعقول مايخالف المنقول ، ولهذا كان أئمة السنة على ما قاله أحمد بن حنبل، قال: معرفة الحديث والفقه فيه أحب إليّ من حفظه ، أي معرفته بالتمييز بين صحيحه وسقيمه ، والفقه فيه معرفة مراد الرسول وتنزيله على المسائل الاصولية والفروعية أحب إلي من أن تحفظ من غير معرفة وفقه . وهكذا قال

علي بن المديني وغيره من العلماء فانه من احتج بلفظ ليس بثابت عن الرسول [أو بلفظ ثابت عن الرسول] وحمله على مالم يدل عليه فانما أتي من نفسه

وكذلك العقليات الصريحة اذا كانت مقدماتها وترتيبها صحيحا لم تكن إلا حقا لاتناقض شيئا مما قاله الرسول ، والقرآن قد دل على الأدلة العقلية التي بها يعرف الصانع وتوحيده وصفاته وصدق رسله وبها يعرف امكان المعاد . ففي القرآن من بيان أصول الدين التي تعلم مقدماتها بالعقل الصريح مالا يوجد مثله في كلام أحد من الناس ، بل عامة ما يأتي به حذاق النظار من الأدلة العقلية يأتي القرآن بخلاصتها وبما هو أحسن منها، قال تعالى (ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا) وقال (ولقد صرفنا للناس في هذا القرآن من كل مثل) وقال (وتلك الامثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون)

وأما الحجج الداحضة التي يحتج بها الملاحدة وحجج الجهمية معطلة الصفات وحجج الدهرية وأمثالها كما يوجد مثل ذلك في كلام المتأخرين الذين يصنعون في الكلام المبتدع وأقوال المتفلسفة ويدعون انها عقليات ففيها من الجهل والتناقض والفساد ، مالا يحصيه إلا رب العباد . وقد بسط الكلام على هؤلاء في مواضع أخر .

وكان من أسباب ضلال هؤلاء تقصير الطائفتين أو قصورهم عن معرفة ماجاء به الرسول وما كان عليه السلف ومعرفة المعقول الصريح فان هذا هو الكتاب وهذا هو الميزان وقد قال تعالى (لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله قوي عزيز) وهذه المسألة لاتحتمل البسط على هذه الامور اذا كان المقصود هنا التنبيه على ان هؤلاء المتنازعين أجمعوا على أصل فاسد ، ثم تفرقوا فأجمعوا على أن جعلوا عين صفة الرب الخالق هي عين

صفة المخلوق . ثم قال هؤلاء وصفة المخلوق مخلوقة فصفة الرب مخلوقة ،فقال هؤلاء صفة الرب قديمة فصفة المخلوق قديمة ، ثم احتاج كل منهما الى طرد أصله فخرجوا الى أقوال ظاهرة الفساد ، خرج النفاة الى أن الله لم يتكلم بالقرآن ولا شيء من الكتب الالهية ولا التوراة ولا الانجيل ولا غيرهما ،وانه لم يناد موسى بنفسه نداء يسمعه منه موسى ولا تكلم بالقرآن العربي ولا التوراة العبرية ، وخرج هؤلاء الى أن مايقوم بالعباد ويتصفون به يكون قديما أزليا ، وان مايقوم بهم ويتصفون به لايكون قائماً بهم حالا فيهم بل يكون ظاهراً فيهم من غير قيامه بهم .

ولما تكلموا في حروف المعجم صاروا بين قولين: طائفة فرقت بين المتماثلين فقالت الحرف حرفان هذا قديم وهذا مخلوق ، كما قال ابن حامد والقاضي أبو يعلى وابن عقيل وغيرهم، فانكر ذلك عليهم الاكثرون وقالوا هذا مخالفة للحس والعقل فان حقيقة هذا الحرف هي حقيقة هذا الحرف ، وقالوا الحرف حرف واحد . وصنف في ذلك القاضي يعقوب البرزيني مصنفا خالف به شيخه القاضي ابا يعلى مع قوله في مصنفه: وينبغي ان يعلم انما سطرته في هذه المسألة ان ذلك مما استفدته وتفرع عندي من شيخنا وامامنا القاضي ابي يعلى بن الفراء ، وان كان قد نصر خلاف ما ذكرته في هذا الباب، فهو العالم المقتدى به في علمه ودينه ، فانيما رأيت احسن سمتا منه ، ولا اكثر اجتهادا منه ، ولا تشاغلا بالعلم ، مع كثرة العلم والصيانة، والانقطاع عن الناس والزهادة فيما بايديهم، والقناعة في الدنيا باليسير ، مع حسن التجمل ، وعظم حشمته عند الخاص والعام ، ولم يعدل بهذه الاخلاق شيئا من نفر من الدنيا

وذكر القاضي يعقوب في مصنفه ان ما قاله قول ابي بكر احمد بن المسيب الطبري وحكاه عن جماعة من أفضل اهل طبرستان ، وانه سمع الفقيه عبد الوهاب ابن حلبه قاضي حران يقول هو مذهب العلوي الحراني وجماعة من اهل

حران . وذكره ابو عبد الله بن حامد عن جماعة من اهل طبرستان ممن ينتمي الى مذهبنا كابي محمد الكشفل واسماعيل الكاوذرى في خلق من اتباعهم يقولون انها قديمة ، قال القاضي ابو يعلى : و كذلك حكي لي عن طائفة بالشام انها تذهب الى ذلك منهم النابلسي وغيره ، وذكر القاضي حسين أن اباه رجع في آخر عمره الى هذا . وذكروه عن الشريف ابي علي بن ابي موسى وتبعهم في ذلك الشيخ ابو الفرج المقدسي وابنه عبد الوهاب وسائر اتباعه وابو الحسن بن الزاغوني وامثاله . وذكر القاضي يعقوب ان كلام احمد يحتمل القولين وهؤلاء تعلقوا بقول احمد لما قيل له ان سريًا السقطي قال لما خلق الله الاحرف سجدت له الا الالف فقالت لا أسجد حتى أومر . فقال احمد هذا كفر. وهؤلاء تعلقوا من قول احمد بقوله: كل شيء من المخلوقين على لسان المخلوقين فهو مخلوق ، وبقوله : لو كان كذلك لما تمت صلاته بالقرآن كما لا تتم بغيره من كلام الناس . ويقول احمد لاحمد بن الحسن الترمذي : ألست مخلوقا ؟ قال بلى ، قال اليس كل شيء منك مخلوقا ؟ قال بلى ، قال : فكلامك منك وهو مخلوق .

(قلت) الذي قاله احمد في هذا الباب صواب يصدق بعضه بعضا، وليس في كلامه تناقض ، وهو انكر على من قال ان الله خلق الحروف ، فان من قال ان الحروف مخلوقة كان مضمون قوله إن الله لم يتكلم بقرآن عربي ، وان القرآن العربي مخلوق ، ونص احمد ايضا على أن كلام الآدميين مخلوق، ولم يجعل شيئا منه غير مخلوق ، وكل هذا صحيح ، والسري رحمه الله انما ذكر ذلك عن بكر بن خنيس العابد ، فكان مقصودهما بذلك ان الذي لا يعبد الله الا بامره ، هو أكمل ممن يعبده برأيه من غير أمر من الله ، واستشهدا على ذلك بما بلغهما انه لما خلق الله الحروف سجدت له الا الالف فقالت لا اسجد حتى أومر ، وهذا الاثر لا يقوم بمثله حجة في شيء ، ولكن مقصودهما ضرب المثل أن

الألف منتصبة في الخط ليس هي مضطجعة كالباء والتاء ، فمن لم يفعل حتى يؤمر أكمل ممن فعل بغير أمر . وأحمد أنكر قول القائل ان الله لما خلق الحروف ، وروي عنه انه قال : من قال إن حرفا من حروف المعجم مخلوق فهو جهمي ، لانه سلك طريقا الى البدعة ، ومن قال ان ذلك مخلوق فقد قال ان القرآن مخلوق . وأحمد قد صرح هو وغيره من الائمة ان الله لم يزل متكلما اذا شاء ، وصرح ان الله يتكلم بمشيئته ، ولكن أتباع ابن كلاب كالقاضي وغيره تأولوا كلامه على انه أراد بذلك اذا شاء الاسماع لانه عندهم لم يتكلم بمشيئته وقدرته .

وصرح أحمد وغيره من السلف ان القرآن كلام الله غير مخلوق . ولم يقل أحد من السلف ان الله تكلم بغير مشيئته وقدرته، ولا قال أحد منهم ان نفس الكلام المعين كالقرآن أو ندائه لموسى أو غير ذلك من كلامه المعين انه قديم أزلي لم يزل ولا يزال، وان الله قامت به حروف معينة أو حروف وأصوات معينة قديمة أزلية لم تزل ولا تزال ، فان هذا لم يقله ولا دل عليه قول أحمد ولا غيره من أئمة المسلمين ، بل كلام أحمد وغيره من الائمة صريح في نقيض هذا ، وان الله يتكلم بمشيئته وقدرته ، وانه لم يزل يتكلم اذا شاء ، مع قولهم ان كلام الله غير مخلوق ، وانه منه بدا ليس بمخلوق ابتدأ من غيره ، ونصوصهم بذلك كثيرة معروفة في الكتب الثابتة عنهم ، مثل ماصنف أبو بكر الخلال في كتاب السنة وغيره ، وما صنفه عبد الرحمن بن أبي حاتم من كلام أحمد وغيره ، وما صنفه أصحابه وأصحاب أصحابه كابنيه صالح وعبد الله ، وحنبل ، وأبي داود السجستاني صاحب السنن ، والاثرم ، والمروذي ، وأبي زرعة ، وأبي حاتم ، والبخاري صاحب الصحيح ، وعثمان بن سعيد الدارمي ، وابراهيم الحربي ، وعبد الوهاب الوراق ، وعباس ابن عبد العظيم العنبري ، وحرب بن اسماعيل الكرماني ، ومن لايحصى عدده من أكابر أهل العلم والدين ، وأصحاب أصحابه ممن جمع كلامه واختاره كعبد الرحمن

ابن أبي حاتم وأبي بكر الخلال، وأبي الحسن البناني الاصبهاني وأمثال هؤلاء ، ومن كان أيضاً يأتم به وبأمثاله من الائمة في الاصول والفروع كأبي عيسى الترمذي صاحب الجامع وأبي عبد الرحمن النسائي وأمثالها ، ومثل أبي محمد بن قتيبة وأمثاله، وبسط هذا له موضع آخر،وقد ذكرنا في المسائل الطبرستانية والكيلانية بسط مذاهب الناس وكيف تشعبت وتفرعت في هذا الاصل

والمقصود هنا أن كثيراً من الناس المتأخرين لم يعرفوا حقيقة كلام السلف والأئمة ، فمنهم من يعظمهم ويقول انه متبع لهم مع انه مخالف لهم من حيث لا يشعر، ومنهم من يظن انهم كانوا لا يعرفون أصول الدين ولا تقريرها بالدلائل البرهانية، وذلك لجهله بعلمهم بل لجهله بما جاء به الرسول من الحق الذي تدل عليه الدلائل العقلية مع السمعية ، فلهذا يوجد كثير من المتأخرين يشتركون في أصل فاسد ، ثم يفرع كل قوم عليه فروعا فاسدة يلتزمونها ، كما صرحوا في تكلم الله تعالى بالقرآن العربي وبالتوراة العبرية وما فيهما من حروف الهجاء مؤلفا أو مفردا لما رأوا أن ذلك بلغ بصفات المخلوقين اشتبه بصفات المخلوقين، فلم يهتدوا لموضع الجمع والفرق،فقال هؤلاء : هذا الذي يقرأ ويسمع مثل كلام المخلوقين فهو مخلوق وقال هؤلاء : هذا الذي من كلام الآدميين هو مثل كلام الله فيكون غير مخلوق ، كما ذكر ابن عقيل في كتاب الارشاد عن بعض القائلين بأن القرآن مخلوق فهو شبهة اعترض بها على بعض أئمتهم فقال : أقل ما في القرآن من امارات الحدث كونه مشبهاً لكلامنا، والقديم لا يشبه المحدث ، ومعلوم انه لا يمكن دفع ذلك ، لان قول القائل لغلامه يحيي: يا يحيي خذ الكتاب بقوة ، يضاهي قوله سبحانه ، حتى لا يميز السامع بينهما من حيث حسه ، إلا أن يخبره أحدهما بقصده والآخر بقصده ، فيميز بينهما بخبر القائل لا بحسه ، واذا اشتبها الى هذا الحد فكيف يجوز دعوى قدم ما يشابه المحدث ويسد مسده ، مع انه ان جاز دعوى

قدم الكلام مع كونه مشاهدا للمحدث جاز دعوى التشبيه بظواهر الآي والاخبار ، ولا مانع من ذلك ، فلما فزعنا نحن وانتم الى نفي التشبيه خوفا من جواب دخول القرآن بالحدث علينا، كذلك يجب ان تفزعوا من القول بالقدم مع وجود الشبه،حتى ان بعض اصحابكم يقول لقوة ما رأى من الشبه بينهما ان الكلام واحد والحروف غير مخلوقة ، فكيف يجوز ان يقال في الشيء الواحد انه قديم محدث

قلت : وهذا الذى حكى عنه ابن عقيل من بعض الاصحاب المذكورين منهم القاضي يعقوب البرزيني ذكره في مصنفه فقال (دليل عاشر) وهو ان هذه الحروف بعينها وصفتها ومعناها وفائدتها هي التي في كتاب الله تعالى وفي اسمائه وصفاته والكتاب بحروفه قديم . وكذلك هاهنا . قال : فان قيل : لانسلم ان تلك لها حرمة وهذه لاحرمة لها ، قيل : لانسلم بل لها حرمة

فان قيل : لو كان لها حرمة لوجب ان تمنع الحائض والنفساء من مسها وقراءتها ، قيل : قد لاتمنع من قراءتها ومسها ويكون لها حرمة كبعض آية لاتمنع من قراءتها ولها حرمة وهي قديمة ، وانما لم تمنع قراءتها ومسها للحاجة الى تعليمها كما يقال في الصبي يجوز له مس المصحف على غير طهارة للحاجة الى تعليمه

فان قيل : فيجب اذا حلف بها حالف ان ينعقد يمينه واذا خالف يمينه ان يحنث ، قيل له : كما في حروف القرآن مثله نقول هنا

فان قيل : أليس اذا وافقها في هذه المعاني دل على انها هي ، الاترى انه اذا تكلم متكلم بكلمة يقصد بها خطاب آدمي فوافق صفتها صفة ما في كتاب الله تعالى مثل قوله : ياداود ، يانوح ، يايحيى ، وغير ذلك فانه موافق لهذه الاسماء التي في كتاب الله وان كانت في كتاب الله قديمة وفي خطاب الآدمي محدثة؟ قيل : كل ما كان موافقا لكتاب الله من الكلام في لفظه ونظمه وحروفه فهو من كتاب الله وان قصد به خطاب آدمي ؛

فان قيل : فيجب اذا اراد بهذه الاسماء آدميا وهو في الصلاة ان لا تبطل صلاته، قيل له : كذلك نقول قد ورد مثل ذلك عن علي وغيره اذ ناداه رجل من الخوارج (لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين) قال فاجابه علي وهو في الصلاة (فاصبر ان وعد الله حق ولا يستخفنك الذين لا يوقنون) وعن ابن مسعود انه استأذن عليه بعض اصحابه فقال (ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين)

قال : فان قيل أليس اذا قال (يايحيى خذ الكتاب بقوة) ونوى به خطاب غلام اسمه يحيى يكون الخطاب مخلوقا؟ وان نوى به القرآن يكون قديما، قيل له : في كلا الحالين يكون قديما لان القديم عبارة عما كان موجودا فيما لم يزل، والمحدث عبارة عما حدث بعد ان لم يكن، والنية لا تجعل المحدث قديما ولا القديم محدثا، قال : ومن قال هذا فقد بالغ في الجهل والخطأ

وقال أيضا: كل شيء يشبه بشيء ما فانما يشبهه في بعض الاشياء دون بعض ولا يشبهه من جميع أحواله لانه إذا كان مثله في جميع أحواله كان هو لا غيره، وقد بينا أن هذه الحروف تشبه حروف القرآن فهي غيرها اه

(قلت) هذا كلام القاضي يعقوب وأمثاله مع انه أجل من تكلم في هذه المسألة ولما كان جوابه مشتملا على ما يخالف النص والاجماع والعقل خالفه ابن عقيل وغيره من أئمة المذهب الذين هم أعلم به

وأجاب ابن عقيل عن سؤال الذين قالوا هذا مثل هذا، بان قال : الاشتراك في الحقيقة لا يدل على الاشتراك في الحدوث، كما ان كونه عالما هو تبينه للشيء على أصلكم، ومعرفته به على قولنا على الوجه الذي يبينه الواحد منا، وليس مماثلا لنا في كوننا عالمين . وكذلك كونه قادراً هو صحة الفعل منه سبحانه وتعالى، وليس قدرته على الوجه الذي قدرنا عليها، فليس الاشتراك في الحقيقة حاصلا، والافتراق في القدم والحدوث حاصل

قال: وجواب آخر، لانقول ان الله يتكلم بكلامه على الوجه الذي يتكلم به زيد، بمعنى انه يقول يايحيي فاذا فرغ من ذلك انتقل إلى قوله خذ الكتاب بقوة وترتب في الوجود كذلك، بل هو سبحانه وتعالى يتكلم به على وجه تعجز عن مثله أدواتنا. فما ذكرته من الاشتباه من قول القائل يايحيي خذ الكتاب يعود الى اشتباه التلاوة بالكلام المحدث. فاما أنه شابه الكلام القائم بذاته فلا

قال ابن عقيل: قالوا فهذا لايجيء على مذهبكم. فان عندكم التلاوة هي المتلو والقراءة هي المقروء. قيل: ليس معنى قولنا هي المتلو انها هذه الاصوات المقطعة وانما نريد به مايظهر من الحروف القديمة في الاصوات المحدثة، وظهورها في المحدث لابد أن يكسبها صفة التقطيع لاختلاف الانفاس وادارة اللهوات، لأن الآلة التي تظهر عليها لاتحمل الكلام إلا على وجه التقطيع، وكلام الباري قائم بذاته على خلاف هذا التقطيع والابتداء والانتهاء والتكرار والبعدية والقبلية. ومن قال ذلك لم يعرف حد القديم وادعى قدم الاعراض وتقطع القديم، وتقطع القديم عرض لايقوم بقديم. ومن اعتقد ان كلام الله القائم بذاته على حد تلاوة التالي من القطع والوصل والتقريب والتبعيد والبعدية والقبلية فقد شبه الله بخلقه. ولهذا روي في الخبر أن موسى سأله بنو اسرائيل: كيف سمعت كلام ربك؟ قال كالرعد الذي لايترجع، يعني ينقطع لعدم قطع الانفاس وعدم الانفاس والآلات والشفاه واللهوات ومن قال غير ذلك وتوهم ان الله تكلم على لسان التالي او الكلام الذي قام بذاته على هذه الصفة من التقطيع والوصل والتقريب والتبعيد فقد حكم به محدثا لان الدلالة على حدوث العالم هو الاجتماع والافتراق، ولان هذه من صفات الادوات اهـ

(قلت) فهذا الذي قاله ابن عقيل أقل خطأ مما قاله البرزيني، فان ذلك مخالف للنص والاجماع والعقل مخالفة ظاهرة، فانه قد ثبت بالنص والاجماع ان من تكلم في الصلاة بكلام الآدميين عامداً لغير مصلحتها عالما بالتحريم بطلت صلاته

بالاجماع خلاف ماذكره القاضي يعقوب . ومتى قصد به التلاوة لم تبطل بالاجماع وان قصد به التلاوة والخطاب ففيه نزاع . وظاهر مذهب احمد لاتبطل كمذهب الشافعي وغيره، وقيل تبطل كقول أبي حنيفة وغيره . وما ذكروه عن الصحابة حجة عليهم. فان قول علي بن أبي طالب (فاصبر إن وعد الله حق ولا يستخفنك الذين لايوقنون) هو كلام الله ولم يقصد علي أن يقول للخارجي ولا يستخفنك الخوارج وانما قصد ان يسمعه الآية وانه عامل بها صابر لايستخفه الذين لايوقنون، وابن مسعود قال لهم وهو بالكوفة (ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين) ومعلوم ان مصر بلا تنوين هي مصر المدينة وهذه لم تكن بالكوفة . وابن مسعود انما كان بالكوفة فعلم انه قصد تلاوة الآية وقصد مع ذلك تنبيه الحاضرين على الدخول فانهم سمعوا قوله ادخلوا ، فعلموا انه أذن لهم في الدخول ، وان كان هو تلا الآية فهذا هذا

وأما جواب ابن عقيل فبناه على أصل ابن كلاب الذي يعتقده هو وشيخه وغيرهما وهو الاصل الذي وافقوا فيه ابن كلاب ومن اتبعه كالاشعري وغيره وهو ان الله لايتكلم بمشيئته وقدرته وانه ليس فيما يقوم به شيء يكون بمشيئته وقدرته لامتناع قيام الامور الاختيارية به عندهم لانها حادثة والله لايقوم به حادث عندهم ، ولهذا تأولوا النصوص المناقضة لهذا الاصل ، كقوله تعالى (وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون) فان هذا يقتضي انه سيرى الاعمال في المستقبل وكذلك قوله (ثم جعلناكم خلائف في الارض من بعدهم لننظر كيف تعملون) وقوله (اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله) وكذلك قوله (قل ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله) فان هذا يقتضي انه يحبهم بعد اتباع الرسول . وكذلك قوله تعالى (ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم) فان هذا يقتضي انه قال لهم بعد خلق آدم وكذلك قوله تعالى (فلما أتاها نودي) يقتضي انه نودي

لما أتاها ،لم يناد قبل ذلك ، وكذلك قوله (إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون) ومثل هذا في القرآن كثير

وهذا الاصل هو مما أنكره الامام أحمد على ابن كلاب وأصحابه حتى على الحارث المحاسبي مع جلالة قدر الحارث ، وأمر أحمد بهجره وهجر الكلابية ، وقال: احذروا من حارث ،الآفة كلها من حارث ،فمات الحارث وماصلى عليه إلا نفر قليل بسبب تحذير الامام أحمد عنه،مع ان فيه من العلم والدين ماهو أفضل من عامة من وافق ابن كلاب على هذا الاصل ، وقد قيل ان الحارث رجع عن ذلك وأقر بأن الله يتكلم بصوت كما حكى عنه ذلك صاحب (التعرف لمذهب التصوف) أبو بكر محمد بن اسحاق الكلاباذي

وكثير من المتأخرين من أصحاب مالك والشافعي وأحمد وأبي حنيفة وافقوا ابن كلاب على هذا الاصل، كما قد بسط الكلام على ذلك في مواضع أخر

واختلف كلام ابن عقيل في هذا الاصل،فتارة يقول بقول ابن كلاب وتارة يقول بمذهب السلف وأهل الحديث ان الله تقوم به الامور الاختيارية ، ويقول انه قام به أبصار متجددة حين تجدد المرئيات لم تكن قبل ذلك ، وقام به علم بأن كل شيء وجد غير العلم الذي كان أولا انه سيوجد ، كما دل على ذلك عدة آيات في القرآن كقوله تعالى (لنعلم من يتبع الرسول) وغير ذلك. وكلامه في هذا الاصل وغيره يختلف ،تارة يقول هذا وتارة يقول هذا ، فان هذه المواضع مواضع مشكلة كثر فيها غلط الناس لما فيها من الاشتباه والالتباس

والجواب الحق ان كلام الله لايماثل كلام المخلوقين، كما لايماثل في شيء من صفاته صفات المخلوقين، وقول القائل ان الاشتراك في الحقيقة لايدل على الاشتراك في الحدوث لفظ مجمل ، فانا اذا قلنا : لله علم ولنا علم ، أو له قدرة ولنا قدرة ، أو له كلام ولنا كلام ، أو تكلم بصوت ونحن نتكلم بصوت ، وقلنا صفة الخالق

وصفة المخلوق اشتركتا في الحقيقة ، ـ فان أريد بذلك ان حقيقتهما واحدة بالعين فهذا مخالف للحس والعقل والشرع ، وان أريد بذلك ان هـذه مماثلة لهذه في الحقيقة وانما اختلفتا في الصفات العرضية، كما قال ذلك طائفة من أهل الكلام ـ وقد بين فساد ذلك في الكلام على الاربعين للرازي وغير ذلك ـ فهذا أيضاً من أبطل الباطل ، وذلك يستلزم أن تكون حقيقة ذات الباري عز وجل مماثلة لحقيقة ذوات المخلوقين

وان أريد بذلك انهما اشتركا في مسمى العلم والقدرة والكلام فهذا صحيح ، كما انه اذا قيل انه موجود أو ان له ذاتا فقد اشتركا في مسمى الوجود والذات ، لكن هذا المشترك أمر كلي لا يوجد كلياً إلا في الاذهان لا في الاعيان(١) فليس في الخارج شيء اشترك فيه مخلوقان كاشتراك الجزئيات في كلياتها بخلاف اشتراك الاجزاء في الكل فانه يجب الفرق بين قسمة الكلي الى جزئياته، كقسمة الحيوان الى ناطق وغير ناطق ، وقسمة الانسان الى مسلم وكافر، وقسمة الاسم الى معرب ومبني ، وقسمة الكل الى أجزائه كقسمة العقار بين الشركاء، وقسمة الكلام الى اسم وفعل وحرف ، ففي الاول انما اشتركت الاقسام في أمر كلي فضلا عن أن يكون الخالق والمخلوقون مشتركين في شيء موجود في الخارج وليس في الخارج صفة لله يماثل بها صفة المخلوق ، بل كل ما يوصف به الرب تعالى فهو مخالف بالحد والحقيقة لما يوصف به المخلوق أعظم مما يخالف المخلوق المخلوق، واذا كان المخلوق مخالفا بذاته وصفاته لبعض المخلوقات في الحد والحقيقة

(١) يظهر من هذا التفصيل ان شيخ الاسلام يرجح ان الاشتراك بين صفات الله وصفات المخلوق اشتراك في التسمية لا في الجنس الذي ينقسم الى انواع هي جزئياته. وهذا هو الذي اختاره شيخنا في درسه لرسالة التوحيد وذكرناه في حاشية لها واشرنا اليه في حاشية سابقة على هذا الكتاب

فمخالفة الخالق لكل مخلوق في الحقيقة أعظم من مخالفة أي مخلوق فرض لأي مخلوق فرض ، ولكن علمه ثبت له حقيقة العلم ولقدرته حقيقة القدرة ولكلامه حقيقة الكلام كما ثبت لذاته حقيقة الذاتية ولوجوده حقيقة الوجود ، وهو أحق بأن تثبت له صفات الكمال على الحقيقة من كل ماسواه . فهذا هو المراد بقولنا علمه يشارك علم المخلوق في الحقيقة ، فليس ما يسمع من العباد من أصواتهم مشابها ولا مماثلا لما سمعه موسى من صوته إلا كما يشبه ويماثل غير ذلك من صفاته لصفات المخلوقين ، فهذا في نفس تكلمه سبحانه وتعالى بالقرآن ، والقرآن عند الامام احمد وسائر ائمة السنة كلامه تكلم به وتكلم بالقرآن العربي بصوت نفسه وكلم موسى بصوت نفسه الذي لا يماثل شيئا من اصوات العباد ،

ثم اذا قرأنا القرآن فانما نقرؤه باصواتنا المخلوقة التي لا تماثل صوت الرب ، فالقرآن الذي نقرؤه هو كلام الله مبلغا عنه لا مسموعا منه ، وانما نقرؤه بحركاتنا واصواتنا ، الكلام كلام الباريء ، والصوت صوت القاريء ، كما دل على ذلك الكتاب والسنة مع العقل ، قال الله تعالى (وان احد من المشركين استجارك فاجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه) وقال النبي ﷺ « زينوا القرآن بأصواتكم » وقال الامام احمد في قول النبي ﷺ « ليس منا من لم يتغن بالقرآن » قال ، يزينه ويحسنه بصوته كما قال « زينوا القرآن باصواتكم » فنص احمد على ما جاء به الكتاب والسنة انا نقرأ القرآن باصواتنا والقرآن كلام الله كله لفظه ومعناه ، سمعه جبريل من الله وبلغه الى محمد ﷺ وسمعه محمد منه ، وبلغه محمد الى الخلق ، والخلق يبلغه بعضهم الى بعض ويسمعه بعضهم من بعض ، ومعلوم انهم اذا سمعوا كلام النبي ﷺ وغيره فبلغوه عنه كما قال « نضر الله امرأ سمع منا حديثا فبلغه كما سمعه » فهم سمعوا اللفظ من الرسول بصوت نفسه بالحروف التي تكلم بها وبلغوا لفظه باصوات انفسهم ، وقد علم الفرق بين من يروي الحديث

بالمعنى لا باللفظ واللفظ المبلغ لفظ الرسول وهو كلام الرسول . فان كان صوت المبلغ ليس صوت الرسول وليس ما قام بالرسول من الصفات والاعراض فارقته وماقامت بغيره بل ولا تقوم الصفة والعرض بغير محله . واذا كان هـذا معقولا في صفات المخلوقين فصفات الخالق اولى بكل صفة كمال وابعد عن كل صفة نقص ، والتباين الذى بين صفة الخالق والمخلوق اعظم من التباين الذي بين صفة مخلوق ومخلوق ، وامتناع الاتحـاد والحلول بالذات للخالق وصفاته في المخلوق اعظم من الاتحاد والحلول بالذات للمخلوق وصفاته في المخلوق ، وهذه جمل قد بسطت في مواضع اخر

هذا مع ان احتجاج الجهمية والمعتزلة بان كلام المخلوق بقوله (يايحيى خـذ الكتاب بقوة) مثل كلام الخالق غلط باتفاق الناس حتى عندهم ، فان الذين يقولون هو مخلوق يقولون انه خلقه في بعض الاجسام اما الهواء او غـيره ، كما يقولون انه خلق الكلام في نفس الشجرة فسمعه موسى. ومعلوم ان تلك الحروف والاصوات التي خلقها الله ليست مماثلة لما يسمـع من العبد وتلك هي كلام الله المسموع منه عنـدهم . كما ان اهل السنة يقولون الذي تكلم هو الله بمشيئته وليس ذلك مماثلا لصوت العبد . واما القائلون بعدم الكلام المعين سواء كان معنى او حروفا او اصواتا فيقولون خلق لموسى ادراكا ادرك به ذلك القـديم . وبكل حال فكلام المتكلم اذا سمع من المبلـغ عنه (١) فـكيف يكون ذلك في كلام الله تعالى

---

(١) قد سقط من الناسخ هنا خبر «فكلام المتكلم» ويعلم مما سبق وهو ان ماقام بنفس المبلغ غير ماقام بنفس المتكلم المنشيء للكلام ولـكنه مثله لتماثل كلام بشر ، وبه يظهر قوله فكيف يكون ذلك في كلام الله تعالى ؟ يعني وهو لا يماثل كلام البشر

فيجب على الانسان في مسألة الكلام ان يتحرى اصلين :أحدهما ، تكلم الله بالقرآن وغيره ، هل تكلم به . بمشيئته وقدرته أم لا ؟ وهل تكلم بكلام قائم بذاته أم خلقه في غيره ؟ (والثاني) بتبليغ ذلك الكلام عن الله وأنه ليس مما يتصف به الثاني وان كان المقصود بالتبليغ الكلام المبلغ . وبسط هذا له موضع آخر

وأيضا فهذان المتنازعان اذا قال احدهما انها قديمة وليس لها مبتدأ وشكلها ونقطها محدث، وقال الآخر انها ليست بكلام الله وانها مخلوقة بشكلها ونقطها ، قد يفهم من هذا انهما ارادا بالحروف الحروف المكتوبة دون المنطوقة، والحروف المكتوبة قد تنازع الناس في شكلها ونقطها ، فان الصحابة لما كتبوا المصاحف كتبوها غير مشكولة ولا منقوطة لأنهم انما كانوا يعتمدون في القرآن على حفظه في صدورهم لا على المصاحف ، وهو منقول بالتواتر محفوظ في الصدور ، ولو عدمت المصاحف لم يكن للمسلمين بها حاجة ، فان المسلمين ليسوا كأهل الكتاب الذين يعتمدون على الكتب التي تقبل التغير ، والله أنزل القرآن على محمد فتلقاه تلقيا وحفظه في قلبه ، لم ينزله مكتوبا كالتوراة ، وأنزله منجما مفرقا ليحفظ فلا يحتاج الى كتاب، كما قال تعالى (وقالوا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة) الآية ، وقال تعالى (وقرآنا فرقناه) الآية ، وقال تعالى (ولا تعجل بالقرآن) الآية . وقال تعالى (ان علينا جمعه وقرآنه) الآية . وفي الصحيح عن ابن عباس قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم يعالج من التنزيل شدة ، وكان يحرك شفتيه ، فقال ابن عباس : أنا أحركهما لك كما كان النبي صلى الله عليه وسلم يحركهما ، فحرك شفتيه، فأنزل الله تعالى (لا تحرك به لسانك لتعجل به ان علينا جمعه وقرآنه) قال جمعه في صدرك ثم تقرأه (فاذا قرأناه فاتبع قرآنه) قال فاستمع له وأنصت (ثم ان علينا بيانه) أي نبينه بلسانك . فكان النبي ﷺ اذا أتاه جبريل استمع فاذا انطلق جبريل قرأه النبي ﷺ كما أقرأه ، فلهذا لم تكن الصحابة ينقطون

للصاحف ويشكلونها ، وأيضا كانوا عربا لا يلحنون فلم يحتاجوا إلى تقييدها بالنقط ، وكان في اللفظ الواحد قراءتان يقرأ بالياء والتاء مثل : يعملون ، وتعملون . فلم يقيدوه باحدهما ليمنعوه من الآخرة . ثم انه في زمن التابعين لما حدث اللحن صار بعض التابعين يشكل المصاحف وينقطها ،وكانوا يعلمون ذلك بالحمرة ، ويعملون الفتح بنقطة حمراء فوق الحرف ، والكسرة بنقطة حمراء تحته ، والضمة بنقطة حمراء امامه . ثم مدوا النقطة وصاروا يعملون الشدة بقولك شد . ويعملون المدة بقولك مد ، وجعلوا علامة الهمزة تشبه العين لان الهمزة أخت العين . ثم خففوا ذلك حتى صارت علامة الشدة مثل رأس السين وعلامة المدة مختصرة كما يختصر أهل الديوان الفاظ العدد وغير ذلك ، وكما يختصر المحدثون أخبرنا وحدثنا فيكتبون أول اللفظ وآخره على شكل أنا وعلى شكل ثنا .

وتنازع العلماء هل يكره تشكيل المصاحف وتنقيطها ؟ على قولين معروفين وهما روايتان عن الامام أحمد ، لكن لا نزاع بينهم ان المصحف إذا شكل ونقط وجب احترام الشكل والنقط كما يجب احترام الحرف ولا تنازع بينهم ان مداد النقطة والشكل مخلوق كما ان مداد الحرف مخلوق، ولا نزاع بينهم ان الشكل يدل على الاعراب والنقط يدل على الحروف وان الاعراب من تمام الكلام العربي

ويروى عن أبي بكر وعمر انهما قالا : حفظ إعراب القرآن أحب الينا من حفظ بعض حروفه . ولا ريب أن النقطة والشكلة بمجردهما لا حكم لهما ولا حرمة ولا ينبغي أن يجرد الكلام فيهما . ولا ريب أن إعراب القرآن العربي من تمامه ويجب الاعتناء باعرابه . والشكل يبين إعرابه كما تبين الحروف المكتوبة للحرف المنطوق ، كذلك يبين الشكل المكتوب للاعراب المنطوق .

فهذه المسائل إذا تصورها الناس على وجهها تصوراً تاما ظهر لهم الصواب، وقلت الأهواء والعصبيات، وعرفوا موارد النزاع، فمن تبين له الحق في شيء من

ذلك اتبعه ومن خفي عليه توقف حتى يبينه الله له ، وينبغي له أن يستعين على ذلك بالدعاء لله، ومن احسن ذلك ما رواه مسلم في صحيحه عن عائشة ان النبي ﷺ كان إذا قام من الليل يصلي يقول « اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل فاطر السموات والارض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحق باذنك انك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم »

***

وأقول: القائل الآخر كلامه كتب بها يقتضي انه أراد بالحروف ما يتناول المنطوق والمكتوب كما قال النبي ﷺ « من قرأ القرآن فله بكل حرف عشر حسنات، أما أني لا اقول الم حرف، ولكن الف حرف ولام حرف وميم حرف» قال الترمذي : حديث صحيح . فهنا لم يرد النبي ﷺ بالحرف نفس المداد وشكل المداد وانما اراد الحرف المنطوق. وفي مراده بالحرف قولان: قيل هذا اللفظ المفرد. وقيل أراد ﷺ بالحرف الاسم كما قال ألف حرف ولام حرف وميم حرف .

ولفظ الحرف والكلمة له في لغة العرب التي كان النبي ﷺ يتكلم بها معنى ، وله في اصطلاح النحاة معنى . فالكلمة في لغتهم هي الجملة التامة ، الجملة الاسمية أو الفعلية، كما قال النبي ﷺ في الحديث المتفق على صحته « كلمتان خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان الى الرحمن : سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم» وقال ﷺ « ان أصدق كلمة قالها الشاعر كلمة لبيد : ألا كل شيء ما خلا الله باطل » وقال « ان العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله ما يظن ان تبلغ ما بلغت يكتب له بها رضوان الله الى يوم القيامة ، وان العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله ما يظن ان تبلغ ما بلغت يكتب له بها سخطه الى يوم القيامة» وقال لام المؤمنين (١) « لقد قلت بعدك اربع كلمات لو وزنت بما قلت منذ اليوم لوزنتهن، سبحان الله

(١) لعل اسمها سقط من الناسخ وهي صفية (رض)

عدد خلقه ، سبحان الله رضاء نفسه ، سبحان الله زنة عرشه ، سبحان الله مداد كلماته » ومنه قوله تعالى (كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا) وقوله (وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها) وقوله تعالى (يأهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله) وقوله (وجعلها كلمة باقية في عقبه لعلهم يرجعون) وقوله (وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا) وقول النبي ﷺ « من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله » ونظائره كثيرة ، ولا يوجد قط في الكتاب والسنة وكلام العرب لفظ الكلمة إلا والمراد به الجملة التامة. فكثير من النحاة أو أكثرهم لا يعرفون ذلك بل يظنون ان اصطلاحهم في مسمى الكلمة ينقسم الى اسم وفعل وحرف هو لغة العرب، والفاضل منهم (١) يقول «وكلمة بها كلام قد يؤم» ويقولون : العرب قد تستعمل الكلمة في الجملة التامة وتستعملها في المفرد ، وهذا غلط لا يوجد قط في كلام العرب لفظ الكلمة إلا للجملة التامة

ومثل هذا اصطلاح المتكلمين على ان القديم هو مالا أول لوجوده أو مالم يسبقه عدم، ثم يقول بعضهم وقد يستعمل القديم في المتقدم على غيره سواء كان أزليا أو لم يكن كما قال تعالى (حتى عاد كالعرجون القديم) وقال (وإذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم) وقوله تعالى (قالوا تالله انك لفي ضلالك القديم) وقال (أفرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الاقدمون) وتخصيص القديم بالاول عرف اصطلاحي ، ولا ريب انه أولى بالقدم في لغة العرب ، ولهذا كان لفظ المحدث في لغة العرب بازاء القديم ، قال تعالى (ما يأتيهم من ذكر ربهم محدث) وهذا يقتضي ان الذى نزل قبله ليس بمحدث بل متقدم. وهذا موافق للغة العرب الذي نزل بها القرآن، ونظير هذا

---

(١) هو ابن مالك صاحب الألفية المشهورة رحمه الله

لفظ القضاء فانه في كلام الله وكلام الرسول المراد به اتمام العبادة وإن كان ذلك في وقتها كما قال تعالى (فاذا قضيت الصلاة فانتشروا في الارض وابتغوا من فضل الله) وقوله (فاذا قضيتم مناسككم) ثم اصطلح طائفة من الفقهاء فجعلوا لفظ القضاء مختصاً بفعلها في غير وقتها ، ولفظ الاداء مختصاً بما يفعل في الوقت، وهذا التفريق لايعرف قط في كلام الرسول ، ثم يقولون قد يستعمل لفظ القضاء في الاداء فيجعلون اللغة التي نزل القرآن بها من النادر، ولهذا يتنازعون في مراد النبي ﷺ « فما أدركتم فصلوا وما فاتكم فاقضوا » وفي لفظ «فأتموا» فيظنون ان بين اللفظين خلافا وليس الامر كذلك بل قوله «فاقضوا» كقوله «فأتموا» لم يرد بأحدهما الفعل بعد الوقت ، بل لايوجد في كلام الشارع أمر بالعبادة في غير وقتها ، لكن الوقت وقتان : وقت عام ووقت خاص لاهل الاعذار كالنائم والناسي اذا صليا بعد الاستيقاظ والذكر فانما صليا في الوقت الذي أمرالله به، وان هذا ليس وقتا في حق غيرهما .

ومن أعظم أسباب الغلط في فهم كلام الله ورسوله ان ينشأ الرجل على اصطلاح حادث فيريد أن يفسر كلام الله بذلك الاصطلاح ويحمله على تلك اللغة التي اعتادها. وما ذكر في مسمى الكلام مما ذكره سيبويه في كتابه عن العرب فقال واعلم ان (قلت) في كلام العرب انما وقعت على أن تحكى وانما تحكى بعد القول ما كان كلاما قولا وإلا فلا يوجد قط لفظ الكلام والكلمة الا للجملة التامة في كلام العرب ، ولفظ الحرف يراد به الاسم والفعل وحروف المعاني واسم حروف الهجاء ، ولهذا سال الخليل اصحابه : كيف تنطقون بالزاي من زيد؟ فقالوا :زاي فقال نطقتم بالاسم، والحرف زه[1] فبين الخليل ان هذه التي تسمى حروف الهجاء هي اسماء

(١) الهاء في قوله زه ـ ساكنة زيدت لاجل الوقف ، وانما مسمى الحرف الاول من زيد «ز» بالفتح والعرب لاتقف على متحرك كما انها لاتبتدىء النطق بساكن

وكثيراً مايوجد في كلام المتقدمين هذا حرف من الغريب يعبرون بذلك عن الاسم التام، فقوله ﷺ «فله بكل حرف مثله» بقوله[١] « ولكن الف حرف ولام حرف وميم حرف» وعلى نهج ذلك ، وذلك حرف والكتاب حرف ونحو ذلك وقد قيل ان ذلك احرف والكتاب احرف وروي ذلك مفسراً في بعض الطرق

والنحاة اصطلحوا اصطلاحا خاصا فجعلوا لفظ الكلمة يراد به الاسم أو الفعل أو الحرف الذي هو من حروف المعاني ، لان سيبويه قال في أول كتابه : الكلام اسم وفعل وحرف جاء لمعنى ليس باسم ولا فعل ، فجعل هذا حرفا خاصا ، وهو الحرف الذي جاء لمعنى ليس باسم ولا فعل، لان سيبويه كان حديث العهد بلغة العرب، وقد عرف انهم يسمون الاسم أو الفعل حرفا ، فقيد كلامه بان قال: وقسموا الكلام إلى اسم وفعل وحرف جاء لمعنى ليس باسم ولا فعل ، وأراد سيبويه أن الكلام ينقسم الى ذلك قسمة الكل الى اجزائه لاقسمة الكلي الى جزئياته كما يقول الفقهاء بان القسمة كما يقسم العقار والمنقول بين الورثة فيعطى هؤلاء قسم غير قسم هؤلاء ، كذلك الكلام هو مؤلف من الاسماء والافعال وحروف المعاني فهو مقسوم اليها . وهذا التقسيم غير تقسيم الجنس الى أنواعه كما يقال الاسم ينقسم الى معرب ومبني ،

وجاء الجزولي وغيره فاعترضوا على النحاة في هذا ولم يفهموا كلامهم فقالوا كل جنس قسم الى أنواعه او أشخاص أنواعه ، فاسم المقسوم صادق على الانواع والاشخاص والا فليست أقساما له ، وأراد بذلك الاعتراض على قول الزجاج : الكلام اسم وفعل وحرف . والذي ذكره الزجاج هو الذي ذكره سيبويه وسائر أئمة النحاة وأرادوا بذلك القسمة الاولى المعروفة وهي قسمة الامور الموجودة إلى أجزائها كما يقسم العقار والمال، ولم يريدوا بذلك قسمة الكليات التي لاتوجد كليات إلا في الذهن، كقسمة الحيوان الى ناطق وبهيم، وقسمة الاسم إلى المعرب والمبني . فان المقسم هنا هو معنى عقلي كلي لايكون كليا إلا في الذهن

---

(١) كذا في الاصل الذي طبعنا عنه . ولفظ الحديث « من قرأ حرفا من كتاب الله تعالى فله به حسنة ، الحسنة بعشر أمثالها ، لا أقول الم حرف ، ولكن أقول : الف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف » أخرجه الترمذي وصححه

فصل

ولفظ الحرف يراد به حروف المعاني التي هي قسيمة الاسماء والافعال ، مثل حروف الجر والجزم ، وحرفي التنفيس ، والحروف المشبهة للافعال مثل ان وأخواتها ، وهذه الحروف لها أقسام معروفة في كتب العربية كما يقسمونها بحسب الاعراب الى مايختص بالاسماء والى مايختص بالافعال ، ويقولون ما اختص باحد النوعين ولم يكن كالجزء منه كان عاملا كما تعمل حروف الجر وان وأخواتها في الاسماء ، وكما تعمل النواصب والجوازم في الافعال ، بخلاف حرف التعريف وحرفي التنفيس كالسين وسوف فانهما لايعملان لانهما كالجزء من الكلمة ، ويقولون كان القياس في « ما » انها لاتعمل لانها تدخل على الجمل الاسمية والفعلية ، ولكن أهل الحجاز أعملوها لمشابهتها لليس وبلغتهم جاء القرآن في قوله (ماهذا بشراً * ماهن امهاتهم)

ويقسمون الحروف باعتبار معانيها الى حروف استفهام وحروف نفي وحروف تحضيض وغير ذلك ، ويقسمونها باعتبار بنيتها كما تقسم الافعال والاسماء إلى مفرد وثنائي وثلاثي ورباعي وخماسي . فاسم الحرف هنا منقول عن اللغة الى عرف النحاة بالتخصيص ، والا فلفظ الحرف في اللغة يتناول الاسماء والحروف والافعال ، وحروف الهجاء تسمى حروفا وهي أسماء كالحروف المذكورة في أوائل السور لان مسماها هو الحرف الذي هو حرف الكلمة .

وتقسم تقسيما آخر الى حروف حلقية وشفهية والمذكورة في أوائل السور في القرآن هي نصف الحروف واشتملت من كل صنف على أشرف نصفيه : على نصف الحلقية والشفهية والمطبقة والمصمتة ، وغير ذلك من أجناس الحروف

فان لفظ الحرف اصله في اللغة هو الحد والطرف كما يقال حروف الرغيف وحروف الجبل ، قال الجوهري : حرف كل شيء طرفه وشفيره وحده ، ومنه

بحرف الجبل وهو اعلاه المحدد ، ومنه قوله تعالى (ومن الناس من يعبد الله على حرف ـ الى قوله ـ والآخرة) فان طرف الشيء اذا كان الانسان عليه لم يكن مستقرا فلهذا كان من عبد الله على السراء دون الضراء عابدا له على حرف تارة يظهره وتارة ينقلب على وجهه كالواقف على حرف الجبل، فسميت حروف الكلام حروفا لانها طرف الكلام وحده ومنتهاه ،اذ كان مبدأ الكلام من نفس المتكلم ومنتهاه حده وحرفه القائم بشفتيه ولسانه ، ولهذا قال تعالى (ألم نجعل له عينين ولسانا وشفتين) فلفظ الحرف يراد به هذا وهذا وهذا .

ثم اذا كتب الكلام في المصحف سموا ذلك حرفا فيراد بالحرف الشكل المخصوص ولكلامه شكل مخصوص هي خطوطهم التي يكتبون بها كلامهم، ويراد به المادة ويراد به مجموعهما، وهذه الحروف المكتوبة تطابق الحروف المنطوقة وتبينها وتدل عليها فسميت بأسمائها اذ كان الانسان يكتب اللفظ بقلمه ، ولهذا كان اول ما انزل الله على نبيه (اقرأ باسم ربك الذي خلق ـ الى قوله ـ مالم يعلم) فبين سبحانه في أول ما انزله انه سبحانه هو الخالق الهادي الذي خلق فسوى، والذي قدر فهدى، كما قال موسى (ربنا الذي اعطى كل شيء خلقه ثم هدى) فالخالق يتناول كل ما سواه من المخلوقات ثم خص الانسان فقال (خلق الانسان من علق) ثم ذكر انه علم فان الهدى والتعليم هو كمال المخلوقات .

والعلم له ثلاث مراتب: علم بالجنان، وعبارة باللسان، وخط بالبنان(١) ولهذا قيل ان لكل شيء أربع وجودات: وجود عيني وعلمي ولفظي ورسمي، وجود في الاعيان، ووجود في الاذهان، واللسان والبنان، لكن الوجود العيني هو وجود الموجودات

---

(١) المرتبتان الاوليان مما فطر عليه الانسان ، والثالثة وهي الخط صناعة استحدثها من قديم الزمان ، وقد استحدث في هذا الزمان صناعات أخرى وهي نقل الكلام بالآلات الكهربائية كالتلغراف السلكي والتلغراف الهوائي وألواح الآلة التي تسمى (فونغراف) ويدخل هذا في عموم قوله تعالى (علم الانسان مالم يعلم)

في انفسها والله خالق كل شيء ، واما الذهني الجناني فهو العلم بها الذي في القلوب ، والعبارة عن ذلك هو اللساني، وكتابة ذلك هو الرسمي البناني، وتعليم الخط يستلزم تعليم العبارة واللفظ وذلك يستلزم تعليم العلم فقال (علم بالقلم) لان التعليم بالقلم يستلزم المراتب الثلاث ، واطلق التعليم ثم خص فقال (علم الانسان ما لم يعلم)

وقد تنازع الناس في وجود كل شيء ، هل هو عين ماهيته ام لا . وقد بُسط الكلام على ذلك في غير هذا الموضع ، وبين ان الصواب من ذلك انه قد يراد بالوجود ما هو ثابت في الاعيان، ليس هو ما هيتها المتصورة في الاذهان. لكن الله خلق الموجود الثابت في الاعيان وعلم الماهيات المتصورة في الاذهان، كما انزل بيان ذلك في اول سورة انزلها من القرآن .وقد يراد بالوجود والماهية كليهما ما هو متحقق في الاعيان ،وما هو متحقق في الاذهان، فاذا اريد بهذا وهذا ما هو متحقق في الاعيان او ما هو متصور في الاذهان، فليس هما اثنين (١) بل هذا هو هذا. وكذلك الذهن اذا تصور شيئا فتلك الصورة هي المثال الذي تصورها وذلك هو وجودها الذهني الذي تتصوره الاذهان . فهذا فصل الخطاب في هذا الباب

ومن تدبر هذه المسائل وامثالها تبين له ان اكثر اختلاف العقلاء من جهة اشتراك الاسماء (ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور) . وقد بسط الكلام على اصول هذه المسائل وتفاصيلها في مواضع اخرى. فان الناس كثر نزاعهم فيها حتى قيل : مسألة الكلام، حيرت عقول الانام . ولكن سؤال هذين لا يحتمل البسط الكثير فانهما يسألان بحسب ما سمعاه واعتقداه وتصوراه، فاذا عرف السائل اصل مسألته ولوازمها وما فيها من الالفاظ المجملة والمعاني المشتبهة تبين له ان من الخلق من تكلم في مثل هذه الاسماء بالنفي والاثبات من غير تفصيل فلا بد له ان يقابله آخر بمثل اطلاقه

(١) كانت في الاصل (في الاعيان) ولم يكن المعنى بها ظاهراً

ومن الاصول الكلية أن يعلم أن الالفاظ نوعان : نوع جاء به الكتاب والسنة فيجب على كل مؤمن أن يقر بموجب ذلك، فيثبت ما أثبته الله ورسوله وينفي ما نفاه الله ورسوله ، فاللفظ الذي أثبته الله، أو نفاه (١) فان الله يقول الحق وهو يهدي السبيل والالفاظ الشرعية لها حرمة . ومن تمام العلم ان يبحث عن مراد رسوله بها ليثبت ما أثبته وينفي ما نفاه من المعاني، فانه يجب علينا أن نصدقه في كل ما أخبر، ونطيعه في كل ما أوجب وأمر، ثم اذا عرفنا تفصيل ذلك كان ذلك من زيادة العلم والايمان، وقد قال تعالى (يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات)

وأما الالفاظ التي ليست في الكتاب والسنة ولا اتفق السلف على نفيها او اثباتها فهذه ليس على أحد أن يوافق من نفاها او أثبتها حتى يستفسر عن مراده ، فان أراد بها معنى يوافق خبر الرسول أقر به وان أراد بها معنى يخالف خبر الرسول أنكره .

ثم التعبير عن تلك المعاني ان كان في ألفاظه اشتباه او اجمال عبر بغيرها او بين مراده بها، بحيث يحصل تعريف الحق بالوجه الشرعي، فان كثيراً من نزاع الناس سببه ألفاظ مجملة مبتدعة ومعان مشتبهة ، حتى تجد الرجلين يتخاصمان ويتعاديان على اطلاق الفاظ ونفيها ،ولو سئل كل منهما عن معنى ما قاله لم يتصوره فضلا عن أن يعرف دليله، ولو عرف دليله لم يلزم أن من خالفه يكون مخطئا بل يكون في قوله نوع من الصواب ، وقد يكون هذا مصيبا من وجه وهذا مصيبا من وجه ، وقد يكون الصواب في قول ثالث .

وكثير من الكتب المصنفة في أصول العلوم الدين وغيرها تجد الرجل المصنف فيها في المسألة العظيمة كمسألة القرآن والرؤية والصفات والمعاد وحدوث العالم وغير ذلك يذكر أقوالا متعددة . والقول الذي جاء به الرسول وكان عليه

(١) كذا في الاصل وقد سقط منه الخبر الذي يتم به الكلام ويعلم من القرينة ومما بعده وهو : لا يكون الا حقا في اثباته ونفيه

سلف الامة ليس في تلك الكتب ولا عرفه مصنفوها ولا شعروا به ، وهذا من أسباب توكيد التفريق والاختلاف بين الامة وهو مما نهيت الامة عنه، كما في قوله تعالى (ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ماجاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم * يوم تبيض وجوه وتسود وجوه) قال ابن عباس : تبيض وجوه أهل السنة والجماعة وتسود وجوه أهل البدعة والفرقة .وقد قال تعالى (إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم في شيء انما أمرهم إلى الله)وقال تعالى(وان الذين اختلفوا في الكتاب لفي شقاق بعيد) وقد خرج النبي ﷺ على أصحابه وهم يتنازعون في القدر،وهذا يقول ألم يقل الله كذا؟وهذا يقول ألم يقل الله كذا؟ فقال « أبهذا أمرتم ؟ام الى هذا دعيتم؟ انما هلك من كان قبلكم بهذا : أن ضربوا كتاب الله بعضه ببعض ، انظروا ماأمرتم به فافعلوه ، وما نهيتم عنه فاجتنبوه » ومما أمر الناس به أن يعملوا بمحكم القرآن ويؤمنوا بمتشابهه

قال شيخ الاسلام ابن تيمية : وقد كتب في أصول هذه المسائل قواعد متعددة وأصول كثيرة ،ولكن هذا الجواب كتب وصاحبه مستوفز في قعدة واحدة، والله تعالى يهدينا وسائر اخواننا لما يحبه ويرضاه . والحمد لله رب العالمين

فصل

في بيان أن القرآن العظيم كلام الله العزيز العليم ليس شيء منه كلاما لغيره لا جبريل ولا محمد ولا غيرهما ، قال الله تعالى (فاذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم * انه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون* انما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون* واذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل قالوا انما أنت مفتر بل أكثرهم لايعلمون* قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين * ولقد نعلم انهم يقولون انما يعلمه بشر. لسان الذي يلحدون اليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين)

فأمره أن يقول (نزله روح القدس من ربك بالحق) والضمير في قوله (نزله) عائد على (ما) في قوله (بما ينزل) فالمراد به القرآن كما يدل عليه سياق الكلام وقوله (والله أعلم بما ينزل) فيه اخبار بأنه أنزله ، لكن ليس في هذه اللفظة بيان ان روح القدس نزل به ولا انه منزل منه .

ولفظ الانزال في القرآن قد يرد مقيداً بالانزال منه كنزول القرآن ، وقد يرد مقيداً بالانزال من السماء ويراد به العلو ، فيتناول نزول المطر من السحاب ونزول الملائكة من عند الله وغير ذلك . وقد يرد مطلقا فلا يختص بنوع من الانزال بل ربما يتناول الانزال من رءوس الجبال كقوله تعالى (وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد) والانزال من ظهور الحيوان كانزال الفحل الماء وغير ذلك فقوله (نزله روح القدس من ربك) بيان لنزول جبريل به من الله عز وجل ، فان روح القدس هنا هو جبريل بدليل قوله تعالى (من كان عدواً لجبريل فانه نزله على قلبك بإذن الله) وهو الروح الامين كما في قوله تعالى (وانه لتنزيل رب العالمين * نزل به روح الامين * على قلبك لتكون من المنذرين * بلسان عربي مبين) وفي قوله الامين دلالة على انه مؤتمن على ما أرسل به لا يزيد فيه ولا ينقص ، فان الرسول الخائن قد يغير الرسالة كما قال تعالى في صفته في الآية الاخرى (انه لقول رسول كريم * ذي قوة عند ذي العرش مكين * مطاع ثم أمين)

وفي قوله (منزل من ربك) دلالة على امور : منها بطلان قول من يقول انه كلام مخلوق خلقه في جسم من الاجسام المخلوقة كما هو قول الجهمية الذين يقولون بخلق القرآن من المعتزلة والبخارية والضرارية وغيرهم ، فان السلف كانوا يسمون كل من نفى الصفات وقال ان القرآن مخلوق وان الله لا يرى في الآخرة جهميا ، فان جهما اول من ظهرت عنه بدعة نفي الاسماء والصفات ، وبالغ في نفي ذلك ، فله في هذه البدعة مزية المبالغة في النفي والابتداء بكثرة إظهار ذلك

والدعوة اليه ، وان كان الجعد بن درهم قد سبقه الى بعض ذلك ، فان الجعد أول من أحدث ذلك في الاسلام فضحى به خالد بن عبد الله القسرى بواسط يوم النحر ، وقال « يأيها الناس ضحوا تقبل الله ضحاياكم ، فاني مضح بالجعد بن درهم ، انه زعم أن الله لم يتخذ ابراهيم خليلا ، ولم يكلم موسى تكليما ، تعالى الله عما يقول الجعد علواً كبيرا » ثم نزل فذبحه ، ولكن المعتزلة إن وافقوا جهماً في بعض ذلك فهم يخالفونه في مسائل غير ذلك ، كمسائل الايمان والقدر وبعض مسائل الصفات أيضاً . ولا يبالغون في النفي مبالغته ، وجهم يقول ان الله لا يتكلم أو يقول انه متكلم بطريق المجاز ، وأما المعتزلة فيقولون انه يتكلم حقيقة لكن قولهم في المعنى هو قول جهم ، وجهم ينفي الاسماء أيضاً كما نفتها الباطنية ومن وافقهم من الفلاسفة ، وأما جمهور المعتزلة فلا تنفي الاسماء

فالمقصود ان قوله (منزل من ربك) فيه بيان انه منزل من الله لا من مخلوق من المخلوقات . ولهذا قال السلف : منه بدأ ، أي هو الذي تكلم به لم يبتديء من غيره كما قال الخلقية .

ومنها ان قوله (منزل من ربك) فيه بطلان قول من يجعله فاض على نفس النبي من العقل الفعال أو غيره(١) كما يقول ذلك طوائف من الفلاسفة والصابئة . وهذا القول أعظم كفرا وضلالا من الذي قبله ،

ومنها ان هذه الآية أيضاً تبطل قول من قال ان القرآن العربي ليس منزلا

(١) هذا يشبه قول بعض فلاسفة اوربة ان وحي الانبياء يفيض من أنفسهم في أحوال مخصوصة تستولي عليها و تستغرق ادراكها ووجدانها كاستيلاء كراهة الوثنية على نبينا ﷺ . ويرده ان الوحي إليه لم يكن مقصورا على إبطال الوثنية وخرافاتها واثبات التوحيد وما يناسبه من العبادات والفضائل ، بل فيه من اخبار الغيب الماضية والآتية ومن الحكمة واصول التشريع مالا يعقل ان يكون نابعا من نفس رجل امي ولا متعلم . وانما يعقل ان يكون وحيا من عالم الغيب والشهادة

من الله بل مخلوق إما في جبريل أو محمد أو جسم آخر غيرهما ، كما يقول ذلك الكلابية والاشعرية الذين يقولون : القرآن العربي ليس هو كلام الله وانما كلامه المعنى القائم بذاته والقرآن العربي خلق ليدل على ذلك المعنى ، ثم إما أن يكون خلق في بعض الاجسام : الهواء أو غيره ، أو ألهمه جبريل فعبر عنه بالقرآن العربي ، أو ألهمه محمد فعبر عنه بالقرآن العربي ، أو يكون جبريل أخذه من اللوح المحفوظ أو غيره

فهذه الاقوال التي تقدمت هي تفريع على هذا القول ، فان هذا القرآن العربي لابد له من متكلم تكلم به أولا قبل أن يصل الينا . وهذا القول يوافق قول المعتزلة ونحوهم في اثبات خلق القرآن العربي ، وكذلك التوراة العبرية ، ويفارقه من وجهين : أحدهما ان اولئك يقولون ان المخلوق كلام الله وهم يقولون انه ليس كلام الله لكن يسمى كلام الله مجازاً هذا قول أئمتهم وجمهورهم . وقال طائفة من متأخريهم : بل لفظ الكلام يقال على هذا وهذا بالاشتراك اللفظي ، لكن لفظ هذا الكلام ينقض أصلهم في ابطال قيام الكلام بغير المتكلم به ، ومع هذا لا يقولون ان المخلوق كلام الله حقيقة كما يقوله المعتزلة مع قولهم انه كلام حقيقة ، بل يجعلون القرآن العربي كلاما لغير الله وهو كلام حقيقة ، وهذا شر من قول المعتزلة . وهذا حقيقة قول الجهمية . ومن هذا الوجه نقول : المعتزلة أقرب . وقول الآخرين هو قول الجهمية المحضة ، لكن المعتزلة في المعنى موافقون لهؤلاء وانما ينازعونهم في اللفظ

الثاني ان هؤلاء يقولون : لله كلام هو معنى قديم قائم بذاته ، والخلقية يقولون لا يقوم بذاته كلام ، ومن هذا الوجه الكلابية خير من الخلقية في الظاهر ، لكن جمهور الناس يقولون ان أصحاب هذا القول عند التحقيق لم يثبتوا كلاما له حقيقة غير المخلوق ، فانهم يقولون انه معنى واحد هو الامر والنهي والخبر ، إن عبر عنه بالعربية كان قرآنا ، وان عبر عنه بالعبرية كان توراة . وان عبر عنه بالسريانية كان انجيلا . ومنهم من قال هو خمس معان

وجمهور العقلاء يقولون أن فساد هذا معلوم بالضرورة بعد التصور التام والعقلاء الكثيرون لا يتفقون على الكذب وجحد الضرورات من غير تواطيء واتفاق كما في الاخبار المتواترة ، وأما مع التواطيء فقد يتفقون على الكذب عمداً، وقد يتفقون على جحد الضرورات وان لم يعلم كل منهم انه جاحد للضرورة ولم يفهم حقيقة القول الذي يعتقده لحسن ظنه فيمن يقلد قوله ومحبته ليصير (١) ذلك القول كما اتفقت النصارى والرافضة وغيرهم من الطوائف على مقالات يعلم فسادها بالضرورة

وقال جمهور العقلاء : نحن اذا عربنا التوراة والانجيل لم يكن معنى ذلك معنى القرآن بل معاني هذا ليست معاني هذا (٢) وكذلك معنى (قل هو الله احد) ليس هو معنى (تبت يدا أبي لهب) ولا معنى آية الكرسي معنى آية الدين ، وقالوا اذا جوزتم ان تكون الحقائق المتنوعة شيئا واحدا فجوزوا ان يكون العلم والقدرة والكلام والسمع والبصر صفة واحدة . فاعترف ائمة هذا القول بان هذا الالزام ليس لهم عنه جواب عقلي

ثم منهم من قال الناس في الصفات اما مثبت لها قائل بالتعدد واما ناف لها ، واما اثباتها واتحادها فخلاف الاجماع ، وهذه طريقة القاضي ابي بكر وابي المعالي وغيرهما . ومنهم من اعترف بانه ليس له عنه جواب كأبي حسن الآمدي وغيره

والمقصود هنا ان هذه الآية تبين بطلان هذا القول كما تثبت بطلان غيره فان قوله (نزله روح القدس من ربك) يقتضي نزول القرآن من ربه والقرآن اسم للقرآن العربي لفظه ومعناه . بدليل قوله (فاذا قرأت القرآن) وانما يقرأ القرآن العربي لا يقرأ معانيه المجردة . وايضا فضمير المفعول في قوله (نزله)

---

(١) كذا في الاصل ولعله لنصر ذلك القول

(٢) بياض بالاصل قليل ، يظهر انه موضع شاهد كالشواهد التي بعده

عائد الى (ما) في قوله (والله اعلم بما ينزل) فالذي انزله الله هو الذي نزل به روح القدس ، فاذا كان روح القدس نزل بالقرآن العربي لزم ان يكون نزله من الله ، فلا يكون شيء منه نزله من عين من الاعيان المخلوقة ولا نزله من نفسه

وايضا فانه قال عقب هذه الآية (ولقد نعلم انهم يقولون انما يعلمه بشر لسان الذي يلحدون اليه اعجمى) الآية . وهم كانوا يقولون انما يعلمه هذا القرآن العربي بشر ، لم يكونوا يقولون انما يعلمه بشر معانيه فقط ، بدليل قوله (لسان الذي يلحدون اليه اعجمي وهذا لسان عربي مبين) فانه تعالى أبطل قول الكفار بان لسان الذي ألحدوا اليه جعلوه هو الذي يعلم محمداً القرآن لسان اعجمي ، والقرآن لسان عربي مبين ، فلو كان الكفار قالوا يعلمه معانيه فقط لم يكن هذا ردا لقولهم ، فان الانسان قد يتعلم من الاعجمي شيئا بلغة ذلك الاعجمي ويعبر عنه بعباراته . وقد اشتهر في التفسير ان بعض الكفار كانوا يقولون هو تعلمه من شخص كان بمكة اعجمي ، قيل انه كان مولى لابن الحضرمي

واذا كان الكفار جعلوا الذي يعلمه ما نزل به روح القدس بشرا والله ابطل ذلك بان لسان ذاك اعجمي وهذا لسان عربي مبين ، علم ان روح القدس نزل باللسان العربي المبين ، وان محمداً لم يؤلف نظم القرآن بل سمعه من روح القدس ، واذا كان روح القدس نزل به من الله ، علم انه سمعه منه ولم يؤلفه هو ، وهذا بيان من الله ان القرآن الذي هو اللسان العربي المبين سمعه روح القدس من الله ، وكذلك قوله (هو الذي انزل اليكم الكتاب مفصلا) الآية والكتاب اسم للكلام العربي بالضرورة والاتفاق ، فان الكلابية او بعضهم يفرق بين كلام الله وكتاب الله ، فيقول كلام الله هو المعنى القائم بالذات وهو غير مخلوق ، وكتابه هو المنظوم المؤلف العربي وهو المخلوق ، والقرآن يراد به تارة هذا وتارة هذا ، والله تعالى قد سمى نفس مجموع اللفظ والمعنى قرآنا وكتابا وكلاما ، فقال تعالى

(تلك آيات القرآن وكتاب مبين) وقال (طسم * تلك آيات الكتاب المبين) وقال (واذ صرفنا اليك نفراً من الجن) الآية ، فبين ان الذي سمعوه هو القرآن وهو الكتاب وقال (بل هو قرآن) الآية ، وقال (انه لقرآن كريم) الآية وقال (يتلو صحفا) الآية . وقال (والطور) الآية . وقال (ولو نزلنا عليك كتابا) الآية . لكن لفظ الكتاب قد يراد به المكتوب فيكون هو الكلام وقد يراد به ما يكتب فيه كقوله (انه لقرآن كريم) الآية . وقال (ونخرج له يوم القيامة كتابا) الآية

والمقصود هنا ان قوله (وهو الذي انزل اليكم الكتاب مفصلا) يتناول نزول القرآن العربي على كل قول . وقد اخبر أن (الذين آتاهم الكتاب يعلمون انه منزل من ربك بالحق) إخبار مستشهد بهم لا مكذب لهم . وقال انهم يعلمون ذلك لم يقل انهم يظنونه او يقولونه ، والعلم لا يكون الا حقا مطابقا للمعلوم بخلاف القول والظن الذي ينقسم الى حق وباطل ، فعلم ان القرآن العربي منزل من الله لا من الهواء ولا من اللوح ولا من جسم آخر ولا من جبريل ولا محمد ولا غيرهما ، واذا كان أهل الكتاب يعلمون ذلك فمن لم يقر بذلك من هذه الأمة كان أهل الكتاب المقرون بذلك خيراً منه من هذا الوجه

وهذا لا ينافي ماجاء عن ابن عباس وغيره من السلف في تفسير قوله (إنا أنزلناه في ليلة القدر) انه أنزله الى بيت العزة من السماء الدنيا ، ثم أنزله بعد ذلك منجما مفرقا بحسب الحوادث ، ولا ينافي انه مكتوب في اللوح المحفوظ قبل نزوله ، كما قال تعالى (بل هو قرآن مجيد) الآية . وقال (انه لقرآن كريم) الآية ، وقال (انها تذكرة) الآية ، وقال (وانه في أم الكتاب) الآية ، وكونه مكتوبا في اللوح المحفوظ وفي صحف مطهرة بأيدي الملائكة لا ينافي أن يكون جبريل نزل به من الله سواء كتبه الله قبل أن يرسل به جبريل أو غير ذلك ، واذا كان قد أنزله مكتوبا الى

بيت العزة جملة واحدة في ليلة القدر فقد كتبه كله قبل أن ينزله ، والله تعالى يعلم ما كان وما لا يكون أن لو كان كيف كان يكون ، وهو سبحانه قدر مقادير الخلائق وكتب أعمال العباد قبل أن يعملوها، كما ثبت ذلك بالكتاب والسنة وآثار السلف، ثم انه يأمر الملائكة بكتابتها بعدما يعملونها، فيقابل من الكتابة المتقدمة على الوجود والكتابة المتأخرة عنها فلا يكون بينهما تفاوت . هكذا قال ابن عباس وغيره من السلف وهو حق ، فاذا كان مايخلقه ثابتا عنه قبل كتبه أن يخلقه فكيف يستبعد أن يكتب كلامه الذي يرسل به ملائكته قبل أن يرسلهم به .

ومن قال ان جبريل أخذ القرآن عن الكتاب لم يسمعه من الله كان هذا باطلا من وجوه : منها أن يقال: ان الله تعالى كتب التوراة لموسى بيده فبنوا اسرائيل أخذوا كلام الله من الكتاب الذي كتبه هو سبحانه فيه (١) فان كان محمد أخذه من جبريل وجبريل عن الكتاب كان بنو اسرائيل أعلا من محمد بدرجة ، ومن قال انه ألقي الى جبريل معاني وأن جبريل عبر عنها بالكلام العربي، فقوله يستلزم أن يكون جبريل ألهمه إلهاما ، وهذا الالهام يكون لآحاد المؤمنين كما قال تعالى (وإذ أوحيت الى الحواريين أن آمنوا بي وبرسولي) وقال (وأوحينا الى أم موسى أن أرضعيه) وقد أوحى الى سائر النبيين ، فيكون هذا الوحي الذي لا يكون لآحاد الانبياء والمؤمنين أعلا من أخذ محمد القرآن عن جبريل لان جبريل الذي علمه لمحمد هو بمنزلة الواحد من هؤلاء ، ولهذا زعم ابن عربي ان خاتم الاولياء أفضل من خاتم الانبياء ، قال : لانه يأخذ من المعدن الذي يأخذ منه الملك الذي يوحي به الى الرسول. فجعل أخذه وأخذ الملك الذي جاء الى الرسول من معدن واحد ، وادعى ان أخذه عن الله أعلا من أخذ الرسول للقرآن ، ومعلوم أن هذا من أعظم الكفر ، وإن هذا القول من جنسه

١) الذي عندهم ان الذي كتبه الله في الالواح هو الوصايا العشر لا كل ما يسمونه التوراة

وأيضاً فالله تعالى يقول (إنا أوحينا إليك كما أوحينا الى نوح) الآية . ففضل موسى بالتكليم على غيره ممن أوحى اليهم . وهذا يدل على أمور: على ان الله يكلم عبده تكليما زائدا على الوحي الذي هو قسيم التكليم الخاص، فان لفظ التكليم والوحي كل منهما ينقسم الى عام وخاص، والتكليم العام هو المقسوم في قوله (وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا) الآية . والتكليم المطلق هو قسيم الوحي الخاص ليس قسما منه ، وكذلك لفظ الوحي قد يكون عاما فيدخل فيه التكليم الخاص كما في قوله لموسى (فاستمع لما يوحى) وقد يكون قسيم التكليم الخاص كما في سورة الشورى . وهذا يبطل قول من يقول الكلام معنى واحد قائم بالذات، فانه حينئذ لا فرق بين التكليم الذي خص به موسى ، والوحي العام الذي هو لآحاد العباد، ومثل هذا قوله في الآية الأخرى (وما كان لبشر أن يكلمه الله الا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحي باذنه مايشاء) فانه فرق بين الايحاء وبين التكليم وراء من حجاب وبين ارسال الرسول يوحي باذنه مايشاء ، فدل على ان التكليم من وراء حجاب كما كلم موسى أمر غير الايحاء

وأيضا فقوله (تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم) وقوله (حم تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم) وقوله (حم تنزيل من الرحمن الرحيم) وامثال ذلك يدل على انه منزل من الله لا من غيره . وكذلك قوله تعالى (بلغ ما انزل اليك من ربك) فانه يدل على انه مبلغ ما انزل اليه من ربه وانه مأمور بتبليغ ذلك

وأيضا فهم يقولون انه معنى واحد فان كان موسى سمع جميع المعنى فقد سمع جميع كلام الله ،وان كان سمع البعض فقد استمع بعضه فقد تبعض، و كلاهما ينقض قولهم، فانهم يقولون انه معنى واحد لا يتعدد و لا يتبعض . فان كان ماسمعه موسى والملائكة هو ذلك المعنى كله كان كل منهم علم جميع كلام الله وكلامه متضمن لجميع خبره وجميع امره فيلزم ان يكون كل واحد ممن كلمه الله

و أنزل عليه شيئا في كلامه عالما بجميع اخبار الله واوامره وهذا معلوم الفساد بالضرورة . وان كان الواحد من هؤلاء انما سمع بعضه فقد تبعض كلامه وذلك يناقض قولهم

وأيضا فقوله (وكلم الله موسى تكليما) وقوله (ولما جاء موسى لميقاتنا) وقوله تعالى (وناديناه من جانب الطور الايمن) وقوله (فلما اتاها نودي) الآيات دليل على تكليم موسى . والمعنى المجرد لا يسمع بالضرورة . ومن قال انه يسمع فهو مكابر - ودليل انه ناداه والنداء لا يكون الا صوتا مسموعا لا يعقل في لغة العرب لفظ النداء بغير صوت مسموع لا حقيقة ولا مجازا . وقد قال تعالى (فلما جاءها نودي ان بورك من في النار — الى قوله — رب العالمين)

وأيضا فقوله (فلما اتاها نودي ياموسى اني انا ربك) وفي هذا دليل على انه حينئذ نودي ولم يناد قبل ذلك و(لما) فيها من معنى الظرف ، كما في قوله (وانه لما قام عبد الله يدعوه) ومثل هذا قوله (ويوم يناديهم فيقول اين شركائي الذين كنتم تزعمون) (ويوم يناديهم فيقول ماذا اجبتم المرسلين) فان النداء وقت بظرف محدود فدل على ان النداء يقع في ذلك الحين دون غيره وجعل الظرف للنداء لا يسمع النداء إلا فيه

ومثل هذا قوله تعالى (واذا قال ربك للملائكة اني جاعل في الارض خليفة) وقوله (واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم) وامثال ذلك مما فيه توقيت بعض اقوال الرب بوقت معين فان الكلابية ومن وافقهم من اصحاب الائمة الاربعة يقولون انه لا يتكلم بمشيئته وقدرته بل الكلام المعين لازم لذاته كلزوم الحياة لذاته ، ومن هؤلاء من قال انه معنى واحد لان الحروف والاصوات متعاقبة يمتنع ان تكون قديمة . ومنهم من قال بل الحروف والاصوات قديمة الاعيان وانها مترتبة في مقارنة وجودها لم تزل ولا تزال قائمة بذاته

ومنهم من قال بل الحروف قديمة الاعيان بخلاف الاصوات ، وكل هؤلاء يقولون ان التكليم والنداء ليس إلا مجرد خلق إدراك في المخلوق بحيث يسمع مالم يزل ولا يزال لا انه يكون هناك كلام يتكلم الله به بمشيئته وقدرته ولا تكليم بكلام الله بمشيئته وقدرته، بل تكليمه عندهم جعل العبد سامعاً لما كان موجوداً قبل سمعه بمنزلة مايجعل الاعمى بصيراً لما كان موجوداً قبل رؤيته من غير إحداث شيء منفصل عنه ، وعندهم لما جاء موسى لميقات ربه سمع النداء القديم، لا انه حينئذ نودي ، ولهذا يقولون انه يسمع كلامه لخلقه بدل قول الناس يكلم خلقه ، وهؤلاء يردون على الخلقية الذين يقولون القرآن مخلوق ويقولون عن أنفسهم أنهم أهل السنة الموافقون للسلف الذين قالوا القرآن كلام الله غير مخلوق وليس قولهم قول السلف لكن قولهم أقرب إلى قول السلف من وجه

أما كون قولهم أقرب فلأنهم يثبتون كلاما قائما بنفس الله وهذا قول السلف بخلاف الخلقية الذين يقولون ليس كلامه إلا ماخلقه في غيره ، فان قول هؤلاء مخالف لقول السلف . وأما كون الخلقية أقرب فلأنهم يقولون ان الله يتكلم بمشيئته وقدرته، وهذا قول السلف ، وهؤلاء عندهم لا يقدر الله على شيء من كلامه فليس كلامه بمشيئته واختياره بل كلامه عندهم كحياته ، وهم يقولون الكلام عندنا صفة ذات لا صفة فعل ، والخلقية يقولون صفة فعل لا صفة ذات، ومذهب السلف انه صفة فعل وصفة ذات معاً ، فكل منهما موافق للسلف من وجه دون وجه .

واختلافهم في أفعاله ومسائل القدر بنسبة اختلافهم في كلامه تعالى فان المعتزلة يقولون انه يفعل لحكمة مقصودة وإرادة الاحسان إلى العباد، لكن لايثبتون لفعله حكمة تعود اليه . وأولئك يقولون لايفعل لحكمة ولا لمقصود أصلا فأولئك أثبتوا حكمة لكن لا تقوم به ، وهؤلاء لايثبتون له قصداً يتصف به

ولا حكمة تعود اليه . وكذلك في الكلام ، أولئك أثبتوا كلاما هو فعله لا يقوم به ، وهؤلاء يقولون ما لا يقوم به لا تعود حكمته اليه ، والفريقان يمنعون أن تقوم به حكمة مرادة له ، كما يمنع الفريقان أن يقوم به كلام وفعل يريده . وقول أولئك أقرب إلى قول السلف والفقهاء إذ أثبتوا الحكمة والمصلحة في أفعاله وأحكامه ، وأثبتوا كلاما يتكلم به بقدرته ومشيئته ، وقول هؤلاء أقرب الى قول السلف إذ أثبتوا الصفات وقالوا لا يوصف بمجرد المخلوق المنفصل عنه الذي لم يقم به اصلا ، ولا يعود اليه حكم شيء لم يقم به ، فلا يكون متكلما بكلام لم يقم به ، ولا قديراً بقدرة لم تقم به

فكل من المعتزلة والاشعرية في مسائل كلام الله وأفعال الله وافقوا السلف والأئمة من وجه وخالفوهم من وجه ، وليس قول أحدهم قول السلف دون الآخر ، لكن الاشعرية في جنس مسائل الصفات والقدر أقرب الى قول السلف والأئمة من المعتزلة

(فان قيل) فقد قال تعالى (انه لقول رسول كريم) وهذا يدل على ان الرسول احدث الكلام العربي (قيل) هذا باطل ، وذلك ان الله ذكر هذا في موضعين والرسول في أحد الموضعين محمد والرسول في الآية الاخرى جبريل ، قال تعالى في سورة الحاقة (انه لقول رسول كريم * وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون) الآية ، فالرسول هنا محمد ﷺ ، وقال في سورة التكوير (انه لقول رسول كريم * ذي قوة عند ذى العرش مكين * مطاع ثم أمين) فالرسول هنا جبريل ، فلو كان أضافه إلى الرسول لكونه أحدث حروفه أو أحدث منه شيئا لكان الخبران متناقضين ، فانه إن كان احدهما الذي أحدثها امتنع أن يكون الآخر هو الذي أحدثها

وأيضا فانه قال (لقول رسول كريم) ولم يقل لقول ملك ولا نبي ، ولفظ الرسول يستلزم مرسلا له ، فدل ذلك على أن الرسول مبلغ له عن مرسله لا انه أنشأ منه شيئاً من جهة نفسه ، وهذا يدل على انه أضافه الى الرسول لانه بلغه وأداه ، لا لانه أنشأ منه شيئا وابتدأه

وأيضاً فان الله قد كفر من جعله قول البشر بقوله (انه فكر وقدّر * فقتل كيف قدر*(١) ومحمد بشر ، فمن قال انه قول محمد فقد كفر، ولا يفرق بين أن يقول بشر أو جني أو ملك ، فمن جعله قولا لأحد من هؤلاء فقد كفر، ومع هذا فقد قال (انه لقول رسول كريم*وما هو بقول شاعر) فجعله قول الرسول البشري مع تكفيره من يقول انه قول البشر ، فعلم ان المراد بذلك ان الرسول بلغه عن مرسله، لا انه قوله من تلقاء نفسه، وهو كلام الله تعالى الذي أرسله، كما قال تعالى (وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله) فالذي بلغه الرسول هو كلام الله تعالى لا كلامه ، ولهذا كان النبي ﷺ يعرض نفسه على الناس بالموقف ويقول « ألا رجل يحملني الى قومه لأبلغ كلام ربي فان قريشاً قد منعوني أن أبلغ كلام ربي » رواه أبو داود وغيره ، والكلام كلام من قاله مبتدئا لا كلام من قاله مبلغا مؤديا

وموسى سمع كلام الله من الله بلا واسطة والمؤمنون يسمعه بعضهم من بعض، فسماع موسى سماع مطلق بلا واسطة، وسماع الناس سماع مقيد بواسطة، كما قال تعالى (وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا التكليم أو من وراء حجاب) ففرق بين التكليم من وراء حجاب كما كلم موسى وبين التكليم بواسطة الرسول كما كلم الانبياء بارسال رسوله اليهم ، والناس يعلمون ان النبي ﷺ اذا تكلم بكلام تكلم بحروفه ومعانيه بصوته ﷺ ثم المبلغون عنه يبلغون كلامه بحركاتهم وأصواتهم كما قال ﷺ « نضر الله امرأ سمع منا حديثا فبلغه كما سمعه » فالمستمع منه مبلغ حديثه كما سمعه، لكن بصوت نفسه لا بصوت الرسول، فالكلام هو كلام الرسول تكلم به بصوته، والمبلغ بلغ كلام رسول الله بصوت نفسه

---

١) يعني الى قوله (ان هذا الا قول البشر)

وإذا كان هذا معلوما في تبليغ كلام المخلوق فكلام الخالق أولى بذلك ، ولهذا قال تعالى (وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله) وقال النبي ﷺ « زينوا القرآن بأصواتكم » فجعل الكلام كلام الباري، وجعل الصوت الذي يقرؤه به العبد صوت القاري، . وأصوات العباد ليست هي الصوت الذي ينادي الله به ويتكلم به، كما نطقت النصوص بذلك بل ولا مثله ، فان الله تعالى (ليس كمثله شيء) لا في ذاته ولا صفاته ولا أفعاله، فليس علمه مثل علم المخلوقين ولا قدرته مثل قدرتهم، ولا كلامه مثل كلامهم ، ولا نداؤه مثل ندائهم ، ولا صوته مثل أصواتهم ، فمن قال عن القرآن الذي يقرؤه المسلمون ليس هو كلام الله أو هو كلام غير الله فهو ملحد مبتدع ضال ، ومن قال ان أصوات العباد أو المداد الذي يكتب به القرآن قديم أزلي فهو ملحد مبتدع ، بل هـذا القرآن هو كلام الله، وهو مثبت في المصاحف وكلام الله مبلغ عنه ، مسموع من القراء ليس مسموعا منه ، فالانسان يرى الشمس والقمر والكواكب بطريق المباشرة ويراها في ماء أو مرآة، فهذه رؤية مقيدة بالواسطة، وتلك مطلقة بطريق المباشرة، ويسمع من المبلغ عنه بواسطة ، والمقصود بالسماع هو كلامه في الموضعين كما أن المقصود بالرؤية هو المرئي في الموضعين ،

فمن عرف ما بين الحالين من الاجتماع والافتراق والاختلاف والاتفاق زالت عنه الشبهة التي تصيب كثيراً من الناس في هذا الباب ، فان طائفة قالت هذا المسموع كلام الله، والمسموع صوت العبد وصوته مخلوق، فكلام الله مخلوق. وهذا جهل فانه مسموع من المبلغ، ولا يلزم اذا كان صوت المبلغ مخلوقا أن يكون نفس الكلام مخلوقا ، وطائفة قالت هذا المسموع صوت العبد وهو مخلوق والقرآن ليس بمخلوق ، ولا يكون هذا المسموع كلام الله ، وهذا جهل ، فان المخلوق هو الصوت لا نفس الكلام الذي يسمع من المتكلم به ومن المبلغ عنه، وطائفة قالت هذا

كلام الله و كلام الله غير مخلوق، فيكون هذا الصوت غير مخلوق، وهذا جهل. فانه إذا قيل هذا كلام الله فالمشار اليه هو الكلام من حيث هو، وهو الثابت إذا سمع من الله وإذا سمع من المبلغ عنه، واذا قيل للمسموع انه كلام الله فهو كلام الله مسموعا من المبلغ عنه لامسموعا منه، فهو مسموع بواسطة صوت العبد وصوت العبد مخلوق، وأما كلام الله منه فهو غير مخلوق حيث ما تصرف، وهذه نكت قد بسط الكلام فيها في غير هذا الموضع

فصل

فان قيل: ما منشأ هذا النزاع والاشتباه والتفرق والاختلاف؟ قيل منشؤه هو الكلام الذي ذمه السلف وعابوه، وهو الكلام المشتبه المشتمل على حق وباطل، فيه مايوافق العقل والسمع، وفيه مايخالف العقل والسمع، فيأخذ هؤلاء جانب النفي المشتمل على نفي الحق والباطل، وهؤلاء جانب الاثبات المشتمل على اثبات حق وباطل، وجماعه هو الكلام المخالف للكتاب والسنة واجماع السلف. فكل كلام خالف ذلك فهو باطل، ولا يخالف ذلك الا كلام مخالف للعقل والسمع

وذلك انه لما تناظروا في مسئلة حدوث العالم وإثبات الصانع استدلت الجهمية والمعتزلة ومن وافقهم من طوائف الكلام على [1] بان مالايخلو عن الحوادث فهو حادث، ثم إن المستدلين بذلك على حدوث الاجسام قالوا ان الاجسام لاتخلو عن الحوادث وما لايخلو عن الحوادث فهو حادث، ثم تنوعت طرقهم في الادلة في المسئلة المتقدمة فتارة يثبتونها بأن الاجسام لاتخلو عن الحركة والسكون وهما حادثان، وتارة يثبتونها بان الاجسام لاتخلو عن الاجتماع والافتراق وهما حادثان، وتارة يثبتونها بان الاجسام لاتخلو عن الاكوان الاربعة: الاجتماع والافتراق والحركة والسكون،

---

١) بياض في الاصل والمعروف انهم استدلوا بماذكر على قدم الصانع واجب الوجود

وهي حادثة. وهذه طرق المعتزلة ومن وافقهم على ان الاجسام قد تخلو عن بعض أنواع الاعراض، وتارة يثبتونها بان الجسم لا يخلو من كل جنس من الاعراض عن عرض منه، ويقولون ان الاعراض يمتنع بقاؤها لان العرض لا يبقى زمانين، وهي الطريقة التي اختارها الآمدي وزيف ماسواها، وذكر أن جمهور أصحابه اعتمدوا عليها ، وقد وافقهم عليها طائفة من الفقهاء من أصحاب الائمة الاربعة كالقاضي أبي يعلى والجويني والباجي وغيرهم

وأما الهشامية والكرامية وغيرهما من الطوائف الذين لا يقولون بحدوث كل جسم يقولون ان القديم تقوم به الحوادث، فهؤلاء اذا قالوا بان ما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث كما في قول الكرامية وغيرهم موافقة للمعتزلة في هذا الاصل فانهم قالوا ان الجسم القديم لا يخلو عن الحوادث بخلاف الاجسام المحدثة

والناس متنازعون في السكون هل هو امر وجودي او عدمي ، فمن قال انه وجودي قال الجسم الذي لا يخلو عن الحركة والسكون فاذا انتفت عنه الحركة فالسكون به وجودي . وهذا قول من يحتج بتعاقب الحركة والسكون على حدوث المتصف بذلك، ومن قال انه عدمي لم يلزم من عدم الحركة عن المحل ثبوت أن السكون وجودي . فمن قال انه تقوم به الحركة او الحوادث بعد ان لم تكن مع قوله بامتناع تعاقب الحوادث كما هو في قول الكرامية وغيرهم يقولون اذا قامت به الحركة لم يعدم بقيامها سكون وجودي، بل ذلك عندهم بمنزلة قولهم مع المعتزلة والاشعرية وغيرهم فانه يفعل بعد ان لم يكن فاعلا، ولا يقولون ان عدم الفعل امر وجودي كذلك الحركة عند هؤلاء

وكان كثير من اهل الكلام يقولون ما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث، او ما لا يسبق الحوادث فهو حادث ، بناء على ان هذه مقدمة ظاهرة بان ما لا يسبق الحادث فلا بد أن يقارنه او يكون بعده، وما قارن الحوادث فهو حادث، وما كان بعده فهو حادث، وهذا

الكلام مجمل، فانه اذا اريد به ما لا يخلو عن الحوادث المعينة او ما لا يسبق الحادث المعين فهو حق بلا ريب ولا نزاع فيه. وكذلك اذا اريد بالحادث حكم ماله اول او ما كان بعد العدم ونحو ذلك. واما اذا اريد الحوادث الامور التي تكون شيئا بعد شيء لا الى اول وقيل انه ما لا يخلو عنها وما لم يخل فهو حادث لم يكن ذلك ظاهرا ولا بينا . بل هذا المقام، حار فيه كثير من الافهام، وكثر فيه النزاع والخصام. ولهذا صار المستدلون بقولهم: ما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث، يعلمون ان هذا الدليل لا يتم الا اذا اثبتوا امتناع حوادث لا اول لها ، فذكروا في ذلك طرقا قد تكلمنا عليها في غير هذا الموضع

وهذا الاصل تنازع الناس فيه على ثلاثة اقول : فقيل ما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث، وبامتناع حوادث لا اول لها مطلقا . وهذا قول المعتزلة ومن اتبعهم من الكرامية والاشعرية ومن دخل معهم من الفقهاء وغيرهم . وقيل بل يجوز دوام الحوادث مطلقا، وليس كل ما قارب حادثا بعد حادث لا الى اول يجوز ان يكون حادثا ، بل يجوز ان يكون قديما سواء كان واجبا بنفسه او بغيره. وربما عبر عنه بالعلة والمعلول والفاعلية والمفعول ونحو ذلك. وهذا قول الفلاسفة القائلين بقدم العالم والافلاك كارسطو واتباعه مثل ثامبطوس والاسكندر الافروديسي وبوملس والفارابي وابن سينا وامثالهم واما جمهور الفلاسفة المتقدمين على ارسطو فلم يكونوا يقولون بهذا وقيل بل ان كان الملتزم للحوادث ممكنا بنفسه وجب ان يكون حادثا فان كان واجبا بنفسه لم يجز ان يكن حادثا . وهذا قول أئمة اهل الملل واساطين الفلاسفة وهو قول جماهير اهل الحديث

وصاحب هذا القول يقول ما لا يخلو عن الحوادث وهو ممكن بنفسه فهو حادث، وما لا يخلو عن الحوادث وهو معلول أو مفعول او مبتدع او مصنوع فهو حادث ، لانه ان كان مفعولا ملتزما للحوادث امتنع ان يكون قديما، فان القديم المعلول لا يكون قديما الا اذا كان له موجب قديم بذاته يستلزم معلوله بحيث يكون

معه ازليا لا يتقدم عنه ، وهذا ممتنع فان ما استلزم الحوادث يمتنع ان يكون فاعله موجبا بذاته يستلزم معلوله في الازل فان الحوادث المتعاقبة شيئا بعد شيء لا يكون مجموعها في الاول ولا يكون شيء منها ازليا بل الازلي هو ذاتها واحد بعد واحد والموجب بذاته الملتزم لمعلوله في الازل لا يكون معلوله شيئا بعد شيء سواء كان صادرا عنه بواسطة او بغير واسطة فان ما كان واحداً بعد واحد يكون متعاقبا حادثا شيئا بعد شيء فيمتنع ان يكون معلولا مقاربا لعلته في الازل بخلاف ما اذا قيل ان المقارن لذلك هو الموجب بذاته الذي يفعل شيئا بعد شيء فانه على هذا لا يكون في الازل موجبا بذاته ولا علة سابقة تامة فلا يكون معه في اول شيء من المخلوقات ، لكن فاعليته للمفعولات تكون شيئا بعد شيء ، وكل مفعول يأخذ عنده وجود كمال فاعليته ، اذ المؤثر التام الملتزم لجميع شروط التأثير لا يتخلف عنه أثره اذ لو تخلف لم يكن مؤثراً تاما ، فوجود الاثر يستلزم وجود المؤثر التام ، ووجود المؤثر التام ، يستلزم وجود الاثر ، فليس في الاول مؤثر تام ، فليس مع الله شيء من مخلوقاته قديم بقدمه . والاول ليس هو حداً محدوداً ولا وقتا معينا بل كل بتقدير العقل من الغاية التي ينتهي اليها ، فالاول قبل ذلك كما هو قبل ما قدره ، فالازل لا أول له ، كما ان الابد لا آخر له . وفي الحديث الصحيح عن النبي ﷺ كان يقول « أنت الاول فليس قبلك شيء ، وأنت الآخر فليس بعدك شيء » فلو قيل انه مؤثر تام في الازل لشيء من الاشياء لزم أن يكون مقارنا له دائما ، وامتنع أن يقوم بالأثر شيء من الحوادث ، لان كل حادث يحدث لا يحدث الا إذا وجد مؤثره التام عند حدوثه ، وان كانت ذات المؤثر موجودة قبل ذلك لكن لا بد من وجود شروط التأثير عند وجود الأثر والا لزم الترجيح من غير مرجح وتخلف المعلول عن العلة التامة ووجود الممكن بدون المرجح التام وكل هذا ممتنع . وهذا مبسوط في غير هذا الموضع

فصل

واذا عرف الاصل الذي منه تفرع نزاع الناس فالذين قالوا مالا يسبق الحوادث فهو حادث، تنازعوا في كلام الله تعالى، فقال كثير من هؤلاء: الكلام لايكون إلا بمشيئة المتكلم وقدرته فيكون حادثا كغيره من الحوادث، ثم قالت طائفة والرب تعالى لايقوم به الحوادث فيكون الكلام مخلوقا في غيره، فجعلوا كلامه مخلوقا من المخلوقات، ولم يفرقوا بين قال وفعل، وقد علم ان المخلوقات لايتصف بها الخالق فلا يتصف بما يخلقه في غيره من الالوان والاصوات والروائح والحركة العلم والقدرة والسمع والبصر، فكيف يتصف بما يخلقه في غيره من الكلام، ولو جاز ذلك لكان مايخلقه من انطاق الجمادات علامة، ومن علم انه خالق كلام العباد وأفعالهم يلزمه أن يقول كل كلام في الوجود فهو كلامه كما قال بعض الاتحادية[1]

وكل كلام في الوجود كلامه سواء علينا نثره ونظامه

وهذا قول الجهمية والنجارية والضرارية وغيرهم فان هؤلاء يقولون انه خالق أفعال العباد وكلامهم مع قولهم ان كلامه مخلوق فيلزمهم هذا. وأما المعتزلة فلا يقولون ان الله تعالى خالق أفعال العباد لكن الحجة توجب القول بذلك، وقالت طائفة: بل الكلام لا بد أن يقوم بالمتكلم ويمتنع أن لايكون كلامه إلا مخلوقا في غيره، وهو متكلم بمشيئته وقدرته، فيكون كلامه حادثا بعد ان لم يكن لامتناع حوادث لا أول لها. وهذا قول الكرامية وغيرهم. وقال كثير من هؤلاء الذين يقولون بامتناع حوادث لا أول لها مطلقا الكلام لازم لذات الرب كلزوم الحياة ليس هو متعلقا بمشيئته وقدرته بل هو قديم كقدم الحياة اذ لو قلنا انه بمشيئته وقدرته لزم أن يكون حادثا وحينئذ يلزم أن يكون مخلوقا أو قائما بذاته فيلزم قيام الحوادث به وذلك مستلزم لتسلسل الحوادث لان القابل للشيء لايخلو عنه أو عن ضده، قالوا وتسلسل الحوادث ممتنع إذ التفريع على هذا الاصل

---

(١) ابن عربي

ثم ان هؤلاء لما قالوا بقدم عين الكلام تنازعوا فيه ، فقالت طائفة القديم لايكون حروفا ولا أصواتا ، لان تلك الحروف لاتكون كلاما إلا اذا كانت متعاقبة والقديم لايكون مسبوقا بغيره ، فلو كانت الميم من (بسم) قديمة مع كونها مسبوقة بالسين والباء لكان القديم مسبوقا بغيره وهذا ممتنع فيلزم أن يكون القديم هو المعنى فقط ولا يجوز تعدده ، لانه لو تعدد لكان اختصاصه بقدر دون قدر ترجيحا من غير مرجح ،وإلا كان لاينافي لزوم وجود أعداد لا نهاية لها في آن واحد . قالوا وهذا ممتنع،فيلزم أن يكون معنى واحداً هو الأمر والخبر ومعنى التوراة والانجيل والقرآن وهذا أصل قول الكلابية والاشعرية .

وقالت طائفة من أهل الكلام والحديث والفقهاء وغيرهم بل هو حروف قديمة الاعيان لم تزل ولا تزال، وهي مترتبة في ذاتها لا في وجودها كالحروف الموجودة في المصحف وليس بأصوات قديمة، ومنهم من قال بل هو أيضاً أصوات قديمة ، ولم يفرق هؤلاء بين الحروف المنطوقة التي لاتوجد إلا متعاقبة وبين الحروف المكتوبة التي توجد في وقت واحد كما يفرق بين الاصوات والمداد، فان الاصوات لاتبقى بخلاف المداد فانه جسم يبقى. فاذا كان الصوت لايبقى امتنع أن يكون الصوت المعين قديما، لان ماوجب قدمه، لزم بقاؤه وامتنع عدمه ،

والحروف المكتوبة قد يراد بها نفس الشكل القائم بالمداد وما يقدر تقدير المداد كالشكل المصنوع في حجر وورق فازالة بعض أجزائه(١)

وقد يراد بالحروف نفس المداد ، وأما الحروف المنطوقة فقد يراد بها أيضا الاصوات المقطعة المؤلفة وقد يراد بها حدود الاصوات وأطرافها كما يراد بالحروف في الجسم حده ومنتهاه فيقال حرف الرغيف وحرف الجبل ومنه قوله تعالى (ومن الناس من يعبد الله على حرف) ونحو ذلك ، وقد يراد بالحروف الحروف الخيالية وهي مايتخيل في باطن الانسان من الكلام المؤلف المنظوم قبل أن يتكلم به

وقد تنازع الناس هل يتمكن وجود حروف بدون أصوات قديمة لم تزل

---

(١) سقط من الاصل خبر المبتدا فتركنا له بياضا يضعه فيه من علمه

ولا تزال،ثم القائلون بقدم الاصوات المعينة تنازعوا في المسموع من القاري،هل سمع منه الصوت القديم ؟ قيل المسموع هو الصوت القديم ، وقيل بل المسموع هو صوتان أحدهما القديم والآخر المحدث ،فما لابد منه في وجود القرآن فهو القرآن وما زاد على ذلك فهو المحدث.وتنازعوا في القرآن هل يقال انه حال في المصحف والصدور أم لا ؟ يقال على قولين : فقيل هو ظاهر في المحدث ليس بحال فيه،وقيل بل القرآن حال في الصدور والمصاحف

فهؤلاء الخلقية والحادثية والاتحادية والاقترانية أصل قولهم إن مالا يسبق الحوادث فهو حادث مطلقا،ومن قال بهذا الاصل فانه يلزم بعض هذه الاقوال أو مايشبه ذلك،فانه إما أن يجعل كلام الله حادثا أو قديما،واذا كان حادثا إما أن يكون حادثا في غيره ، وإما أن يكون حادثا في ذاته،واذا كان قديما فاما أن يكون القديم المعني فقط أو اللفظ ، أو كلاهما ، فاذا كان القديم هو المعنى فقط لزم أن لا يكون الكلام المقروء كلام الله.ثم الكلام في ذلك المعنى قد عرف

وأما قدم اللفظ فقط فهذا لم يقل به أحد لكن من الناس من يقول ان الكلام القديم هو اللفظ،وأما معناه فليس هو داخل في مسمى الكلام . فهذا يقول الكلام القديم هو اللفظ فقط : إما الحروف المؤلفة وإما الحروف والاصوات،لكنه يقول إن معناه قديم ،

وأما الفريق الثاني الذين قالوا بجواز حوادث لا أول لها مطلقاً ، وان القديم يجوز أن يتعقب عليه الحوادث مطلقا وإن كان ممكناً لا واجبا بنفسه،فهؤلاء هم القائلون بقدم العالم كما يقولون بقدم هذه الافلاك ، وانها لم تزل ولا تزال معلولة لعلة قديمة أزلية ،لكن المنتسبون إلى الملل كابن سينا ونحوه منهم قالوا انها صادرة عن الواجب بنفسه الموجب لها بذاته

وأما ارسطو وأتباعه فانهم قالوا ان لها علة غائية تتحرك للتشبه بها فهي تحركها كما يحرك المشوق عاشقه ، ولم يثبتوا لها مبدعا قائما بذاته . وانما أثبت واجب الوجود بطريقة ابن سينا وأتباعه،وحقيقة قول هؤلاء وجود الحوادث بلا محدث أصلا ،

أما على قول من جعل الازل علة غائية للحركة فظاهر فانه لا يلزم من ذلك أن يكون هو فاعلا لها فقولهم في حركات الافلاك نظير قول القدرية في حركة الحيوان ، وكل من الطائفتين قد تناقض قولهم، فان هؤلاء يقولون بأن فعل الحيوان صادر عن غيره لكون القدرة والداعي يستلزمان وجود الفعل، والقدرة والداعي كلاهما من غير العبد ، فيقال لهم تقولون هكذا في حركة الفلك بقدرته وداعيه انه يجب أن يكونا صادرين عن غيره، وحينئذ فيكون الواجب بنفسه هو المحدث لتلك الحوادث شيئا بعد شيء ، وان كان ذلك بواسطة العقول ، وهذا القول الذي يقوله ابن سينا وأتباعه باطل أيضا لان الموجب بذاته القديم الذي يقارنه موجبه ومقتضاه يمتنع أن يصدر عنه حادث بواسطة أو بلا واسطة ،فان صدور الحوادث عن العلة التامة الازلية ممتنع بذاته ،

وإذا قالوا بحركة توسطه قيل لهم فالكلام انما هو في حدوث الحركة ، فان الحركة الحادثة شيئا بعد شيء يمتنع ان يكون المقتضي لها علة تامة أزلية مستلزمة لمعلولها ، فان ذلك جمع بين النقيضين . اذ القول بمقارنة المعلول لعلته في الازل ووجوده معها يناقض أن يتخلف المعلول أو شيء من المعلول عن الازل ، فصار حقيقة قولهم ان الحوادث العلوية والسفلية لا محدث بها

وهؤلاء يقولون كلام الله ما يفيض على النفوس الصافية كما ان ملائكة الله عندهم ما يتشكل فيها من الصور النورانية، فلا يثبتون له كلاما خارجا عما في نفوس البشر، ولا ملائكة خارجة عما في نفوسهم غير العقول العشرة والنفوس الفلكية التسعة، مع ان أكثرهم يقولون انها أعراض

وقد تبين في غير هذا الموضع أن ما يثبتونه من المجردات العقلية الحوادث(١) التي هي العقول والنفوس والمواد والصور انما وجودها في الاذهان لا في الاعيان

وأما الصنف الثالث الذين فرقوا بين الواجب والممكن والخالق والمخلوق والغني الذي لا يفتقر إلى غيره ، والفقير الذي لا قوام له إلا بالغير، فقالوا: كل ما قارن

(١) لعله الحوادث فليتأمل

الحوادث من الممكنات فهو حادث كائن بعد ان لم يكن ، وهو مخلوق مصنوع مربوب، وانه يمتنع أن يكون فيما هو فقير ممكن مربوب شيئا قديما فضلا عن أن يقارن حوادث لا أول لها ، ولهذا كانت حركة الفلك دليلا على حدوثه كما تقدم التنبيه عليه . وأما الرب تعالى إذا قيل لم يزل متكلما إذا شاء ولم يزل فاعلا ، لم يكن دوام كونه متكلما بمشيئته وقدرته ودوام كونه فاعلا بمشيئته وقدرته ممتنعا ، بل هذا هو الواجب لان الكلام صفة كمال لا نقص فيه ، فالرب تعالى أحق أن يتصف به من كل موصوف بالكلام، إذ كل كمال يثبت للمخلوق فالحق أولى به ، لان القديم الواجب الخالق أحق بالكمال من المحدث الممكن المخلوق ، ولان كل كمال يثبت للمخلوق فانما هو من الخالق وما جاز اتصافه به من الكمال وجب له ، فانه لو لم يجب له لكان اما ممتنعا وهو محال بخلاف الفرض، واما ممكنا يتوقف ثبوته له على غيره والرب تعالى لا يحتاج في ثبوت كماله الى غيره ، فان معطي الكمال أحق بالكمال، فيلزم أن يكون غيره أكمل منه او كان غيره معطيا له الكمال وهذا ممتنع ، بل هو بنفسه المقدسة مستحق لصفات الكمال فلا يتوقف ثبوت كونه متكلما على غيره، فيجب ثبوت كونه متكلما وان ذلك لم يزل ولا يزال، والتكلم بمشيئته وقدرته أكمل ممن يكون الكلام لازما له بدون قدرته ومشيئته ، والذي لم يزل يتكلم اذا شاء، أكمل ممن صار الكلام يمكنه بعد ان لم يكن الكلام ممكنا له (١)

وحينئذ فكلامه قديم مع انه يتكلم بمشيئته وقدرته ، وان قيل انه ينادي ويتكلم بصوت لا يلزم من ذلك قدم صوت معين وإذا كان قد تكلم بالقرآن والتوراة والانجيل بمشيئته وقدرته لم يمتنع أن يتكلم بالباء قبل السين ، وان كان نوع الباء والسين قديما لم يستلزم أن تكون الباء المعينة والسين المعينة قديمة، لما علم من القرآن من الفرق بين النوع والعين، وهذا الفرق ثابت في الكلام والارادة والسمع والبصر وغير ذلك من الصفات وبه تحل هذه الاشكالات الواردة على وحدة هذه الصفات وتعددها وقدمها وحدوثها

(١) هذا المذهب هو الذي قرره شيخنا في رسالة التوحيد بأوضح بيان عند اثبات الصفات ولكنه لم يفصل فروعه الآتية

وكذلك تزول به الاشكالات الواردة في أفعال الرب وقدمها وحدوثها وحدوث العالم

واذا قيل ان حروف المعجم قديمة بمعنى النوع كان ذلك ممكنا بخلاف ما اذا قيل اللفظ الذي نطق به زيد وعمرو قديم ، فان هذا مكابرة للحس، والمتكلم يعلم ان حروف المعجم كانت موجودة قبل وجودها بنوعها، وأما نفس الصوت المعين الذي قام به التقطيع والتأليف المعين فيعلم ان عينه لم تكن موجودة قبله

والمنقول عن الامام احمد وغيره من أئمة السنة مطابق لهذا القول ولهذا أنكروا على من زعم ان حرفا من حروف المعجم مخلوق ، وأنكروا على من قال لما خلق الله الحروف سجدت له الا الألف فقالت لا أسجد حتى أؤمر ، مع ان هذه الحكاية نقلت لاحمد عن سري السقطي وهو نقلها عن بكر بن خنيس العابد ، ولم يكن قصد اولئك الشيوخ بها الا إثبات ان العبد الذي يتوقف فعله على الأمر والشرع هو أكمل من العبد الذي يعبد الله بغير شرع، فان كثيرا من العباد يعبدون الله بما تحبه قلوبهم وإن لم يكونوا مأمورين به ، فقصد أولئك الشيوخ ان من عبد الله بالأمر ولم يفعل شيئا حتى يؤمر به، فهو أفضل ممن عبده بما لم يؤمر به ، وذكروا هذه الحكاية الاسرائيلية شاهدة لذلك ، مع ان هذه لا إسناد لها ولا يثبت بها حكم . ولكن الاسرائيليات اذا ذكرت على طريق الاستشهاد بها لما عرف صحته لم يكن بذكرها بأس

وقصدوا بذلك الحروف المكتوبة لان الألف منتصبة وغيرها ليس كذلك مع ان هذا أمر اصطلاحي وخط غير العرب لايماثل خط العرب، ولم يكن قصد أولئك الاشياخ ان نفس الحروف المنطوقة التي هي مباني اسماء الله الحسنى وكتبه المنزلة مخلوقة ثابتة عن الله ، بل هذا شيء لعله لم يخطر بقلوبهم والحروف المنطوقة لايقال فيها بأنها منتصبة ولا ساجدة، فمن احتج بهذا من قولهم على انهم يقولون ان الله لم يتكلم بالقرآن العربي ولا بالتوراة العبرية فقد قال عنهم ما لم يقولوه .

وأما الامام أحمد فانه أنكر اطلاق هذا القول وما يفهم منه عند الاطلاق وهو

ان نفس حروف المعجم مخلوقة كما نقل عنه انه قال: ومن زعم ان حرفا من حروف المعجم مخلوق فقد سلك طريقا الى البدعة ، قال ان ذلك مخلوق، وقد قال ان القرآن مخلوق ولا ريب انه من جعل نوع الحروف مخلوقا ثابتا عن الله كائنا بعد إن لم يكن لزم [عنده] أن يكون كلام الله العربي والعبري ونحوهما مخلوقا، وامتنع أن يكون الله متكلما بكلامه الذي أنزله الى عباده ، فلا يكون شيء من ذلك كلامه

فطريقة الامام أحمد وغيره من السلف مطابقة للقول الثابت الموافق لصريح المعقول وصحيح المنقول

وقال الشيخ الامام أبو الحسن محمد بن عبد الملك الكرخي في كتابه الذي سماه (الفصول في الاصول) سمعت الامام أبا منصور محمد بن أحمد يقول سمعت الشيخ أبا حامد الاسفرايني يقول. مذهبي ومذهب الشافعي وفقهاء الامصار ان القرآن كلام الله غير مخلوق، ومن قال مخلوق فهو كافر، والقرآن حمله جبريل عليه السلام مسموعا من الله تعالى ، والنبي صلى الله عليه وسلم سمعه من جبريل والصحابة سمعوه من النبي ﷺ وهو الذي نتلوه بألسنتنا وفيما بين الدفتين، وما في صدورنا مسموعا ومكتوبا ومحفوظا ، وكل حرف منه كالباء والتاء كله كلام الله غير مخلوق، ومن قال مخلوقا فهو كافر عليه لعائن الله والملائكة والناس اجمعين

والكلام في هذه الامور مبسوط في غير هذا الموضع وذكر ما يتعلق بهذا الباب من الكلام في سائر الصفات كالعلم والقدرة والارادة والسمع والبصر والكلام في تعدد الصفات وايجادها وقدمها وحدوثها ، او قدم النوع دون الاعيان، او اثبات صفة كلية، فان عمومها متأولة بالاعيان مع تجدد كل معين من الاعيان أو غير ذلك مما قيل في هذا الباب فان هذه امور مشكلة ومحارات للعقول ولهذا اضطرب فيها طوائف من الناس ونظارهم والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم والله سبحانه أعلم اه

ذكر

ما لخصه الامام شيخ الإسلام رحمه الله تعالى أيضا في كتابه

(منهاج السنة في مسئلة الكلام: ص٢٢١ ج١)

هذه مسئلة كلام الله تعالى. الناس فيها مضطربون، قد بلغوا فيها الى سبعة أقوال:

(أحدها) قول من يقول: إن كلام الله مايفيض على النفوس من المعاني التي تفيض، اما من العقل الفعال عند بعضهم، واما من غيره. وهذا قول الصائبة والمتفلسفة الموافقين لهم كابن سينا وأمثاله، ومن دخل مع هؤلاء من متصوفة الفلاسفة ومتكلميهم، كأصحاب وحدة الوجود. وفي كلام صاحب الكتب (المضنون بها على غير أهلها) (١) ورسالة (مشكاة الانوار) وأمثاله ما قد يشار به الى هذا. وهو في غير ذلك من كتبه يقول ضد هذا، لكن كلامه يوافق هؤلاء تارة وتارة يخالفه. وآخر أمره استقر على مخالفتهم ومطابقة الاحاديث النبوية

(وثانيها) قول من يقول: بأنه معنى واحد قديم قائم بذات الله، هو الامر والنهي والخبر والاستخبار، إن عبر عنه بالعربية كان قرآنا، وان عبر عنه بالعبرانية كان توراة. وهذا قول ابن كلاب ومن وافقه كالاشعري وغيره

(ورابعها) (٢) قول من يقول: انه حروف وأصوات أزلية مجتمعة في الازل، وهذا قول طائفة من أهل الكلام وأهل الحديث، ذكره الاشعري في (المقالات) (٣) عن طائفة. وهو الذي يذكر عن السالمية ونحوهم. وهؤلاء

(١) هو ابو حامد الغزالي ولا نعرف له الا كتابا واحدا بهذا الاسم وماذكر من الاشارات ليس فيها نص يدل على اعتقاده هذا المذهب واما ابن سينا فقوله في حكاية مذهب الفلاسفة وهو يثبت الملائكة (٢) سقط الثالث من الاصل

(٣) كتاب طبعه بعض المستشرقين من الالمان حديثا في الآستانة

قال طائفة منهم : ان تلك الاصوات القديمة هي الصوت المسموع من النار . اوهي بعض الصوت المسموع من النار (١) . وأما جمهورهم مع جمهور العقلاء فأنكروا ذلك . وقالوا هذا مخالفة لضرورة العقل

(وخامسها وسادسها) قول من يقول : انه حروف وأصوات ، لكن تكلم بعد أن لم يكن متكلما ، وكلامه حادث في ذاته كما أن فعله حادث في ذاته، بعد ان لم يكن متكلما ولا فاعلا ، وهذا قول الكرامية وغيرهم . وهو قول هشام بن الحكم وأمثاله من الشيعة

(وسابعها) قول من يقول : انه لم يزل متكلما إذا شاء بكلام يقوم به، وهو متكلم بصوت يسمع، وأن نوع الكلام قديم ، وان لم يجعل نفس الصوت المعين قديما . وهذا هو المأثور عن أئمة الحديث والسنة

وبالجملة أهل السنة والجماعة ـ أهل الحديث ومن انتسب إلى السنة والجماعة كالكلابية والكرامية والاشعرية والسالمية ـ يقولون ان الكلام غير مخلوق، وهذا هو المتواتر عن السلف والأئمة من أهل البيت وغير أهل البيت ، ولكن تنازعوا بعد ذلك على الاقوال الخمسة المتأخرة

أما القولان الاولان فالاول قول الفلاسفة الدهرية القائلين بقدم العالم والصابئة المتفلسفة ونحوهم، والثاني قول الجهمية من المعتزلة ومن وافقهم كالنجارية والضرارية

وأما الشيعة فمتنازعون في هذه المسئلة . وقد حكينا النزاع عنهم فيما تقدم (٢) وقدماؤهم كانوا يقولون القرآن غير مخلوق كما يقوله أهل السنة والحديث، وهذا هو المعروف عند أهل البيت كعلي بن أبي طالب وغيره مثل أبي جعفر الباقر وجعفر الصادق وغيرهم، ولكن الامامية تخالف أهل البيت في عامة اصولهم فليس من أئمة أهل البيت مثل علي بن الحسين وابي جعفر الباقر وابنه جعفر بن محمد

(١) أي في خطاب الله لموسى (٢) اي من كتاب منهاج السنة المنقول عنه هذا

من كان ينكر الرؤية، ولا يقول بخلق القرآن ولا ينكر القدر ولا يقول بالنص على علي(١) ولا بعصمة الائمة الاثنى عشر، ولا يسب ابا بكر وعمر، والمنقولات الثابتة المتواترة عن هؤلاء معروفة موجودة، وكانت مما يعتمد عليه أهل السنة. وشيوخ الرافضة معترفون بان هذا الاعتقاد في التوحيد والصفات والقدر لم يتلقوه لا عن كتاب ولا سنة ولا عن ائمة اهل البيت وانما يزعمون ان العقل دلهم عليه كما يقول ذلك المعتزلة وانما يزعمون انهم تلقوا عن الائمة الشرائع، وقولهم في الشرائع غالبه موافق لمذهب اهل السنة، ولهم مفردات شنيعة لم يوافقهم عليها احد. ولهم مفردات عن المذاهب الاربعة قد قال بها غيرهم من السلف واهل الظاهر وفقهاء المعتزلة وغير هؤلاء، فهذه ونحوها من مسائل الاجتهاد التي يهون الامر فيها، بخلاف الشاذ الذي يعرف انه لا أصل له لا في كتاب الله ولا سنة رسوله ولا سبقهم اليه احد.

واذا عرفت المذاهب فيقال لهذا [أي ابن المطهر الذي رد عليه ابن تيمية في هذا البحث] قولك « ان أمره ونهيه واخباره حادث لاستحالة أمر المعدوم ونهيه واخباره، أتريد به انه حادث في ذاته، ام حادث منفصل عنه؟ والاول قول ائمة الشيعة المتقدمة والجهمية والمرجئة والكرامية، مع كثير من أهل الحديث وغيرهم. ثم اذا قيل حادث، اهو حادث النوع، فيكون الرب قد صار متكلما بعد ان يكن متكلما، او حادث الافراد وانه لم يزل متكلما اذا شاء؟ والكلام الذي كلم به موسى هو حادث، وان كان نوع كلامه قديما لم يزل؟ فهذه ثلاثة انواع تحت قولك، وقد علم انك اردت النوع الاول وهو قول الذين جمعوا بين التشيع والاعتزال، فقالوا: انه مخلوق خلقه الله منفصلا عنه، فيقال لك: اذا كان الله قد خلقه منفصلا عنه لم يكن كلامه، فان الكلام والقدرة والعلم وسائر الصفات انما يتصف بها من قامت به لا من خلقها وفعلها في غيره، ولهذا اذا خلق الله حركة

(١) أي على إمامته

وعلما وقدرة في جسم كان ذلك الجسم هو المتحرك العالم القادر بتلك الصفات ولم تكن تلك صفات الله بل مخلوقات له، ولو كان متصفا بمخلوقاته المنفصلة عنه لكان اذا أنطق الجامدات - كما قال (ياجبال اوبي معه والطير) ، وكما قال : (يوم تشهد عليهم ألسنتهم وايديهم وارجلهم بما كانوا يعملون * وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء) وكما قال (اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد ارجلهم بما كانو يكسبون) ومثل تسليم الحجر على النبي ﷺ وتسبيح الحصى بيده، وتسبيح الطعام وهم يأكلونه، فاذا كان كلام الله لا يكون الا ما خلقه في غيره وجب ان يكون هذا كله كلام الله فانه خلقه في غيره ، واذا تكلمت الايدي فينبغي ان يكون ذاك كلام الله كما يقولون انه خلق كلاما في الشجرة كلم الله به موسى بن عمران

وأيضا فاذا كان الدليل قد قام على ان الله تعالى خالق أفعال العباد واقوالهم وهو المنطق لكل ناطق وجب ان يكون كل كلام في الوجود كلامه ، وهذا ما قالته الحلولية (١) من الجهمية كصاحب الفصوص ابن عربي قال

وكل كلام في الوجود كلامه سواء علينا نثره ونظامه

وحينئذ فيكون قول فرعون (انا ربكم الاعلى) كلام الله كما ان الكلام المخلوق في الشجرة (انني انا الله لا اله الا انا) كلام الله ،

وأيضا فالرسل الذين خاطبوا الناس وأخبروهم ان الله قال، ونادى، وناجى، ويقول، لم يفهموهم ان هذه مخلوقات منفصلة عنه بل الذي افهموهم اياه ان الله نفسه الذي تكلم، والكلام قائم به لا بغيره ، ولهذا عاب الله من يعبد الها لا يتكلم فقال :

---

(١) لعله سقط من هنا لفظ الاتحادية الذي يطلقه عليهم دائما في كتبه فابن عربي وابن الفارض وأمثالهم يقولون باتحاد الخالق بالخلق وان هذا عين هذا لا أنه غيره وحال فيه وانه مائم غيره وهذا مفصل في رده عليهم من هذا المجموع

(افلا يرون ان لا يرجع اليهم قولا ولا يملك لهم ضرا ولا نفعا) وقال (الم يروا انه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا) ولا يحمد شيء بانه متكلم ويذم بانه غير متكلم الا اذا كان الكلام قائما به . وبالجملة لا يعرف في لغة ولا عقل قائل متكلم الا من يقوم به القول والكلام ، كما لا يعقل حي الا من تقوم به الحياة ، ولا عالم الا من يقوم به العلم ، ولا متحرك الا من تقوم به الحركة . ولا فاعل الا من يقوم به الفعل ، فمن قال : ان المتكلم هو الذي يكون كلامه منفصلا عنه . قال ما لا يعقل ، ولم يفهم الرسل الناس هذا ، بل كل من سمع ما بلغته الرسل عن الله يعلم بالضرورة ان الرسل لم ترد بكلام الله ما هو منفصل بل ما هو متصف به

قالوا : المتكلم من فعل الكلام والله تعالى لما احدث الكلام في غيره صار متكلما ، فيقال لهم : المتأخرين المختلفين هنا ثلاثة اقوال ، قيل : المتكلم من فعل الكلام ولو كان منفصلا عنه ، وهذا انما قاله هؤلاء ، وقيل المتكلم من قام به الكلام ولو لم يكن بفعله ولا هو بمشيئته ولا قدرته ، وهذا قول الكلابية والسالمية ومن وافقهم . وقيل المتكلم من تكلم بفعله ومشيئته وقدرته فقام به الكلام ، وهذا قول اكثر أهل الحديث وطوائف من الشيعة والمرجئة والكرامية وغيرهم ، فاولئك يقولون هو صفة فعل منفصل عن الموصوف لا صفة ذات ، والصنف الثاني يقولون : صفة ذات لازمة للموصوف لا تتعلق بمشيئته ولا قدرته . والآخرون يقولون : هو صفة ذات وصفة فعل ، وهو قائم به يتعلق بمشيئته وقدرته

اذا كان كذلك فقولكم انه صفة فعل ينازعكم فيه طائفة ، واذا لم ينازعوا في هذا فيقال : هب انه صفة فعل لكن صفة فعل منفصل عن القائل الفاعل او قائم به ؟ اما الاول فهو قولكم الفاسد ، وكيف تكون الصفة غير قائمة بالموصوف ، او القول غير قائم بالقائل ؟

فان قلتم : هذا بناء على أن فعل الله لا يقوم به لانه لو قام به لقامت به

الحوادث؟ قيل: والجمهور ينازعونكم في هذا الاصل ويقولون: كيف يعقل فعل لا يقوم بفاعل(١) ونحن نعقل الفرق بين نفس التكوين وبين المخلوق المكون؟ وهذا قول جمهور الناس كأصحاب ابي حنيفة وهو الذي حكاه البغوي وغيره من اصحاب الشافعي عن أهل السنة، وهو قول ائمة اصحاب احمد كابي اسحاق بن شاقلا وابي بكر بن عبد العزيز وابي عبد الله بن حامد والقاضي ابي يعلي في آخر قوليه وقول أئمة الصوفية وأئمة اصحاب الحديث. وحكاه البخاري في كتاب افعال العباد عن العلماء مطلقا. وهو قول طوائف من المرجئة والشمية والكرامية

ثم القائلون بقيام فعله به منهم من يقول فعله قديم والمفعول متأخر، كما ان ارادته قديمة والمراد متأخر، كما يقول ذلك من يقوله من اصحاب ابي حنيفة واحمد وغيرهم، ومنهم من يقول بل هو حادث النوع كما يقول ذلك من يقوله من الشيعة والمرجئة والكرامية. ومنهم من يقول بمشيئته وقدرته شيئا فشيئا لكنه لم يزل متصفا به فهو حادث الآحاد قديم النوع، كما يقول ذلك من يقوله من أئمة أصحاب الحديث وغيرهم من أصحاب الشافعي واحمد وسائر الطوائف

واذا كان الجمهور ينازعونكم فتقدر المنازعة بينكم وبين أئمتكم من الشيعة ومن وافقهم، فان هؤلاء يوافقونكم على أنه حادث لكن يقولون هو قائم بذات الله فيقولون قد جمعنا حجتنا وحجتكم فقلنا العدم لا يؤمر ولا ينهى، وقلنا الكلام لابد أن يقوم بالمتكلم

فان قلتم لنا: فقد قلتم بقيام الحوادث بالرب. قلنا لكم: نعم، وهذا قولنا الذي دل عليه الشرع والعقل، ومن لم يقل ان الباري يتكلم ويريد ويحب ويبغض ويرضى ويأتي ويجيء، فقد ناقض كتاب الله. ومن قال انه لم يزل ينادي موسى

(١) لعل الاصل بفاعله فان المردود عليهم يقولون الكلام فعله ولكنه قام بغيره فيجعلون الفعل عين المفعول كما شرحه في مواضع تقدمت

في الازل فقد خالف كلام الله مع مكابرة العقل، لان الله تعالى يقول (فلما جاءها نودي) وقال (انما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون) فأتى بالحروف الدالة على الاستقبال

قالوا: وبالجملة فكل مايحتج به المعتزلة والشيعة مما يدل على أن كلامه متعلق بمشيئته وقدرته وانه يتكلم اذا شاء وانه يتكلم شيئا بعد شيء، فنحن نقول به، ومايقول به من يقول ان كلام الله قائم بذاته وانه صفة له والصفة لاتقوم إلا بالموصوف فنحن نقول به، وقد أخذنا بما في قول كل من الطائفتين من الصواب وعدلنا عما يرده الشرع والعقل من قول كل منهما ، فاذا قالوا لنا : فهذا يلزم منه أن تكون الحوادث قامت به، قلنا: ومن أنكر هذا قبلكم من السلف والائمة ؟ ونصوص القرآن والسنة تتضمن ذلك مع صريح العقل ، وهو قول لازم لجميع الطوائف، ومن أنكره فلم يعرف لوازمه وملزوماته،

ولفظ الحوادث مجمل، فقد يراد به الاعراض والنقائص والله منزه عن ذلك ولكن يقوم به ماشاء، ويقدر عليه من كلامه وأفعاله ونحو ذلك مما دل عليه الكتاب والسنة.

ونحن نقول لمن أنكر قيام ذلك به: أتنكره لانكارك قيام الصفة به كانكار المعتزلة، أم تنكره لان من قامت به الحوادث لم يخل منها ونحو ذلك مما يقوله الكلابية ؟

فاذا قال بالاول كان الكلام في أصل الصفات وفي كون الكلام قائما بالمتكلم لامنفصلا منه كافيا في هذا الباب ،

وان كان الثاني قلنا لهؤلاء : أتجوزون حدوث الحوادث بلا سبب حادث أم لا؟ فان جوزتم ذلك وهو قولكم لزم أن يفعل الحوادث مالم يكن فاعلا لها ولا لضدها ، فاذا جاز هذا فلم لايجوز أن تقوم الحوادث بمن لم تكن قائمة به هي ولا ضدها ؟ ومعلوم أن الفعل أعظم من القبول فاذا جاز فعلها بلا سبب حادث فكذلك قيامها بالمحل ،

فان قلتم : القابل للشيء لايخلو عنه وعن ضده لزم تسلسل الحوادث ، وتسلسل

الحوادث إن كان ممكنا كان القول الصحيح قول أهل الحديث الذين يقولون لم يزل متكلما إذا شاء، كما قاله ابن المبارك واحمد بن حنبل وغيرهما من أئمة السنة، وان لم يكن جائزاً كان قولنا هو الصحيح، فقولكم انتم باطل على كلا التقديرين

فان قلتم لنا: أنتم توافقوننا على امتناع تسلسل الحوادث وهو حجتنا وحجتكم على قدم العالم، قلنا لكم: موافقتنا لكم حجة جدلية، وإذا كنا قد قلنا بامتناع تسلسل الحوادث موافقة لكم وقلنا بان الفاعل للشيء قد يخلو عنه وعن ضده مخالفة لكم، وأنتم تقولون ان قيل بالحوادث لزم تسلسلها وأنتم لا تقولون بذلك، قلنا: ان صحت هاتان المقدمتان ونحن لا نقول بموجبهما لزم خطؤنا إما في هذه واما في هذه، وليس خطؤنا فيما سلمناه لكم باولى من خطئنا فيما خالفناكم فيه. فقد يكون خطؤنا في منع تسلسل الحوادث لا في قولنا ان القابل للشيء يخلو عنه وعن ضده، فلا يكون خطؤنا في إحدى المسئلتين دليلا على جوابكم في الاخرى التي خالفناكم فيها، أكثر ما في هذا الباب أن نكون متناقضين والتناقض شامل لنا ولكم ولأكثر من تكلم في هذه المسئلة ونظائرها، واذا كنا متناقضين فرجوعنا الى قول نوافق فيه العقل والنقل أولى من رجوعنا الى قول نخالف فيه العقل والنقل،

فنقول: ان كون المتكلم يتكلم بكلام لا يتعلق بمشيئته وقدرته، اومنفصل عنه لا يقوم به، مخالف للعقل والنقل، بخلاف تكلمه بكلام يتعلق بمشيئته وقدرته قائم به فان هذا لا يخالف لا عقلا ولا نقلا، لكن قد نكون ممن نقله بلوازمه فنكون متناقضين، واذا كنا متناقضين كان الواجب أن نرجع عن القول الذي أخطانا فيه لنوافق ما أصبنا فيه، لا نرجع عن الصواب ليطرد الخطأ، فنحن نرجع عن تلك المناقضات ونقول بقول أهل الحديث

فان قلتم: اثبات حادث بعد حادث لا الى أول قول الفلاسفة الدهرية؟ قلنا: بل قولكم ان الرب تعالى لم يزل معطلا لا يمكنه أن يتكلم بشيء ولا أن يفعل شيئا

ثم صار يمكنه أن يتكلم وأن يفعل بلا حدوث سبب يقتضي ذلك قول مخالف لصريح العقل ولما عليه المسلمون، فان المسلمين يعلمون أن الله لم يزل قادرا، واثبات القدرة مع كون المقدور ممتنعا غير ممكن، لانه جمع بين النقيضين، فكان فيما عليه المسلمون من انه لم يزل قادراً مايبين انه لم يزل قادرا على الفعل والكلام بقدرته ومشيئته، والقول بدوام كونه متكلما ودوام كونه فاعلا بمشيئته منقول عن السلف وأئمة المسلمين من أهل البيت وغيرهم كابن المبارك واحمد بن حنبل والبخاري وعثمان ابن سعيد الدارمي وغيرهم، وهو منقول عن جعفر الصادق بن محمد في الافعال المتعدية فضلا عن اللازمة وهو دوام احسانه ،

والفلاسفة الدهرية قالوا بقدم العالم وان الحوادث فيه لا الى أول وان الباري موجب بذاته للعالم ليس فاعلا بمشيئته وقدرته ولا يتصرف بنفسه، وأنتم وافقتموهم على طائفة من باطلهم، حيث قلتم انه لا يتصرف بنفسه ولا يقوم به أمر يختاره ويقدر عليه، وجعلتموه كالجماد الذي لا تصرف له ولا فعل، وهم جعلوه كالجماد الذي لزمه وعلق به مالا يمكنه دفعه عنه ولا قدرة له على التصرف فيه فوافقتموهم على بعض باطلهم

ونحن قلنا بما يوافق العقل والنقل، من كمال قدرته ومشيئته وانه قادر على الفعل بنفسه كيف شاء، وقلنا انه لم يزل موصوفا بصفات الكمال متكلما ذاتا، فلا نقول ان كلامه مخلوق منفصل عنه، فان حقيقة هذا القول انه لا يتكلم ، ولا نقول انه شيء واحد أمر ونهي وخبر، وان معنى التوراة والانجيل واحد، وان الامر والنهي صفة لشيء واحد، فان هذا مكابرة للعقل ، ولا نقول انه اصوات متقطعة متضادة ازلية فان الاصوات لا تبقى زمانين

وايضا فلو قلنا بهذا القول والذي قبله لزم ان يكون تكليم الله للملائكة ولموسى ولخلقه يوم القيامة ليس الا مجرد خلق الادراك لهم لما كان ازليا لم يزل ، ومعلوم ان النصوص دلت على ضد ذلك ، ولا نقول انه صار متكلما بعد ان لم

يكن متكلما، فانه وصف له بالكمال بعد النقص وانه صار محلا للحوادث التي كمل بها بعد نقصه، ثم حدوث ذلك الكمال لا بد له من سبب . والقول في الثاني كالقول في الاول، ففيه تجدد جلاله ودوام افعاله وبهذا يمكن ان يكون العالم وكل ما فيه مخلوقا له حادثا بعد ان لم يكن، لانه يكون بسبب الحدوث وهو ماقام بذاته من كلماته وافعاله وغير ذلك، فيعقل سبب حدوث الحوادث، ومع هذا يمتنع ان يقال بقدم شيء من العالم لانه لو كان قديما لكان مبدعه موجبا بذاته يلزمه موجبه ومقتضاه، فاذا كان الخالق فاعلا بفعل يقوم بنفسه بمشيئته واختياره امتنع ان يكون موجبا بذاته لشيء من الاشياء، فامتنع قدم شيء من العالم، واذا امتنع من الفاعل المختار ان يفعل شيأ منفصلا عنه مقارنا له مع انه لا يقوم به فعل اختياري فلأن يمتنع ذلك اذا قام به فعل اختياري بطريق الاولى والاحرى، لانه على هذا التقدير الاول يكفي في نفس المشيئة والفعل الاختياري والقدرة، ومعلوم ان ما يتوقف على المشيئة والفعل الاختياري القائم به ان يكون اولى بالحدوث والتأخر مما لم يتوقف الاعلى بعض ذلك

والكلام على هذه الامور مبسوط في غير هذا الموضع

واكثر الناس لا يعلمون كثيرا من هذه الاقوال ولذلك كثر بينهم القيل والقال وما ذكرناه اشارة الى مجامع المذاهب انتهى



فصل آخر

فيما قاله في مسألة اللفظ كما في كتابه (موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول [١]) وهذا نصه :

لما كان السلف والائمة متفقين على أن القرآن كلام الله غير مخلوق، وقد علم المسلمون ان القرآن بلغه جبريل عن الله الى محمد وبلغه محمد الى الخلق، وان الكلام اذا بلغه المبلغ عن قائله لم يخرج عن كونه كلام المبلغ عنه، بل هو كلام لمن قاله مبتدئا، لا كلام من بلغه عنه مؤديا. فالنبي ﷺ إذا قال «انما الاعمال بالنيات وانما لكل امرىء ما نوى» وبلغ هذا الحديث عنه واحد بعد واحد حتى وصل الينا كان من المعلوم انا اذا سمعناه من المحدث به انما سمعنا كلام رسول الله ﷺ الذي تكلم به بلفظه ومعناه، وانما سمعناه عن المبلغ عنه بفعله وصوته، ونفس الصوت الذي تكلم به النبي ﷺ لم نسمعه، وانما سمعنا صوت المحدث عنه والكلام كلام رسول الله ﷺ لا كلام المحدث، فمن قال ان هذا الكلام ليس كلام رسول الله ﷺ كان مفتريا، وكذلك من قال ان هذا لم يتكلم به رسول الله ﷺ وانما أحدثه في غيره أو ان النبي ﷺ لم يتكلم بلفظه وحروفه بل كان ساكتا اوعاجزاً عن التكلم بذلك فعلم غيره ما في نفسه فنظم هذه الالفاظ ليعبر عما في نفس النبي ﷺ ونحو هذا الكلام ـ فمن قال هذا كان مفتريا، ومن قال ان هذا الصوت المسموع صوت النبي ﷺ كان مفتريا، فاذا كان هذا معقولا في كلام المخلوق فكلام الخالق أولى باثبات ما يستحقه من صفات الكمال وتنزيه الله أن تكون صفاته وأفعاله هي صفات العباد وأفعالهم او مثل صفات العباد وأفعالهم

فالسلف والأئمة كانوا يعلمون أن هذا القرآن المنزل المسموع من القارئين كلام الله كما قال تعالى (وان أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله)

---

(١) (ص ١٥٣ ج ١ — هامش منهاج السنة)

ليس هو كلاما لغيره لا لفظه ولا معناه، ولكن بلغه عن الله جبريل وبلغه محمد عن جبريل ، ولهذا أضافه الله الى كل من الرسولين ، لانه بلغه وأداه لا لانه أحدثه لا لفظه ولا معناه ،اذ لو كان أحدهما هو الذي أحدث ذلك لم يصح اضافة الاحداث الى الآخر فقال تعالى (انه لقول رسول كريم ،وماهو بقول شاعر قليلا ماتؤمنون، ولا بقول كاهن قليلا ماتذكرون ، تنزيل من رب العالمين) فهذا محمد ﷺ . وقال تعالى (انه لقول رسول كريم ، ذي قوة عند ذي العرش مكين ، مطاع ثم أمين) فهذا جبريل عليه السلام .وقد توعد تعالى من قال (ان هذا الا قول البشر)

فمن قال ان هذا القرآن قول البشر فقد كفر، وقال بقول الوحيد الذي أوعده الله سقر ، ومن قال ان شيئا منه قول البشر فقد قال ببعض قوله،ومن قال انه ليس بقول رسول كريم وانما هو قول شاعر او مجنون او مفتر او قال هو قول شيطان نزل به عليه ونحو ذلك فهذا أيضا كافر ملعون ،

وقد علم المسلمون الفرق بين أن يسمع كلام المتكلم منه او من المبلغ عنه ، وان موسى سمع كلام الله من الله بلا واسطة،وانا نحن انما نسمع كلام الله من المبلغين عنه ، وان كان الفرق ثابتا بين من سمع كلام النبي ﷺ منه ومن سمعه من الصاحب المبلغ عنه فالفرق هنا اولى ، لان أفعال المخلوق وصفاته أشبه بافعال المخلوق وصفاته،من أفعاله وصفاته بافعال الله وصفاته

ولما كان الجهمية يقولون ان الله لم يتكلم في الحقيقة بل خلق كلاما في غيره ومن أطلق منهم ان الله تكلم حقيقة فهذا مراده .فالنزاع بينهم لفظي،كان من المعلوم ان القائل اذا قال هذا القرآن مخلوق كان مفهوم كلامه ان الله لم يتكلم بهذا القرآن،وانه هو ليس بكلامه بل خلقه في غيره، واذا فسر مراده باني أردت أن حركات العبد وصوته والمداد مخلوق كان هذا المعنى وان كان صحيحا ليس هو مفهوم كلامه ولا معنى قوله . فان المسلمين إذا قالوا هذا القرآن كلام الله،لم

يريدوا بذلك ان أصوات القائلين وحركاتهم قائمة بذات الله ، كما انهم اذا قالوا هذا الحديث حديث رسول الله ﷺ لم يريدوا بذلك أن حركات المحدث وصوته قامت بذات رسول الله ﷺ ، بل وكذلك اذا قالوا في انشاد المنشد «ألا كل شيء ماخلا الله باطل» هذا شعر لبيد وكلام لبيد، لم يريدوا بذلك ان صوت المنشد هو صوت لبيد بل أرادوا أن هذا القول المؤلف لفظه ومعناه هو للبيد وهذا منشد له ،

فمن قال : ان هذا القرآن مخلوق او ان القرآن المنزل مخلوق او نحو هذه العبارات كان بمنزلة من قال ان هذا الكلام ليس هو كلام الله ، وبمنزلة من قال عن الحديث المسموع من المحدث: ان هذا ليس كلام رسول الله ﷺ ، وان النبي ﷺ لم يتكلم بهذا الحديث ، وبمنزلة من قال ان هذا الشعر ليس هو شعر لبيد ولم يتكلم به لبيد ، ومعلوم أن هذا كله باطل

ثم ان هؤلاء صاروا يقولون : هذا القرآن المنزل المسموع هو تلاوة القرآن وقراءة القرآن مخلوقة ، ويقولون: تلاوتنا للقرآن مخلوقة ، وقراءتنا له مخلوقة . ويدخلون في ذلك نفس الكلام المسموع ويقولون : لفظنا بالقرآن مخلوق . ويدخلون في ذلك القرآن الملفوظ المتلو المسموع ، فانكر الامام أحمد وغيره من أئمة السنة هذا وقالوا : اللفظية جهمية . وقالوا افترقت الجهمية ثلاث فرق: فرقة قالت: القرآن مخلوق ، وفرقة قالت: نقف فلا نقول مخلوق ولا غير مخلوق ، وفرقة قالت : تلاوة القرآن واللفظ بالقرآن مخلوق ، فلما انتشر ذلك عن أهل السنة غلطت طائفة فقالت: لفظنا بالقرآن غير مخلوق وتلاوتنا له غير مخلوقة . فبدع الامام أحمد هؤلاء وأمر بهجرهم ، ولهذا ذكر الاشعري في مقالاته هذا عن أهل السنة وأصحاب الحديث فقال : والقول باللفظ والوقف عندهم بدعة: من قال اللفظ بالقرآن مخلوق فهو مبتدع عندهم ومن قال غير مخلوق فهو مبتدع.

وكذلك ذكر محمد بن جرير الطبري في صريح السنة ، انه سمع غير واحد من

أصحابه يذكر عن الامام أحمد انه قال : من قال لفظي بالقرآن مخلوق فهو جهمي، ومن قال انه غير مخلوق فهو مبتدع . وصنف أبو محمد بن قتيبة في ذلك كتابا وقد ذكر أبو بكر الخلال هذا في كتاب السنة وبسط القول في ذلك وذكر ماصنفه أبو بكر المروذي في ذلك، وذكر قصة أبي طالب المشهورة عن أحمد التي نقلها عنه أكابر أصحابه كعبدالله وصالح ابنيه والمروذي وأبي محمد فوزان ومحمد بن إسحاق الصنعاني وغير هؤلاء .

وكان أهل الحديث قد افترقوا في ذلك فصار طائفة منهم يقولون لفظنا بالقرآن غير مخلوق ، ومرادهم ان القرآن المسموع غير مخلوق ، وليس مرادهم صوت العبد، كما يذكر ذلك عن ابي حاتم الرازي ومحمد بن داود المصيصي وطوائف غير هؤلاء . وفي أتباع هؤلاء من قد يدخل صوت العبد او فعله في ذلك او يقف، ففهم ذلك بعض الائمة فصار يقول : افعال العباد اصواتهم مخلوقة رداً لهؤلاء كما فعل البخاري ومحمد بن نصر المروزي وغيرهما من أهل العلم والسنة وصار يحصل بسبب كثرة الخوض في ذلك الفاظ مشتركة واهواء للنفوس حصل بذلك نوع من الفرقة والفتنة

وحصل بين البخاري وبين محمد بن يحيى الذهلي في ذلك ما هو معروف وصار قوم مع البخاري كمسلم بن الحجاج ونحوه وقوم عليه كابي زرعة وابي حاتم وغيرهما ، وكل هؤلاء من أهل العلم والسنة والحديث وهم من اصحاب احمد بن حنبل ولهذا قال ابن قتيبة : ان أهل السنة لم يختلفوا في شيء من اقوالهم الا في مسئلة اللفظ

وصار قوم يطلقون القول بان التلاوة هي المتلو والقراءة هي المقروء وليس مرادهم بالتلاوة المصدر ولكن الانسان اذا تكلم بالكلام فلا بد له من حركة ومما يكون عن الحركة من اقواله التي هي حروف منظومة ومعان مفهومة .

والقول والكلام يراد به تارة المجموع فتدخل الحركة في ذلك ويكون الكلام

نوعا من العمل وقسيامنه ، ويراد به تارة ما يقترن بالحركة ويكون عنها لانفس الحركة فيكون الكلام قسيا للعمل ونوعا آخر ليس هو منه

ولهذا تنازع العلماء في لفظ العمل المطلق هل يدخل فيه الكلام على قولين معروفين لاصحاب احمد وغيرهم وبنوا على ذلك ما اذا حلف لا يعمل اليوم عملا فتكلم هل يحنث ؟ على قولين : وذلك لان لفظ الكلام قد يدخل في العمل وقد لايدخل ، فالاول كما في قول النبي ﷺ « لا تحاسد الا في اثنتين رجل آتاه الله القرآن فهو يتلوه آناء الليل والنهار فهو يقول لو اوتيت مثل ما اوتي هذا لعملت مثل ما يعمل » كما اخرجه الشيخان في الصحيحين ، فقد جعل فعل هذا الذي يتلوه آناء الليل والنهار عملا كما قال لعملت فيه مثل ما يعمل الثاني كما في قوله تعالى (اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه) وقوله تعالى (وما تكون في شأن وما تتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل الا كنا شهودا اذ تفيضون فيه)

فالذين قالوا التلاوة هي المتلو من أهل العلم والسنة قصدوا ان التلاوة هي القول والكلام المتلو ، وآخرون قالوا : بل التلاوة غير المتلو والقراءة غير المقروء

والذين قالوا ذلك من أهل السنة والحديث ارادوا بذلك ان افعال العباد ليست هي كلام الله ولا اصوات العباد هي صوت الله ، وهذا الذي قصده البخاري وهو مقصود صحيح

وسبب ذلك ان لفظ التلاوة والقراءة واللفظ مجمل مشترك ، يراد به المصدر ويراد به المفعول ، فمن قال اللفظ ليس هو الملفوظ والقول ليس هو القول واراد باللفظ والقول المصدر كان معنى كلامه ان الحركة ليست هي الكلام المسموع وهذا صحيح ، ومن قال اللفظ هو الملفوظ والقول هو نفس القول واراد باللفظ والقول نفس المقول واراد باللفظ والقول مسمى المصدر ، صار حقيقة مراده ان اللفظ والقول هو الكلام المقول الملفوظ وهذا صحيح

فمن قال اللفظ بالقرآن أو القراءة أو التلاوة مخلوقة أو لفظي بالقرآن أو تلاوتي دخل في كلامه نفس الكلام المقروء المتلو، وذلك هو كلام الله تعالى، وان اراد بذلك مجرد فعله وصوته كان المعنى صحيحا، لكن اطلاق اللفظ يتناول هذا وغيره ولهذا قال احمد في بعض كلامه: من قال لفظي بالقرآن مخلوق يريد به القرآن فهو جهمي، احترازا عما اذا اراد به فعله وصوته.

وذكر اللالكائي: ان بعض من كان يقول ذلك رأى في منامه كان عليه فروة ورجل يضرب به فقال له لا تضربني فقال اني لا اضربك وانما اضرب الفروة، فقال: ان الضرب انما يقع ألمه علي. فقال هكذا اذا قلت لفظي بالقرآن مخلوق وقع الخلق على القرآن

ومن قال: لفظي بالقرآن غير مخلوق أو تلاوتي دخل في ذلك المصدر الذي هو عمله، وافعال العباد مخلوقة، ولو قال اردت به أن القرآن المتلو غير مخلوق لا نفس حركاتي، قيل: لفظك هذا بدعة وفيه اجمال وايهام، وان كان مقصودك صحيحا فلهذا منع ائمة السنة الكبار اطلاق هذا وهذا وكان هذا وسطا بين الطرفين

وكان احمد وغيره من الائمة يقولون القرآن حيث تصرف كلام الله غير مخلوق، من غير أن يقرن بذلك ما يشعر ان أفعال العباد وصفاتهم غير مخلوقة

وصارت كل طائفة من النفاة والمثبتة في مسئلة التلاوة تحكي قولها عن احمد، وهم كما ذكر البخاري في كتاب خلق الافعال، وقال: ان كل واحدة من هاتين الطائفتين تذكر قولها عن احمد وهم لا يفقهون قوله لدقة معناه.

ثم صار ذلك التفرق موروثا في اتباع الطائفتين، فصارت طائفة تقول ان اللفظ بالقرآن غير مخلوق موافقة لابي حاتم الرازي ومحمد بن داود المصيصي وأمثالهما كأبي عبد الله بن منده وأهل بيته وأبي عبد الله بن حامد وأبي نصر السجزي وأبي اسماعيل الانصاري وأبي يعقوب الفرات الهروي وغيرهم. وقوم يقولون

نقيض هذا القول من غير دخول في مذهب ابن كلاب مع اتفاق الطائفتين على ان القرآن كله كلام الله لم يحدث غيره شيئا منه، ولا خلق منه شيئا في غيره، لا حروفه ولا معانيه، مثل حسين الكرابيسي وداود بن علي الاصبهاني وامثالهما

وحدث مع هذا من يقول بقول ابن كلاب : ان كلام الله معنى واحد قائم بنفس المتكلم هو الامر بكل ما أمر به والنهي عن كل ما نهى عنه والاخبار بكل ما أخبر به، وانه ان عبر عنه بالعربية كان هو القرآن وان عبر عنه بالعبرية كان هو التوراة .

وجمهور الناس من أهل السنة والمعتزلة وغيرهم انكروا ذلك وقالوا ان فساد هذا معلوم بصريح العقل فان التوراة اذا عربت لم تكن هي القرآن ولا معنى (قل هو الله احد) هو معنى (تبت) وكان يوافقهم على اطلاق القول بان التلاوة غير المتلو وانها مخلوقة من لا يوافقهم على هذا المعنى، بل قصده ان التلاوة أفعال العباد وأصواتهم، وصار أقوام يطلقون القول بان التلاوة غير المتلو وان اللفظ بالقرآن مخلوق. فمنهم من يعرف انه موافق لابن كلاب، ومنهم من يعرف مخالفته له، ومنهم من لا يعرف منه لا هذا ولا هذا، وصار ابو الحسن الاشعري ونحوه ممن يوافق ابن كلاب على قوله موافقاً للامام احمد وغيره من ائمة السنة في المنع من اطلاق هذا وهذا، فيمنعون ان يقال اللفظ بالقرآن مخلوق او غير مخلوق. وهؤلاء منعوه من جهة كونه يقال في القرآن انه يلفظ اولا يلفظ، وقالوا: اللفظ الطرح والرمي. ومثل هذا لا يقال في القرآن . ووافق هؤلاء على التعليل بهذا طائفة ممن لا يقول بقول ابن كلاب في الكلام كالقاضي ابي يعلي وامثاله . ووقع بين ابي نعيم الاصبهاني وابي عبد الله بن منده في ذلك ما هو معروف وصنف ابو نعيم في ذلك كتابه في الرد على اللفظية والحلولية ومال فيه الى جانب النفاة القائلين بان التلاوة مخلوقة، كما مال ابن مندة الى جانب من يقول انها غير مخلوقة . وحكى كل منهما

عن الائمة مايدل على كثير من مقصوده لا على جميعه، فما قصده كل منها من الحق وجد فيه من المنقول الثابت عن الائمة ما يوافقه

وكذلك وقع بين أبي ذر الهروي وأبي نصر السجزي في ذلك حتى صنف ابو نصر السجزي كتابه الكبير في ذلك المعروف بالابانة وذكر فيه من الفوائد والآثار والانتصار للسنة وأهلها أمورا عظيمة المنفعة. لكنه نصر فيه قول من يقول لفظي بالقرآن غير مخلوق. وأنكر على ابن قتيبة وغيره ماذكروه من التفصيل، ورجح طريقة من هجر البخاري، وزعم ان احمد بن حنبل كان يقول لفظي بالقرآن غير مخلوق، وانه رجع إلى ذلك، وأنكر مانقله الناس عن احمد من انكاره على الطائفتين وهي مسئلة أبي طالب المشهورة، وليس الامر كما ذكره، فان الانكار على الطائفتين مستفيض عن احمد عند أخص الناس به من أهل بيته وأصحابه الذين اعتنوا بجمع كلام احمد، كالمروذي والخلال وابي بكر عبد العزيز وابي عبد الله بن بطة وأمثالهم. وقد ذكروا من ذلك مايعلم كل عارف له انه من أثبت الامور عن احمد ،

وهؤلاء العراقيون أعلم بأقوال احمد من المنتسبين إلى السنة والحديث من أهل خراسان الذين كان ابن منده وابو نصر وابو اسماعيل الهروي وأمثالهم يسلكون حذوهم، ولهذا صنف عبدالله بن عطاء الابراهيمي كتابا فيمن أخذ عن احمد العلم، فذكر طائفة ذكر منهم ابابكر الخلال وظن انه ابو محمد الخلال شيخ القاضي ابي يعلى وابي بكر الخطيب فاشتبه عليه هذا بهذا، وهذا كما ان العراقيين المنتسبين إلى أهل الاثبات من اتباع ابن كلاب كابي العباس القلانسي وابي الحسن الاشعري وابي الحسن علي بن مهدي الطبري والقاضي ابي بكر الباقلاني وأمثالهم أقرب الى السنة وأتبع لاحمد بن حنبل وأمثاله من أهل خراسان المائلين الى طريقة ابن كلاب ، ولهذا كان القاضي ابو بكر بن الطيب يكتب في أجوبته أحيانا «محمد بن الطيب الحنبلي» كما كان يقول الاشعري إذ كان الاشعري وأصحابه منتسبين إلى احمد بن حنبل

وأمثاله من أئمة السنة ، وكان الاشعري أقرب الى مذهب احمد بن حنبل وأهل السنة من كثير من المتأخرين المنتسبين الى احمد الذين مالوا الى بعض كلام المعتزلة كابن عقيل وصدقة بن الحسين وابن الجوزي وأمثالهم ،

وكان ابو ذر الهروي قد أخذ طريقة الباقلاني وأدخلها إلى الحرم، ويقال انه أول من أدخلها إلى الحرم، وعنه أخذ ذلك من أخذه من أهل المغرب، فانهم كانوا يسمعون عليه البخاري ويأخذون ذلك عنه كما أخذه ابو الوليد الباجي . ثم رحل الباجي إلى العراق فأخذ طريقة الباقلاني عن أبي جعفر السمناني الحنفي قاضي الموصل صاحب الباقلاني ،

ونحن قد بسطنا الكلام في هذه المسائل وبينا ما حصل فيها من النزاع والاضطراب في غير هذا الموضع اه

فصل آخر

او فتوى في مسئلة الكلام لشيخ الاسلام رحمه الله

سئل شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى في رجل قال : ان الله لم يكلم موسى تكليما، وانما خلق الكلام والصوت في الشجرة، وموسى عليه السلام سمع من الشجرة لا من الله، وان الله عز وجل لم يكلم جبريل بالقرآن وانما أخذه من اللوح المحفوظ، فهل هو على الصواب ام لا ؟

فاجاب: الحمد لله، ليس هذا على الصواب، بل هذا ضال مفتر كاذب باتفاق سلف الامة وأئمتها، بل هو كافر يجب أن يستتاب فان تاب والا قتل، واذا قال لا أكذب بلفظ القرآن وهو قوله (وكلم الله موسى تكليما) بل أقر بان هذا اللفظ حق لكن أنفي معناه وحقيقته (١)

(١) اي هو كافر وان قال لا اكذب بلفظ القرآن الخ

فان هؤلاء هم الجهمية الذين اتفق السلف والائمة على انهم من شر اهل الاهواء والبدع حتى أخرجهم كثير من الائمة عن الثنتين والسبعين فرقة

وأول من قال هذه المقالة في الاسلام كان يقال له الجعد بن درهم فضحى به خالد بن عبدالله القسري يوم أضحى، فانه خطب الناس فقال في خطبته : ضحوا ايها الناس، تقبل الله ضحايا كم، فاني مضح بالجعد بن درهم، انه زعم ان الله لم يتخذ ابراهيم خليلا، ولم يكلم موسى تكليما . تعالى الله عما يقول الجعد علواً كبيراً . ثم نزل فذبحه . وكان ذلك في زمن التابعين فشكروا ذلك ، وأخذ هذه المقالة عنه جهم بن صفوان وقتله بخراسان سلمة بن أحوز، واليه نسبت هذه المقالة التي تسمى مقالة الجهمية ، وهي نفي صفات الله تعالى ، فانهم يقولون: ان الله لا يرى في الآخرة ولا يكلم عباده ، وانه ليس له علم ولا حياة ولا قدرة ونحو ذلك من الصفات ، ويقولون: القرآن مخلوق

ووافق الجهم على ذلك المعتزلة أصحاب عمرو بن عبيد وضموا اليها بدعا أخرى في القدر وغيره، لكن المعتزلة يقولون ان الله كلم موسى حقيقة وتكلم حقيقة ، لكن حقيقة ذلك عندهم انه خلق كلاما في غيره إما في شجرة وإما في هواء واما في غير ذلك من غير أن يقوم بذات الله عندهم كلام ولا علم ولا قدرة ولا رحمة ولا مشيئة ولا حياة ولا شيء من الصفات

والجهمية تارة يبوحون بحقيقة القول، فيقولون: ان الله لم يكلم موسى تكليما ولا يتكلم، وتارة لا يظهرون هذا اللفظ لما فيه من الشناعة المخالفة لدين الاسلام واليهود والنصارى، فيقرون باللفظ ولكن يقرنونه بانه خلق في غيره كلاما

وأئمة الدين كلهم متفقون على ما جاء به الكتاب والسنة واتفق عليه سلف الامة من أن الله كلم موسى تكليما وان القرآن كلام الله غير مخلوق، وان المؤمنين

يرون ربهم في الآخرة، كما تواترت به الاحاديث عن النبي ﷺ وان لله علما وقدرة ونحو ذلك.

ونصوص الائمة في ذلك مشهورة متواترة حتى ان أبا القاسم الطبري الحافظ لما ذكر في كتابه في شرح أصول السنة مقالات السلف والائمة في الاصول ذكر من قال القرآن كلام الله غير مخلوق وقال: فهؤلاء خمسمائة وخمسون نفسا او أكثر من التابعين والائمة المرضيين سوى الصحابة، على اختلاف الاعصار ومضي السنين والاعوام، وفيهم نحو من مائة امام ممن أخذ الناس بقولهم وتدينوا بمذاهبهم. ولو اشتغلت بنقل قول أهل الحديث لبلغت أسماؤهم الوفا، لكني اختصرت فنقلت عن هؤلاء عصراً بعد عصر لا ينكر عليهم منكر، ومن أنكر قولهم استتابوه أو أمروا بقتله او نفيه او صلبه، قال: ولا خلاف بين الامة ان أول من قال القرآن مخلوق جعد بن درهم في سني نيف وعشرين ومائة، ثم جهم بن صفوان، فاما جعد فقتله خالد بن عبدالله القسري. واما جهم فقتل بمرو في خلافة هشام بن عبد الملك

وروى باسناده عن علي بن ابي طالب رضى الله عنه من وجهين انهم قالوا له يوم صفين: حكمت رجلين؟ فقال: ماحكمت مخلوقا ماحكمت الا القرآن، وعن عكرمة قال كان ابن عباس في جنازة فلما وضع الميت في لحده قام رجل وقال: اللهم رب القرآن اغفر له. فوثب اليه ابن عباس فقال: مه القرآن منه. وعن عبدالله بن مسعود قال: من حلف بالقرآن فعليه بكل آية يمين. وهذا ثابت عن ابن مسعود، وعن سفيان بن عيينة قال: سمعت عمرو بن دينار يقول: ادركت مشايخنا والناس منذ سبعين سنة يقولون القرآن كلام الله، منه بدا واليه يعود، وفي لفظ يقولون: القرآن كلام الله غير مخلوق، وقال حرب الكرماني ثنا اسحق ابن ابراهيم يعنى ابن راهويه عن سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار قال: ادركت الناس منذ سبعين

سنة ادركت اصحاب النبي ﷺ فمن دونهم يقولون: الله الخالق وماسواه مخلوق الا القرآن فانه كلام الله، منه خرج واليه يعود

وهذا قد رواه عن ابن عيينة اسحق، واسحق اما أن يكون سمعه منه أو من بعض اصحابه عنه، وعن جعفر الصادق بن محمد - وهو مشهور عنه - أنهم سألوه عن القرآن أخالق هو أم مخلوق؟ فقال: ليس بخالق ولا مخلوق، ولكنه كلام الله

وهكذا روى عن الحسن البصري وايوب السختياني وسليمان التيمي وخلق من التابعين. وعن مالك بن أنس والليث بن سعد وسفيان الثوري وابن ابي ليلي وأبي حنيفة والشافعي واحمد بن حنبل واسحق بن راهويه، وأمثال هؤلاء من الائمة وكلام هؤلاء الائمة واتباعهم في ذلك كثير مشهور بل اشتهر عن ائمة السلف تكفير من قال القرآن مخلوق وانه يستتاب فان تاب والا قتل، كما ذكروا ذلك عن مالك بن أنس وغيره، ولذلك قال الشافعي لحفص الفرد وكان من اصحاب ضرار ابن عمر ممن يقول القرآن مخلوق، فلما ناظر الشافعي وقال له القرآن مخلوق، قال له الشافعي، كفرت بالله العظيم. ذكره ابن ابي حاتم في الرد على الجهمية، قال كان في كتابي عن الربيع بن سليمان قال حضرت الشافعي أو حدثني ابو شعيب الا أني أعلم حضر عبد الله بن عبد الحكم ويوسف بن عمرو بن يزيد فسأل حفص عبد الله قال: ما تقول في القرآن؟ فابى أن يجيبه، فسأل يوسف بن عمرو فلم يجبه، وكلاهما اشار الى الشافعي، فسأل الشافعي فاحتج عليه وطالت فيه المناظرة، فقال الشافعي بالحجة بان القرآن كلام الله غير مخلوق وكفر حفصا الفرد. قال الربيع فلقيت حفصا في المسجد بعد هذا فقال اراد الشافعي قتلي

وأما مالك بن أنس فنقل عنه من غير وجه الرد على من يقول القرآن مخلوق واستتابته، وهذا المشهور عنه متفق عليه بين أصحابه. وأما ابو حنيفة وأصحابه فقد ذكر ابو جعفر الطحاوي في الاعتقاد الذي قال في أوله (ذكر بيان اعتقاد أهل

السنة والجماعة على مذهب فقهاء الملة) ابي حنيفة النعمان بن ثابت الكوفي وابي يوسف يعقوب بن ابراهيم الانصاري وأبي عبد الله محمد بن الحسن الشيباني) قال فيه «وان القرآن كلام الله، منه بدأ بلا كيفية قولا، وأنزله على نبيه وحيا، وصدقه المؤمنون على ذلك حقا، وأثبتوا انه كلام الله تعالى بالحقيقة ليس بمخلوق ككلام البرية، فمن سمعه فزعم انه كلام البشر فقد كفر، وقد ذمه الله وعابه وأوعده عذابه وتوعده حيث قال (سأصليه سقر) فلما اوعد الله سقر لمن قال (ان هذا إلا قول البشر) علمنا انه قول خالق البشر ولا يشبه قول البشر »

وأما احمد بن حنبل فكلامه في مثل هذا مشهور متواتر، وهو الذي اشتهر بمحنة هؤلاء الجهمية، فانهم أظهروا القول بانكار صفات الله تعالى وحقائق اسمائه وان القرآن مخلوق، حتى صار حقيقة قولهم تعطيل الخالق سبحانه وتعالى، ودعوا الناس الى ذلك، وعاقبوا من لم يجبهم إما بالقتل وإما بقطع الرزق وإما بالعزل عن الولاية وإما بالحبس او بالضرب وكفروا من خالفهم، فثبت الله تعالى الامام احمد حتى أظهر الله به باطلهم، ونصر أهل الايمان والسنة عليهم، واذلهم بعد العز، وأخملهم بعد الشهرة، واشتهر عند خواص الامة وعوامها ان القرآن كلام الله غير مخلوق واطلاق القول ان من قال انه مخلوق فقد كفر

وأما اطلاق القول بان الله لم يكلم موسى فهذه مناقضة لنص القرآن فهو أعظم من القول بان القرآن مخلوق، وهذا بلا ريب يستتاب فان تاب والاقتل، فانه أنكر نص القرآن، وبذلك أفتى الائمة والسلف في مثله، والذي يقول القرآن مخلوق فهو في المعنى موافق له فلذلك كفره السلف

قال البخاري في كتاب (خلق الافعال) قال سفيان الثوري من قال القرآن مخلوق فهو كافر، قال وقال عبدالله بن المبارك من قال (اني أنا الله لا اله الا أنا) مخلوق، فهو كافر ولا ينبغي لمخلوق أن يقول ذلك، قال وقال ابن المبارك: لا تقول

كما قالت الجهمية انه في الارض ههنا، بل على العرش استوى ، وقيل له كيف نعرف ربنا ؟ قال فوق سمواته على عرشه بائن من خلقه

وقال: من قال « لا اله الا الله » مخلوق فهو كافر ، وانا نحكي كلام اليهود والنصارى ولا نستطيع أن نحكي كلام الجهمية . قال وقال علي بن عاصم: ماالذين قالوا ان لله ولداً أكفر من الذين قالوا ان الله لايتكلم

قال البخاري وكان اسماعيل بن أبي ادريس يسميهم زنادقة العراق ، وقيل له: سمعت أحداً يقول القرآن مخلوق ؟ فقال: هؤلاء الزنادقة. قال وقال ابو الوليد سمعت يحيى بن سعيد وذكر له ان قوما يقولون القرآن مخلوق فقال كيف يصنعون (بقل هو الله أحد) كيف يصنعون بقوله (اني أنا الله لا اله إلا أنا)؟ قال : وقال ابوعبيد القاسم بن سلام نظرت في كلام اليهود والمجوس فما رأيت قوما أضل في كفرهم منهم، واني لاستجهل من لايكفرهم الا من لايعرف كفرهم . قال وقال سليمان بن داود الهاشمي: من قال القرآن مخلوق فهو كافر، وان كان القرآن مخلوقا كما زعموا، فلم صار فرعون اولى بان يخلد في النار اذ قال (أنا ربكم الاعلى) ؟ وزعموا ان هذا مخلوق والذي قال (انني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني) هذا أيضا قد ادعى ماادعى فرعون، فلم صار فرعون اولى أن يخلد في النار من هذا؟ وكلاهما عنده مخلوق .فأخبر بذلك ابوعبيد فاستحسنه وأعجبه

ومعنى كلام هؤلاء السلف رضي الله عنهم : ان من قال ان كلام الله مخلوق خلقه في الشجرة أو غيرها كما قال هذا الجهمي المعتزلي المسؤل عنه، كان حقيقة قوله ان الشجرة هي التي قالت لموسى(انني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني) ومن قال هـذا مخلوق قال ذلك ، فهذا المخلوق عنده كفرعون الذي قال: أنا ربكم الاعلى ، كلاهما مخلوق، وكلاهما قال ذلك. فان كان قول فرعون كفراً فقول هؤلاء أيضا كفر. ولا ريب ان قول هؤلاء يؤول الى قول فرعون، وان كانوا لايفهمون

ذلك، فان فرعون كذب موسى فيما أخبر به: من أن ربه هو الاعلى، وانه كلمه كما قال تعالى (وقال فرعون يا هامان ابن لي صرحا لعلي أبلغ الاسباب* أسباب السموات فأطلع الى إله موسى واني لأظنه كاذبا) وهو قد كذب موسى في ان الله كلمه،

ولكن هؤلاء يقولون إذا خلق كلاما في غيره صار هو المتكلم به وذلك باطل وضلال من وجوه كثيرة

(أحدها) ان الله سبحانه أنطق الاشياء كلها نطقا معتاداً ونطقا خارجا عن المعتاد، قال تعالى (اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون) وقال تعالى (حتى اذا ماجاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون* وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا؟ قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء) وقال تعالى (يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون) وقد قال تعالى (إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشي والاشراق) وقد ثبت ان الحصى كان يسبح في يد النبي ﷺ، وان الحجر كان يسلم عليه. وامثال ذلك من انطاق الجمادات. فلو كان إذا خلق كلاما في غيره كان هو المتكلم به كان هذا كله كلام الله تعالى ويكون قد كلم من سمع هذا الكلام كما كلم موسى بن عمران، بل قد ثبت ان الله خالق أفعال العباد. فكل ناطق فالله خالق نطقه وكلامه فلو كان متكلما بما خلقه من الكلام لكان كل كلام في الوجود كلامه حتى كلام ابليس والكفار وغيرهم، وهذا تقوله غلاة الجهمية كابن عربي وأمثاله(١) يقولون:

(١) يكثر شيخ الاسلام في هذا البحث من هذا الجمع او التنظير بين الجهمية وابن عربي وامثاله من القائلين بوحدة الوجود ولا يذكر فيه الفرق بينهما وهو ان الجهمية ينكرون صفات الخالق هربا من تشبيهه بخلقه فجعلوه كالعدم، والاتحادية زعموا انه لاموجود غيره فهو الخالق والمخلوق عينا وصفة، ومن ثم كان كل كلام في الوجود كلامه اذ لا وجود لغيره، وشيخ الاسلام قد فصل مذهبهم هذا وبين بطلانه في رسالة أخرى من هذا المجموع

وكل كلام في الوجود كلامه سواء علينا نثره ونظامه

وهكذا أشباه هؤلاء من غلاة المشبهة الذين يقولون: ان كلام الآدميين غير مخلوق، فان كل واحد من الطائفتين يجعلون كلام المخلوق بمنزلة كلام الخالق فاولئك يجعلون الجميع مخلوقا وان الجميع كلام الله، وهؤلاء يجعلون الجميع كلام الله وهو غير مخلوق، ولهذا كان قد حصل اتصال بين شيخ الجهمية الحلولية وشيخ المشبهة الحلولية بسبب هذه البدع وأمثالها من المنكرات المخالفة لدين الاسلام سلط الله أعداء الدين(١) فان الله يقول (ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوي عزيز* الذين ان مكناهم في الارض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الامور) وأي معروف أعظم من الايمان بالله واسمائه وآياته؟ واي منكر اعظم من الالحاد في اسماء الله وآياته ؟

(الوجه الثاني) أن يقال لهؤلاء الضالين :ماخلقه الله في غيره من الكلام وسائر الصفات فانما يعود حكمه على ذلك المحل لا على غيره ،فاذا خلق الله في بعض الاجسام حركة أو طعما أو لونا او ريحاً كان ذلك الجسم هو المتحرك المتلون المتروح المطعوم ، وإذا خلق بمحل حياة أو علماً اوقدرة او إرادة او كلاما كان ذلك المحل هو الحي العالم القادر المريد المتكلم. فاذا خلق كلاما في الشجرة أو في غيرها من الاجسام كان ذلك الجسم هو المتكلم بذلك الكلام، كما لو خلق فيه إرادة أو حياة أو علماً، ولا يكون الله هو المتكلم به، كما إذا خلق فيه حياة أو قدرة او سمعاً أو بصراً كان ذلك المحل هو الحي به والقادر به والسميع به والبصير به ، فكما انه سبحانه لايجوز أن يكون متصفا بما خلقه من الصفات المشروطة بالحياة وغير المشروطة بالحياة ، فلايكون هو المتحرك بما خلقه في غيره من الحركات، ولا المصوت بما خلقه في غيره من

(١) في الكلام نقص اوله (حتى سلط الله علما السنة ففضحوا اعداء الدين) او نحو هذا مما ينتظم به الكلام

الاصوات، ولا سمعه ولا بصره وقدرته ماخلقه في غيره من السمع والبصر والقدرة، فكذلك لا يكون كلامه ماخلقه في غيره من الكلام ولا يكون متكلما بذلك الكلام

(الوجه الثالث) ان الاسم المشتق من معنى لا يتحقق بدون ذلك المعنى، فاسم الفاعل واسم المفعول والصفه المشبهة وأفعال التفضيل يمتنع ثبوت معناها دون معنى المصدر التي هي مشتقة منه، والناس متفقون على انه لا يكون متحرك ولا متكلم الا بحركة وكلام، فلا يكون مريد الا بارادة، وكذلك لا يكون عالم الا بعلم ولا قادر إلا بقدرة ونحو ذلك

ثم هذه الاسماء المشتقة من المصدر انما يسمى بها من قام به مسمى المصدر، فانما يسمى بالحي من قامت به الحياة، وبالمتحرك من قامت به الحركة، وبالعالم من قام به العلم، وبالقادر من قامت به القدرة. فأما من لم يقم به مسمى المصدر فيمتنع أن يسمى باسم الفاعل ونحوه من الصفات. وهذا معلوم بالاعتبار في جميع النظائر،

وذلك لان اسم الفاعل ونحوه من المشتقات هو مركب يدل على الذات وعلى الصفة والمركب يمتنع تحققه بدون تحقق مفرداته. وهذا كما انه ثابت في الاسماء المشتقة فكذلك في الافعال مثل تكلم وكلم ويتكلم وعلم ويعلم وسمع ويسمع ورأى ويرى ونحو ذلك سواء، قيل ان الفعل المشتق من المصدر أو المصدر مشتق من الفعل، لا نزاع بين الناس ان فاعل الفعل هو فاعل المصدر. فاذا قيل كلم أو علم أو تكلم أو تعلم ففاعل التكليم والتعليم هو المكلم والمعلم، وكذلك التعلم والتكلم، والفاعل هو الذي قام به المصدر الذي هو التكليم والتعليم والتكلم والتعلم. فاذا قيل: تكلم فلان أو كلم فلان فلانا ففلان هو المتكلم والمكلم، فقوله تعالى (وكلم الله موسى تكليما) وقوله (تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله، ورفع بعضهم درجات) وقوله (ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه) يقتضي ان الله هو المكلم، فكما يمتنع ان يقال: هو متكلم بكلام قائم بغيره يمتنع أن يقال كلم بكلام قائم بغيره

فهذه ثلاثة أوجه [١] (أحدها) انه يلزم الجهمية على قولهم ان يكون كل كلام خلقه الله كلاما له إذ لا معنى لكون القرآن كلام الله إلا كونه خلقه، وكل من فعل كلاما ولو في غيره كان متكلما به عندهم، وليس للكلام عندهم مدلول يقوم بذات الرب تعالى لو كان مدلول قائما يدل لكونه خلق صوتا في محل والدليل يجب طرده فيجب ان يكون كل صوت يخلقه له كذلك وهم يجوزون أن يكون الصوت المخلوق على جميع الصفات، فلا يبقى فرق بين الصوت الذي هو كلام الله تعالى على قولهم والصوت الذي هو ليس بكلام (الثاني) ان الصفة اذا قامت بمحل كالعلم والقدرة والكلام والحركة عاد حكمه إلى ذلك المحل ولا يعود حكمه الى غيره (الثالث) انه مشتق المصدر منه اسم الفاعل والصفة المشبهة به ونحو ذلك ولا يشتق ذلك لغيره. وهذا كله بين ظاهر وهو ما يبين قول السلف والأئمة ان من قال ان الله خلق كلاما في غيره لزمه أن يكون حكم التكلم عائداً الى ذلك المحل لا الى الله

(الرابع) ان الله أكد تكليم موسى بالمصدر فقال (تكليما) قال غير واحد من العلماء: التوكيد بالمصدر ينفي المجاز، لئلا يظن أنه ارسل اليه رسولا أو كتب اليه كتابا بل كلمه منه اليه

(والخامس) ان لله فضل موسى بتكليمه اياه على غيره ممن لم يكلمه وقال (وما كان لبشر ان يكلمه الله الا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا) الآية، فكان تكليم موسى من وراء الحجاب، وقال (ياموسى اني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي) وقال (انا أوحينا اليك كما أوحينا الى نوح والنبيين من بعده — إلى قوله — وكلم الله موسى تكليما) والوحي هو ما نزله الله على قلوب

---

(١) قوله فهذه ثلاثة اوجه، يعني ما تقدم وقد لخصها فيما يأتي وزاد عليها وجهين آخرين كان ينبغي ان يصرح بزيادتها

الانبياء بلا واسطة،فلو كان تكليمه لموسى انما هوصوت خلقه في الهواء لـكان وحي الانبياء أفضل منه،لان لولئك عرفوا المعنى المقصود بلا واسطة، وموسى انما عرفه بواسطة ، ولهذا كان غلاة الجهمية من الاتحادية ونحوهم يدعون أن ما يحصل لهم من الالهام أفضل مما حصل لموسى بن عمران وهذا من أعظم الكفر باتفاق المسلمين ،

ولما فهم السلف حقيقة مذهب هؤلاء وانه يقتضي تعطيل الرسالة (١) فان الرسل انما بعثوا ليبلغوا كلام الله ، بل يقتضي تعطيل التوحيد ، فان من لا يتكلم ولا يقوم به علم ولا حياة هو كالموات ، بل من لا تقوم به الصفات فهو عدم محض اذ ذات لا صفة لها انما يمكن تقديرها في الذهن لا في الخارج كتقدير وجود مطلق لا يتعين ولا يتخصص .

فكان قول هؤلاء مضاهيا لقول المتفلسفة الدهرية الذي يجعلون وجود الرب وجودا مطلقا بشرط الاطلاق لا صفة له . وقد علم ان المطلق بشرط الاطلاق لا يوجد الا في الذهن. وهؤلاء الدهرية ينكرون أيضا حقيقة تكليمه لموسى ويقولون انما هو فيض فاض عليه من العقل الفعال ، وهكذا يقولون في الوحي الى جميع الانبياء. وحقيقة قولهم أن القرآن قول البشر لكنه صدر عن نفس صافية شريفة. وإذا كانت المعتزلة خيراً من هؤلاء وقد كفر السلف من يقول بقولهم فكيف هؤلاء؟

وكلام السلف والأئمة في مثل هؤلاء لا يحصى قال حرب بن اسماعيل الكرماني: سمعت اسحاق بن راهويه يقول : بين أهل العلم اختلاف أن القرآن كلام الله وليس بمخلوق، وكيف يكون شيء من الرب عز ذكره مخلوقا؟ ولو كان كما قالوا لزمهم أن يقولوا علم الله وقدرته ومشيئته مخلوقة ، فان قالوا ذلك لزمهم أن يقولوا كان الله تبارك اسمه ولا علم ولا قدرة ولا مشيئة، وهو الكفر المحض الواضح،

(١) سقط جواب لما وتقديره ما يناسب المقام نحو (كفروهم، او انكروا عليهم)

لم يزل الله عالما متكلما له المشيئة والقدرة في خلقه، والقرآن كلام الله وليس بمخلوق فمن زعم أنه مخلوق فهو كافر ،

وقال وكيع بن الجراح : من زعم أن القرآن مخلوق فقد زعم أن شيئا من الله مخلوق . فقيل له : من أين قلت هذا ؟ قال لان الله يقول (ولكن حق القول مني) ولا يكون من الله شيء مخلوق . وهذا القول قاله غير واحد من السلف.

وقال احمد بن حنبل كلام الله من الله ليس ببائن منه ، وهذا معنى قول السلف القرآن كلام الله منه بدا ومنه خرج واليه يعود كما في الحديث الذي رواه احمد وغيره عن جبير بن نفير قال قال رسول الله ﷺ « انكم لن ترجعوا الى الله بشيء أفضل مما خرج منه » يعني القرآن. وقد روي أيضا عن أبي امامة مرفوعا. وقال ابو بكر الصديق لاصحاب مسيلمة الكذاب، لما سمع قرآن مسيلمة « ويحكم أين يذهب بعقولكم ؟ إن هذا كلاما لم يخرج من إلٍّ » أي من رب

وليس معنى قول السلف والائمة: إنه منه خرج ومنه بدا، انه فارق ذاته وحل بغيره فان كلام المخلوق اذا تكلم به لا يفارق ذاته ويحل بغيره، فكيف يكون كلام الله؛ قال تعالى (كبرت كلمة تخرج من أفواههم ان يقولون الا كذبا) فقد أخبر أن الكلمة تخرج من أفواههم ومع هذا فلم تفارق ذاتهم

وأيضاً فالصفة لا تفارق الموصوف وتحل بغيره ، لا صفة الخالق ولا صفة المخلوق ، والناس اذا سمعوا كلام النبي ﷺ ثم بلغوه عنه كان الكلام الذى بلغوه كلام رسول الله ﷺ وقد بلغوه بحركاتهم وأصواتهم فالقرآن أولى بذلك ، فالكلام كلام الباري والصوت صوت القاري، قال تعالى (وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله) وقال ﷺ « زينوا القرآن بأصواتكم »

ولكن مقصود السلف الرد على هؤلاء الجهمية فانهم زعموا ان القرآن خلقه الله في غيره فيكون قد ابتدأ وخرج من ذلك المحل الذي خلق فيه لا من الله، كما

يقولون كلامه لموسى خرج من الشجرة ، فبين السلف والائمة ان القرآن من الله بدأ وخرج وذكروا قوله (ولكن حق القول مني) فأخبر ان القول منه لا من غيره من المخلوقات ،

و « من » هي لابتداء الغاية ، فان كان المجرور بها عينا يقوم بنفسه لم يكن صفة لله كقوله (وسخر لكم ما في السموات وما في الارض جميعاً منه) وقوله في المسيح (وروح منه) وكذلك مايقوم بالاعيان كقوله (وما بكم من نعمة فمن الله) وأما اذا كان المجرور بها صفة ولم يذكر لها محل كان صفة لله كقوله (ولكن حق القول مني) وكذلك قد أخبر في غير موضع من القرآن ان القرآن نزل منه وانه نزل به جبريل منه رداً على هذا المبتدع المفتري وأمثاله ممن يقول انه لم ينزل منه قال تعالى (قل أفغير الله أبتغي حكما وهو الذي أنزل اليكم الكتاب مفصلا والذين آتيناهم الكتاب يعلمون انه منزل من ربك بالحق) وقال تعالى (قل نزله روح القدس من ربك بالحق) وروح القدس هو جبريل ، كما قال في الآية الأخرى (نزل به الروح الامين على قلبك) وقال (من كان عدواً لجبريل فانه نزله على قلبك باذن الله) وقال هنا (نزله روح القدس من ربك) فبين ان جبريل نزله من الله لا من هواء ولا من لوح ولا غير ذلك ، وكذلك سائر آيات القرآن كقوله (تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم) وقوله (حم ، تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم) وقوله (حم ، تنزيل من الرحمن الرحيم) وقوله (ألم ، تنزيل الكتاب لاريب فيه من رب العالمين) وقوله (ياأيها الرسول بلغ ماأنزل اليك من ربك)

فقد بين في غير موضع انه منزل من الله ، فمن قال انه منزل من بعض المخلوقات كاللوح والهواء فهو مفتر على الله مكذب لكتاب الله متبع لغير سبيل المؤمنين ، ألا ترى ان الله فرق بين ما نزل منه وما نزله من بعض المخلوقات كالمطر بأن قال (أنزل من السماء ماء) فذكر المطر في غير موضع وأخبر انه نزله من السماء ، والقرآن

أخبر انه منزل منه، وأخبر بتنزيل مطلق في مثل قوله (وأنزلنا الحديد) لان الحديد ينزل من رءوس الجبال لاينزل من السماء، وكذلك الحيوان. فان الذكر ينزل الماء في الاناث، فلم يقل فيه من السماء، ولو كان جبريل أخذ القرآن من اللوح المحفوظ لكان اليهود أكرم على الله من أمة محمد، لانه قد ثبت بالنقل الصحيح ان الله كتب لموسى التوراة بيده وأنزلها مكتوبة (١) فيكون بنو اسرائيل قد قرأوا الالواح التي كتبها الله، وأما المسلمون فأخذوه عن محمد ﷺ، ومحمد أخذه عن جبريل وجبريل عن اللوح، فيكون بنو اسرائيل بمنزلة جبريل، وتكون منزلة بني اسرائيل أرفع من منزلة محمد ﷺ على قول هؤلاء الجهمية، والله سبحانه جعل من فضائل أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم انه أنزل عليهم كتابا لايغسله الماء وانه أنزله عليهم تلاوة لا كتابة، وفرقه عليهم لاجل ذلك. فقال (وقرآنا فرقناه لتقرأه على النـاس على مكث ونزلناه تنزيلا) وقال تعـالى (وقالوا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا)

ثم إن كان جبريل لم يسمعه من الله وانما وجده مكتوبا كانت العبارة عبارة جبريل وكان القرآن كلام جبريل ترجم به عن الله كما يترجم عن الاخرس الذي كتب كلاما ولم يقدر أن يتكلم به. وهذا خلاف دين المسلمين،

وإن احتج محتج بقوله (انه لقول رسول كريم * ذي قوة عند ذي العرش مكين) قيل له فقد قال في الآية الأخرى (انه لقول رسول كريم * وماهو بقول شاعر قليلا ماتؤمنون * ولا بقول كاهن قليلا ماتذكرون) فالرسول في هذه الآية محمد ﷺ والرسول في الأخرى جبريل، فلو أريد به ان الرسول أحدث عبارته لتناقض

---

(١) المراد بالتوراة هنا أصول الشريعة وهي الوصايا التي في الالواح لا كل أحكام الشريعة من عبادات واحتفالات وعقوبات وغيرها فان هذه شرعت بالتدريج وهذا مجمع عليه عند اليهود

الخبران. فعلم أنه أضافه اليه إضافة تبليغ لا إضافة إحداث ولهذا قال (لقول رسول) ولم يقل ملك ولا نبي، ولا ريب ان الرسول بلغه كما قال (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل اليك من ربك) فكان النبي ﷺ يعرض نفسه على الناس في الموسم ويقول « ألا رجل يحملني الى قومه لأبلغ كلام ربي، فان قريشاً قد منعوني أن أبلغ كلام ربي » ولما أنزل الله (آلم غلبت الروم) خرج أبو بكر الصديق فقرأها على الناس فقالوا : هذا كلامك أم كلام صاحبك ؟ فقال: ليس بكلامي ولا كلام صاحبي ولكنه كلام الله

وان احتج بقوله (ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث) قيل له هذه الآية حجة عليك، فانه لما قال (ما يأتيهم من ذكر ربهم محدث) علم ان الذكر منه محدث ومنه ما ليس بمحدث ، لان النكرة اذا وصفت ميز بها بين الموصوف وغيره، كما لو قال: ما يأتيني من رجل مسلم إلا أكرمته ، وما آكل إلا طعاما حلالا ونحو ذلك. ويعلم ان المحدث في الآية ليس هو المخلوق الذي يقوله الجهمي ولكنه الذي أنزل جديداً ، فان الله كان ينزل القرآن شيئاً بعد شيء، فالمنزل أولا هو قديم بالنسبة الى المنزل آخراً. وكل ما تقدم على غيره فهو قديم في لغة العرب، كما قال (كالعرجون القديم) وقال (تالله انك لفي ضلالك القديم) وقال (واذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم) وقال (أفرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الاقدمون) وكذلك قوله (جعلناه قرآنا عربيا) لم يقل جعلناه فقط حتى يظن انه بمعنى خلقناه ولكن قال (جعلناه قرآنا عربيا) أي صيرناه عربيا لانه قد كان قادراً على أن ينزله عجميا ، فلما أنزله عربيا كان قد جعله عربيا دون عجمي . وهذه المسألة في أصول أهل الايمان والسنة التي فارقوا بها الجهمية من المعتزلة والفلاسفة ونحوهم ، والكلام عليها مبسوط في غير هذا الموضع والله أعلم

فتوى أخرى

﴿ لشيخ الاسلام في تكليم الله لموسى عليه السلام ﴾

(وهل هو بحرف وصوت ام لا ؟ ومن أنكره)

﴿ مسئلة ﴾ فيمن قال: ان الله لم يكلم موسى تكليما ، فقال له آخر: بل كلمه تكليما ، فقال : ان قلت كلمه فالكلام لا يكون الا بحرف وصوت ، والحرف والصوت محدث ، ومن قال: ان الله كلم موسى بحرف وصوت فهو كافر ، فهو كما قال او لا؟

(الجواب) الحمد لله : اما من قال ان الله لم يكلم موسى تكليما فهذا ان كان لم يسمع القرآن فانه يعرّف ان هذا نص القرآن، فان انكره بعد ذلك استتيب فان تاب والا قتل ، ولا يقبل منه ان كان كلامه بعد(١) ان يجحد نص القرآن، بل لو قال ان معنى كلامي انه خلق صوتا في الهواء فأسمعه موسى كان كلامه ايضا كفراً، وهو قول الجهمية الذين كفرهم السلف قالوا : يستتابون فان تابوا والا قتلوا ، لكن من كان مؤمنا بالله ورسوله مطلقا ولم يبلغه من العلم ما يبين له الصواب فانه لا يحكم بكفره حتى تقوم عليه الحجة التي من خالفها كفر . اذ كثير من الناس يخطيء فيما يتأوله من القرآن ويجهل كثيراً مما يرد من معاني الكتاب والسنة ، والخطأ والنسيان مرفوعان عن هذه الامة. والكفر لا يكون الا بعد البيان

والأئمة الذين امروا بقتل مثل هؤلاء الذين ينكرون رؤية الله في الآخرة ويقولون القرآن مخلوق ونحو ذلك، قيل انهم امروا بقتلهم لكفرهم، وقيل لأنهم اذا دعوا الناس الى بدعتهم اضلوا الناس فقتلوا لاجل الفساد في الارض وحفظا لدين الناس ان يضلوهم

---

(١) كذا ولعله (وان كان كلامه من غير أن)

وبالجملة فقد اتفق سلف الامه وأئمتها على ان الجهمية من شر طوائف أهل البدع ، حتى أخرجهم كثير عن الثنتين والسبعين فرقة

ومن الجهمية المتفلسفة والمعتزلة الذين يقولون ان كلام الله مخلوق وان الله انما كلم موسى بكلام مخلوق خلقه في الهواء، وانه لا يرى في الآخرة ، وانه ليس مباينا لخلقه ، وأمثال هذه المقالات التي تستلزم تعطيل الخالق وتكذيب رسله وإبطال دينه

وأما قول الجهمي : ان قلت كلمه فالكلام لا يكون إلا بحرف وصوت، والحرف والصوت محدث، ومن قال ان الله كلم موسى بحرف وصوت فهو كافر. فيقال لهذا الملحد: أنت تقول انه كلمه بحرف وصوت، لكن تقول بحرف وصوت خلقه في الهواء وتقول : انه لا يجوز أن تقوم به الحروف والاصوات لانها لا تقوم الا بمتحيز، والباري ليس بمتحيز ، ومن قال انه متحيز فقد كفر . ومن المعلوم ان من جحد ما نطق به الكتاب والسنة كان أولى بالكفر ممن أقر بما جاء به الكتاب والسنة

وان قال الجاحد لنص الكتاب والسنة ان العقل معه قال له الموافق للنصوص: بل العقل معي وهو موافق للكتاب والسنة، فهذا يقول ان معه السمع والعقل، وذاك انما يحتج لقوله بما يدعيه من العقل الذي يبين منازعه فساده، ولو قدر أن العقل معه

والكفر هو من الاحكام الشرعية وليس كل من خالف شيئا علم بنظر العقل يكون كافراً ، ولو قدر أنه جحد بعض صرائح العقول لم يحكم بكفره حتى يكون قوله كفراً في الشريعة

وأما من خالف ما علم أن الرسول جاء به فهو كافر بلا نزاع . وذلك أنه ليس في الكتاب والسنة ولا في قول أحد من سلف الامة وأئمتها الإخبار عن الله بانه متحيز أو انه ليس بمتحيز ، ولا في الكتاب والسنة أن من قال هذا وهذا يكفر . وهذا اللفظ مبتدع والكفر لا يتعلق بمجرد اسماء مبتدعة لا أصل لها في الكتاب والسنة، بل يستفسر هذا القائل اذا قال ان الله متحيز أو ليس بمتحيز فان قال اعني بقولي انه

متحيز: انه دخل في المخلوقات وإن المخلوقات قد حازته وأحاطت به فهذا باطل. وان قال اعني به انه محاز عن المخلوقات مباين لها ، فهذا حق

وكذلك قوله ليس بمتحيز ، ان اراد به ان المخلوق لا يحوز الخالق فقد أصاب، وان قال ان الخالق لا يباين المخلوق وينفصل عنه فقد أخطأ

وإذا عرف ذلك فالناس في الجواب عن حجته الداحضة وهي قوله « لو قلت انه كلمه فالكلام لا يكون الا بحرف وصوت والحرف والصوت محدث » ثلاثة أصناف. صنف منعوه المقدمة الاولى . وصنف منعوه المقدمة الثانية وصنف لم يمنعوه المقدمتين بل إستفسروه وبينوا أن ذلك لا يمنع أن يكون الله كلم موسى تكليما

فالصنف الاول ابو محمد عبد الله بن سعيد بن كلاب وأبو الحسن علي بن اسماعيل الاشعري ومن اتبعهما قالوا: لا نسلم أن الكلام لا يكون الا بحرف وصوت بل الكلام معنى قائم بذات المتكلم والحروف والاصوات عبارة عنه ، وذلك المعنى القائم بذات الله تعالى يتضمن الامر بكل ما أمر به والخبر عن كل ما أخبر عنه ، فان عبر عنه بالسريانية كان انجيلا ، وقالوا: انه اسم الكلام حقيقة، فيكون اسم الكلام مشتركا أو مجازاً في كلام الخالق ، وحقيقة في كلام المخلوق

والصنف الثاني سلموا لهم ان الكلام لا يكون إلا بحرف وصوت ومنعوهم المقدمة الثانية ، وهو ان الحرف والصوت لا يكون إلا محدثا ، وصنف (١) قالوا إن المحدث كالحادث سواء كان قائما بنفسه أو بغيره وهو يتكلم بكلام لا يكون قديما وهو بحرف وصوت ، وهـذا قول من يقول القرآن قديم وهو بحرف وصوت كأبي الحسن بن سالم وأتباعه السالمية وطوائف ممن اتبعه ، وقال هؤلاء في الحرف والصوت نظير ما قاله الذين قبلهم في المعاني ،

(١) أي وصنف آخر من هـذا الصنف الثاني ولذلك تكرر والا صارت الاصناف اربعة

وقالوا كلام لا بحرف ولا صوت لا يعقل ، ومعنى يكون أمراً ونهيا وخبراً ممتنع في صريح العقل ، ومن ادعى ان معنى التوراة والانجيل والقرآن واحد وانما اختلفت العبارات الدالة عليه - فقوله معلوم الفساد بالاضطرار عقلا وشرعا، وإخراج الحروف عن مسمى الكلام مما يعلم فساده بالاضطرار من جميع اللغات وإن جاز أن يقال : ان الحروف والاصوات المخلوقة في غير كلام الله حقيقة أمكن حينئذ أن يكون كلم موسى بكلام مخلوق في غيره ،

وقالوا لاخوانهم الاولين : اذا قلتم ان الكلام هو مجرد المعنى وقد خلق عبارة بيان(١) فان قلتم ان تلك العبارة كلامه حقيقة بطلت حجتكم على المعتزلة فان أعظم حجتكم عليهم قولكم انه يمتنع أن يكون متكلما بكلام يخلقه في غيره ، كما يمتنع أن يعلم بعلم قائم بغيره ، وأن يقدر بقدرة قائمة بغيره ، وأن يريد بارادة قائمة بغيره ، وإن قلتم هي كلام مجازاً لزم أن يكون الكلام حقيقة في المعنى مجازا في اللفظ، وهذا مما يعلم فساده بالاضطرار من جميع اللغات

والصنف الثالث: الذين لم يمنعوا المقدمتين ولكن استفسروهم وبينوا ان هذا لا يستلزم صحة قولكم، بل قالوا: إن قلتم ان الحرف والصوت محدث بمعنى انه يجب أن يكون مخلوقا منه منفصلا عنه، فهذا دليل على فساد قولكم وتناقضه، وهذا قول ممنوع ، وإن قلتم بمعنى انه لا يكون قديما فهو مسلم لكن هذه التسمية محدثة ،

وهؤلاء صنفان : صنف قالوا ان المحدث هو المخلوق المنفصل عنه فاذا قلنا: الحرف والصوت لا يكون إلا محدثا كان بمنزلة قولنا لا يكون إلا مخلوقا، وحينئذ فيكون هذا المعتزلي أبطل قوله بقوله حيث زعم انه يتكلم بحرف وصوت مخلوق، ثم استدل على ذلك بما يقتضي انه يتكلم لا يتكلم بكلام مخلوق وفيه تلبيس

ونحن لا نقول كلم موسى بكلام قديم ولا بكلام مخلوق، بل هو سبحانه

(١) هكذا في الاصل ولعله محرف

يتكلم اذا شاء ويسكت اذا شاء ، كما انه سبحانه وتعالى خلق السموات والارض في ستة أيام ثم استوى على العرش ،وانه سبحانه استوى الى السماء وهي دخان ، وانه سبحانه يأتي في ظلل من الغمام والملائكة، كما قال (وجاء ربك والملك صفاً صفا) وقال (هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة او يأتي ربك او يأتي بعض آيات ربك) وقال تعالى (انما امره إذا اراد شيئا أن يقول له كن فيكون) وقال تعالى (وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون) وأمثال ذلك في القرآن والحديث كثير ، يبين الله سبحانه أنه إذا شاء فعل ماأخبر عنه من تكليمه وأفعاله القائمة بنفسه ،وما كان قائماً بنفسه هو كلامه لا كلام غيره. والمخلوق لايكون قائما بالخالق، ولا يكون الرب محلا للمخلوقات، بل هو سبحانه يقوم به ماشاء من كلماته وأفعاله ، وليس من ذلك شيء مخلوقا، انما المخلوق ما كان بائنا عنه. وكلام الله من الله ليس ببائن منه ، ولهذا قال السلف: القرآن كلام الله غير مخلوق ، منه بدأ واليه يعود، فقالوا : منه بدا ،أي هو المتكلم به، لا انه خلقه في بعض الاجسام المخلوقة

وهذا الجواب هو جواب أئمة اهل الحديث والتصوف والفقه وطوائف من أهل الكلام من أئمتهم: من الهشامية والكرامية وغيرهم وأتباع الائمة الاربعة اصحاب ابي حنيفة ومالك والشافعي واحمد، منهم من يختار جواب الصنف الاول، وهم الذين يرتضون قول ابن كلاب في القرآن، وهم طوائف من متأخري اصحاب مالك والشافعي واحمد وأبي حنيفة ، ومنهم من يختار جواب الصنف الثاني، وهم الطوائف الذين ينكرون قول ابن كلاب ويقولون ان القرآن قديم كالسالمية وطوائف من أصحاب مالك والشافعي واحمد وابي حنيفة ، ومنهم من يختار جواب الطائفة الثالثة ، وهم الذين ينكرون قول الطائفتين المتقدمتين الكلابية والسالمية

ثم من هؤلاء من يقول بقول الكرامية ، والكرامية ينتسبون الى ابي حنيفة، ومنهم من لا يختار قول الكرامية أيضا لما فيه من تناقض آخر، بل يقول بقول أئمة

الحديث كالبخاري وعثمان بن سعيد الدارمي ومحمد بن اسحاق بن خزيمة ومن قبلهم من السلف، كابي بكر بن عبدالرحمن بن الحارث بن هشام ومحمد بن كعب القرظي والزهري وعبدالله بن المبارك واحمد بن حنبل واسحاق بن راهويه. وما نقل من ذلك عن الصحابة والتابعين، وفي ذلك آثار كثيرة معروفة في كتب السنن والآثار تضيق عنها هذه الورقة .

وبين الاصناف الثلاثة منازعات ودقائق تضيق عنها هذه الورقة ، وقد بسطنا الكلام عليها في مواضع وبينا حقيقة كل قول ، وما هو القول الصواب في صريح المعقول وصحيح المنقول(١) لكن هؤلاء الطوائف كلهم متفقون على تضليل من يقول ان كلام الله مخلوق . والامة متفقة على ان من قال ان كلام الله مخلوق لم يكلم موسى تكليما يستتاب فان تاب والا يقتل

والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم تسليما كثيرا

فتوى أخرى

الشيخ الاسلام رحمه الله في القرآن هل هو بحرف وصوت أم لا ؟

وفي نقط المصحف وشكله، هل هما منه أم لا ؟

سئل رحمه الله تعالى عن رجلين تباحثا ، فقال أحدهما : القرآن حرف وصوت وقال الآخر : ليس هو بحرف ولا صوت ، وقال أحدهما : النقط التي في المصحف والشكل من القرآن ، وقال الآخر : ليس ذلك من القرآن ، فما الصواب في ذلك؟

(فاجاب رضي الله عنه) الحمد لله رب العالمين . هذه المسئلة يتنازع فيها كثير من الناس ويخلطون الحق بالباطل ، فالذي قال : ان القرآن حرف وصوت إن أراد بذلك ان هذا القرآن الذي يقرأ المسلمين هو كلام الله الذي نزل به

(١) قد تقدم كل هذا في مواضع من هذه المجموعة

الروح الامين على محمد ﷺ خاتم النبيين والمرسلين وان جبريل سمعه من الله والنبي ﷺ سمعه من جبريل ، والمسلمون سمعوه من النبي ﷺ كما قال تعالى (قل نزله روح القدس من ربك بالحق) وقال (والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق) فقد أصاب في ذلك ، فان هذا مذهب سلف الامة وأئمتها والدلائل على ذلك كثيرة من الكتاب والسنة والاجماع ،

ومن قال : إن القرآن العربي لم يتكلم الله به وانما هو كلام جبريل أو غيره عبر به عن المعنى القائم بذات الله ، كما يقول ذلك ابن كلاب والاشعري ومن وافقهما فهو قول باطل من وجوه كثيرة

فان هؤلاء يقولون : انه معنى واحد قائم بالذات ،وان معنى التوراة والانجيل والقرآن واحد ، وانه لا يتعدد ولا يتبعض ،وأنه ان عبر عنه بالعربية كان قرآنا وبالعبرانية كان توراة وبالسريانية كان انجيلا ،فيجعلون معنى آية الكرسي وآية الدين و(قل هو الله أحد) (تبت يدا أبي لهب)والتوراة والانجيل وغيرهما معنى واحداً ، وهذا قول فاسد بالعقل والمشاهدة،وهو قول أحدثه ابن كلاب لم يسبقه اليه غيره من السلف ،

وان أراد القائل بالحرف والصوت أن الاصوات المسموعة من القراء ، والمداد الذي في المصاحف قديم أزلي، أخطأ وابتدع ،وقال ما يخالف العقل والشرع، فان النبي صلى الله عليه وسلم قال « زينوا القرآن بأصواتكم » فبين أن الصوت صوت القارىء، والكلام كلام الباري، كما قال تعالى (وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله) فالقرآن الذي يقرؤه المسلمون كلام الله لا كلام غيره كما ذكر الله ذلك ، وفي السنن عن جابر بن عبد الله ان النبي ﷺ كان يعرض نفسه على الناس بالموسم فيقول « الا رجل يحملني الى قومه لأبلغ كلام ربي فان قريشا قد منعوني أن أبلغ كلام ربي » وقالوا لابي بكر الصديق، لما قرأ عليهم

(ألم غلبت الروم) أهذا كلامك أم كلام صاحبك ؟ فقال: ليس بكلامي ولا كلام صاحبي ولكنه كلام الله تعالى .

والناس إذا بلغوا كلام النبي ﷺ كقوله « انما الاعمال بالنيات » ان الحديث الذي يسمعونه حديث النبي ﷺ تكلم به بصوته وبحروفه ومعانيه ، والمحدث بلغه عنه بصوت نفسه لا بصوت النبي ﷺ ، فالقرآن أولى أن يكون كلام الله إذا بلغته الرسل عنه وقرأته الناس باصواتهم

والله تكلم بالقرآن بحروفه ومعانيه بصوت نفسه ونادى موسى بصوت نفسه ، كما ثبت بالكتاب والسنة وإجماع السلف ، وصوت العبد ليس هو صوت الرب ولا مثل صوته ، فان الله ليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله ،

وقد نص أئمة الاسلام أحمد ومن قبله من الائمة على ما نطق به الكتاب والسنة من ان الله ينادي بصوت ، وان القرآن كلامه تكلم بحرف وصوت ليس منه شيء كلاما لغيره ، لا جبريل ولا غيره ، وان العباد يقرؤنه بأصوات أنفسهم وأفعالهم ، فالصوت المسموع من العبد صوت القاري ، والكلام كلام الباري .

وكثير من الخائضين في هذه المسئلة لا يميز بين صوت العبد وصوت الرب بل يجعل هذا هو هذا فينفيهما جميعا أو يثبتهما جميعا ، فاذا نفى الحرف والصوت نفى أن يكون القرآن العربي كلام الله ، وأن يكون مناديا لعباده بصوته ، وأن يكون القرآن الذي يقرؤه المسلمون هو كلام الله كما نفى أن يكون صوت العبد صفة لله عز وجل ، ثم جعل كلام الله المتنوع شيئا واحداً لا فرق بين القديم والحادث ، وهو مصيب في هذا الفرق دون ذاك الثاني الذي فيه نوع من الالحاد والتعطيل ، حيث جعل الكلام المتنوع شيئا واحداً لا حقيقة له عند التحقيق .

وإذا ثبت جعل صوت الرب هو صوت العبد أو سكت عن التمييز بينهما مع قوله ان الحروف متعاقبة في الوجود مقترنة في الذات قديمة أزلية الاعيان فجعل

عين صفة الرب تحل في العبد أو يتحد بصفته فقل بنوع من الحلول والاتحاد يفضي الى نوع من التعطيل .

وقد علم ان عدم الفرق والمباينة بين الخالق وصفاته والمخلوق وصفاته خطأ وضلال لم يذهب إليه أحد من سلف الامة وأئمتها، بل هم متفقون على التمييز بين صوت الرب وصوت العبد ،ومتفقون أن الله تكلم بالقرآن الذي أنزله على نبيه ﷺ حروفه ومعانيه، وأنه ينادي عباده بصوته، ومتفقون على ان الاصوات المسموعة من القراء أصوات العباد ، وعلى انه ليس شيء من أصوات العباد ولا مداد المصاحف قديما ، بل القرآن مكتوب في مصاحف المسلمين مقروء بألسنتهم محفوظ بقلوبهم وهو كله كلام الله . والصحابة كتبوا المصاحف لما كتبوها بغير شكل ولا نقط لانهم كانوا عربا لا يلحنون، ثم لما حدث اللحن نقط الناس المصاحف وشكلوها ،فان كتبت بلا شكل ولا نقط جاز، وإن كتبت بنقط وشكل جاز ولم يكره في أظهر قولي العلماء، وهو إحدى الروايتين عن أحمد

وحكم النقط والشكل حكم الحروف ، فان الشكل يبين إعراب القرآن كما يبين النقط الحروف ، والمداد الذي يكتب به الحروف ويكتب به الشكل والنقط مخلوق ، وكلام الله العربي الذي أنزله وكتب في المصاحف بالشكل والنقط وبغير شكل ونقط ليس بمخلوق ، وحكم الاعراب حكم الحروف ، لكن الاعراب لا يستقل بنفسه بل هو تابع للحروف المرسومة فلهذا لا يحتاج لتجريدهما وإفرادهما بالكلام ، بل القرآن الذي يقرؤه المسلمون هو كلام الله معانيه وحروفه وإعرابه ، والله تكلم بالقرآن العربي الذي أنزله على محمد ﷺ والناس يقرءونه بأفعالهم وأصواتهم . والمكتوب في مصاحف المسلمين هو كلام الله وهو القرآن العربي الذي أنزل على نبيه سواء كتب بشكل ونقط أو بغير شكل ونقط ، والمداد الذي كتب به القرآن ليس بقديم بل هو مخلوق ، والقرآن الذي كتب في المصحف بالمداد هو كلام الله منزل غير مخلوق ، والمصاحف يجب احترامها

باتفاق المسلمين لان كلام الله مكتوب فيها ، واحترام النقط والشكل اذا كتب المصحف مشكلا منقوطا كاحترام الحروف باتفاق علماء المسلمين، كما ان حرمة إعراب القرآن كحرمة حروفه المنقوطة باتفاق المسلمين . ولهذا قال أبو بكر وعمر : حفظ إعراب القرآن أحب الينا من حفظ بعض حروفه .

والله تكلم بالقرآن بحروفه ومعانيه بجميعه كلام الله فلا يقال بعضه كلام الله وبعضه ليس بكلام الله وهو سبحانه نادى موسى بصوت سمعه موسى، فانه قد أخبر انه نادى موسى في غير موضع من القرآن كما قال تعالى (هل أتاك حديث موسى إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى) والنداء لايكون إلا صوتا باتفاق أهل اللغة، وقد قال تعالى (إنا أوحينا اليك كما أوحينا الى نوح والنبيين من بعده وأوحينا الى ابراهيم واسماعيل وإسحاق ويعقوب والاسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبورا * ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك ، وكلم الله موسى تكليما) فقد فرق الله بين ايحائه الى النبيين وبين تكليمه لموسى، فمن قال ان موسى لم يسمع صوتا بل ألهم معناه ، لم يفرق بين موسى وغيره وقد قال تعالى (تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات) وقال تعالى (وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحي باذنه مايشاء) فقد فرق بين الايحاء والتكلم من وراء حجاب كما كلم الله موسى ، فمن سوى بين هذا وهذا كان ضالا ،

وقد قال الامام أحمد رضي الله عنه وغيره : لم يزل الله متكلما اذا شاء وهو يتكلم بمشيئته وقدرته ، يتكلم بشيء بعد شيء ، كما قال تعالى (فلما أتاها نودي ياموسى) فناداه حين أتاها ولم يناده قبل ذلك ، وقال تعالى (فأكلا منها فبدت لهما سوآتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما ان الشيطان لكما عدو مبين) فهو سبحانه ناداهما حين أكلا

منها ولم يناده‍ما قبل ذلك ، وكذلك قال تعالى (ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم) بعد أن خلق آدم وصوره ولم يأمرهم قبل ذلك ، وكذا قوله (ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون) فأخبر انه قال له كن فيكون بعد أن خلقه من تراب ، ومثل هذا الخبر في القرآن كثير يخبر انه تكلم في وقت معين ونادى في وقت معين . وقد ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ انه لما خرج الى الصفا قرأ قوله تعالى (ان الصفا والمروة من شعائر الله) وقال « نبدأ بما بدأ الله به » فأخبر ان الله بدأ بالصفا قبل المروة

والسلف اتفقوا على : ان كلام الله منزل غير مخلوق منه بدأ واليه يعود . فظن بعض الناس ان مرادهم انه قديم العين ، ثم قالت طائفة : هو معنى واحد وهو الامر بكل مأمور والنهي عن كل منهي ، والخبر بكل مخبر ، إن عبر عنه بالعربية كان قرآناً ، وإن عبر عنه بالعبرانية كان توراة ، وإن عبر عنه بالسريانية كان انجيلا . وهذا القول مخالف للشرع والعقل .

وقالت طائفة : هو حروف وأصوات قديمة الاعيان لازمة لذات الله لم تزل لازمة لذاته ، وإن الباء والسين والميم موجودة مقترنة بعضها ببعض معاً أزلا وأبداً لم تزل ولا تزال لم يسبق منها شيء شيئا . وهذا أيضاً مخالف للشرع والعقل ،

وقالت طائفة : ان الله لا يتكلم بمشيئته وقدرته ، وانه في الازل كان متكلما بالنداء الذي سمعه موسى ، وانما تجدد استماع موسى لا أنه ناداه حين أتى الوادي المقدس بل ناداه قبل ذلك بما لا يتناهى ولكن تلك الساعة سمع النداء . وهؤلاء وافقوا الذين قالوا ان القرآن مخلوق في أصل قولهم . فان أصل قولهم ان الرب لا تقوم به الامور الاختيارية فلا يقوم به كلام ولا فعل باختياره ومشيئته ، وقالوا هذه حوادث والرب لا تقوم به الحوادث فخالفوا صحيح المنقول وصريح المعقول واعتقدوا انهم بهذا يردون على الفلاسفة ويثبتون حدوث العالم ، وأخطأوا في ذلك ، فلا للاسلام نصروا ، ولا للفلاسفة كسروا

وادعوا ان الرب لم يكن قادراً في الازل على كلام يتكلم به ولا فعل يفعله، وانه صار قادراً بعد ان لم يكن قادراً بغير أمر حدث ، او يغيرون العبارة فيقولون لم يزل قادراً ،لكن يقولون ان المقدور كان ممتنعا ، وان الفعل صار ممكنا له بعد أن صار ممتنعا عليه من غير تجدد شيء ، وقد يعبرون عن ذلك بان يقولوا كان قادراً في الازل على مايمكن فيما لايزال، لاعلى مالا يمكن في الازل ، فيجمعون بين النقيضين،حيث يثبتونه قادراً في حال كون المقدور عليه ممتنعاعندهم، ولم يفرقوا بين نوع الكلام والفعل وبين عينه كما لم يفرق الفلاسفة بين هذا وهذا بل الفلاسفة ادعوا ان مفعوله المعين قديم بقدمه، فضلوا في ذلك وخالفوا صريح المعقول وصحيح المنقول. فان الادلة لاتدل على قدم شيء بعينه من العالم بل تدل على ان ماسوى الله مخلوق حادث بعد ان لم يكن ، اذ هو فاعل بقدرته ومشيئته كما تدل على ذلك الدلائل القطعية ، والفاعل بمشيئته لايكون شيء من مفعوله لازما بصريح العقل واتفاق عامة العقلاء، بل وكل فاعل لايكون شيء من مفعوله لازما لذاته، ولا يتصور مقارنة مفعوله المعين له ، ولو قدر انه فاعل بغير ارادة فكيف الفاعل بالارادة ،

وما يذكر بان المعلول يقارن علته انما يصح فيما كان من العلل يجري مجرى الشروط فان الشرط لايجب أن يتقدم على المشروط بل قد يقارنه كما تقارن الحياة العلم ، وأما ما كان فاعلا سواء سمي علة او لم يسم علة فلا بد أن يتقدم على الفعل المعين ، والفعل المعين لايجوز أن يقارنه شيء من مفعولاته ، ولا يعرف العقلاء فاعلا قط يلزمه مفعول معين ، وقول القائل حركت يدي فتحرك الخاتم هو من باب الشروط لامن باب الفاعلين (١) ولانه لو كان العالم قديما لكان فاعله موجبا بذاته في الازل ولم يتأخر عنه موجبه ومقتضاه ، ولو كان كذلك لم يحدث شيء من الحوادث وهذا خلاف المشاهدة ، وان كان هو سبحانه لم يزل قادرا على الكلام والفعل (١) بل لم يزل متكلما اذا شاء فاعلا لما يشاء ، ولم يزل موصوفا بصفات الكمال،

(١) لينظر العطف في هذه الجملة الشرطية على اي شيء يقابله ، ولينظر جواب شرطها اين هو ؟

منعوتا بنعوت الجلال والاكرام ، والعالم فيه من الاحكام والاتقان مادل على علم الرب ، وفيه من الاختصاص مادل على مشيئته ، وفيه من الاحسان مادل على رحمته ، وفيه من العواقب الحميدة مادل على حكمته ، وفيه من الحوادث مادل على قدرة الرب تعالى ، مع ان الرب مستحق لصفات الكمال لذاته، فانه مستحق لكل كمال ممكن للوجود لانقص فيه منزه عن كل نقص ، وهو سبحانه ليس له كفؤ في شيء من أموره، فهو موصوف بصفات الكمال على وجه التفصيل منزه فيها عن التشبيه والتمثيل ، ومنزه عن النقائص مطلقا، فان وصفه بها من أعظم الاباطيل ، وكماله من لوازم ذاته المقدسة لايستفيده من غيره بل هو المنعم على خلقه بالخلق والانشاء وماجعله فيهم من صفات الاحياء ، وخالق صفات الكمال أحق بها، ولا كفؤ له فيها .

وأصل اضطراب الناس في مسئلة كلام الله ان الجهمية والمعتزلة لما ناظرت الفلاسفة في مسئلة حدوث العالم اعتقدوا ان مايقوم به من الصفات والافعال المتعاقبة لايكون الا حادثا بناء على أن مالا يتناهى لايمكن وجوده(١) والتزموا ان الرب كان في الازل غير قادر على الفعل والكلام بل كان ذلك ممتنعا عليه وكان معطلا عن ذلك وقد يعبرون عن ذلك بانه كان قادراً في الازل على الفعل فيما لايزال مع امتناع الفعل عليه في الازل فيجمعون بين النقيضين حيث يصفونه بالقدرة في حال امتناع المقدور لذاته إذ كان الفعل يستلزم أن يكون له أول والازل لا أول له والجمع بين إثبات الاولية ونفيها جمع بين النقيضين

ولم يهتدوا الى الفرق بين ما يستلزم الاولية والحدوث وهو الفعل المعين والمفعول المعين ، وبين ما لا يستلزم ذلك وهو نوع الفعل والكلام بل هذا يكون دائما وإن كان كل من آحاده حادثا كما يكون دائما في المستقبل وإن كان كل من آحاده فانيا، بخلاف خالق يلزمه مخلوقه المعين دائما فان هذا هو الباطل في صريح العقل

---

(١) يعني في الازل ، تركه للعلم به او سقط من الناسخ

وصحيح النقل ولهذا اتفقت فطر العقلاء على إنكار ذلك لم ينازع فيه الاشرذمة من المتفلسفة كابن سينا وأمثاله الذين زعموا أن الممكن المفعول قد يكون قديما واجب الوجود بغيره فخالفوا في ذلك جماهير العقلاء مع مخالفتهم لسلفهم إرسطو واتباعه فانه لم يكونوا يقولون ذلك وإن قالوا بقدم الافلاك ، وأرسطو أول من قال بقدمها من الفلاسفة المشائين بناء على إثبات علة غائية لحركة الفلك يتحرك الفلك للتشبه بها لم يثبتوا له فاعلا مبدعا ولم يثبتوا ممكنا قديما واجبا بغيره وهم وإن كانوا أجهل بالله واكفر من متأخريهم فهم يسلمون لجمهور العقلاء ان ما كان ممكنا بذاته فلا يكون إلا محدثا مسبوقا بالعدم فاحتاجوا أن يقولوا كلامه مخلوق منفصل عنه ،

وطائفة وافقتهم على امتناع وجود ما لا نهاية له لكن قالوا تقوم به الامور الاختيارية فقالوا أنه في الازل لم يكن متكلما بل ولا كان الكلام مقدورا له ثم صار متكلما بلا حدوث حادث بكلام يقوم به وهو قول الهاشمية والكرامية وغيرهم ،

وطائفة قالت إذ كان القرآن غير مخلوق فلا يكون الا قديم العين لازمة لذات الرب فلا يتكلم بمشيئته وقدرته ، ثم منهم من قال هو معنى واحد قديم ، فجعل آية الكرسي وآية الدين وسائر آيات القرآن التوراة والانجيل وكل كلام يتكلم الله به معنى واحدا لا يتعدد ولا يتبعض ، ومنهم من قال انه حروف وأصوات مقترنة لازمة للذات ، وهؤلاء أيضا وافقوا الجهمية والمعتزلة في أصل قولهم انه متكلم بكلام لا يقوم بنفسه ومشيئته وقدرته وأنه لا تقوم به الامور الاختيارية ، وأنه لم يستو على عرشه بعد أن خلق السموات والارض ، ولا يأتي يوم القيامة ، ولم يناد موسى حين ناداه ، ولا تغضبه المعاصي ولا ترضيه الطاعات ولا تفرحه توبة التائبين. وقالوا في قوله (وقل اعملوا فسيري الله عملكم ورسوله والمؤمنون) ونحو ذلك : إنه لا يراها إذا وجدت بل إما أنه لم يزل رائيا لها وإما

أنه لم يتجدد شيء موجود بل تعلق معدوم ، إلى أمثال هذه المقالات التي خالفوا فيها نصوص الكتاب والسنة مع مخالفة صريح العقل ،

والذي ألجأهم لذلك موافقتهم للجهمية على أصل قولهم في أنه سبحانه لا يقدر في الازل على الفعل والكلام وخالفوا السلف والأئمة في قولهم : لم يزل الله متكلما إذا شاء ثم افترقوا أحزابا أربعة كما تقدم ، الخلقية ، والحدوثية ، والاتحادية ، والاقترانية ،

وشر من هؤلاء الصابئة والفلاسفة الذين يقولون أن الله لم يتكلم لا بكلام قائم بذاته ولا بكلام يتكلم به بمشيئته وقدرته لا قديم النوع ولا قديم العين ولا حادث ولا مخلوق ، بل كلامه عندهم ما يفيض على نفوس الانبياء . ويقولون نه كلم موسى من سماء عقله ، وقد يقولون انه تعالى يعلم الكليات دون الجزئيات ، فانه انما يعلمها على وجه كلي ، ويقولون مع ذلك انه يعلم نفسه ويعلم مايفعله ،

وقولهم يعلم نفسه ومفعولاته حق ، كما قال تعالى (ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير) لكن قولهم مع ذلك : انه لا يعلم الاعيان المعينة جهل وتناقض فان نفسه المقدسة معينة والافلاك معينة وكل موجود معين ، فان لم يعلم المعينات لم يعلم شيئا من الموجودات ، إذ الكليات انما تكون كليات في الاذهان لا في الاعيان ، فمن لم يعلم إلا الكليات لم يعلم شيئا من الموجودات تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيرا .

وهم انما ألجأهم الى هذا الالحاد فرارهم من تجدد الأحوال للباري تعالى ، مع ان هؤلاء يقولون ان الحوادث تقوم بالقديم وان الحوادث لا أول لها ، لكن نفوا ذلك عن الباري لاعتقادهم انه لا صفة له بل هو وجود مطلق ، وقالوا ان العلم نفس عين العالم ، والقدرة نفس عين القادر والعلم والعالم شيء واحد ، والمريد والارادة شيء واحد ، فجعلوا هذه الصفة هي الاخرى وجعلوا الصفات هي الموصوف ،

ومنهم من يقول بل العلم كل المعلوم كما يقوله الطوسي صاحب شرح الاشارات فانه أنكر على ابن سينا اثباته لعلمه بنفسه وما يصدر عن نفسه ، وابن

دينا أقرب الى الصواب لكنه تناقض مع ذلك حيث نفى قيام الصفات به، وجعل الصفة عين الموصوف وكل صفة هي الاخرى

ولهذا كان هؤلاء هم أوغل في الاتحاد والالحاد ممن يقول معاني الكلام شيء واحد، لكنهم ألزموا قولهم لأولئك، فقالوا اذا جاز أن تكون المعاني المتعددة شيئا واحداً، جاز أن يكون العلم هو القدرة والقدرة هي الارادة. فاعترف حذاق أولئك بأن هذا الالزام لا جواب عنه

ثم قالوا واذا جاز أن تكون هذه الصفة هي الأخرى والصفة هي الموصوف جاز أن يكون الموجود الواجب القديم الخالق هو الموجود الممكن المحدث المخلوق، فقالوا إن وجود كل مخلوق هو عين وجود الخالق، وقالوا الوجود واحد، ولم يفرقوا بين الواحد بالنوع والواحد بالعين، كما لم يفرق أولئك بين الكلام الواحد بالعين والكلام الواحد بالنوع،

وكان منتهى أمر أهل الالحاد في الكلام الى هذا التعطيل والكفر والاتحاد الذي قاله أهل الوحدة والحلول والاتحاد في الخالق والمخلوقات، كما ان الذين لم يفرقوا بين نوع الكلام وعينه وقالوا هو يتكلم بحرف وصوت قديم، قالوا أولا انه لا يتكلم بمشيئته وقدرته ولا تسبق الباء السين، بل لما نادى موسى فقال (إني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني ـ الى[1] ـ انا الله رب العالمين) كانت الهمزة والنون وما بينهما موجودات في الأزل يقارن بعضا بعضها، لم تزل ولا تزال لازمة لذات الله،

ثم قال فريق منهم: ان ذلك القديم هو نفس الاصوات المسموعة من

(١) كذا في الاصل والآية الاولى من سورة طه والتي بعد الى من سورة القصص فهي ليست غاية لما قبلها فيظهر ان في الكلام تحريفا أو سقطا من النساخ والمراد مفهوم على كل حال

القراء . وقال بعضهم: بل المسموع صوتان قديم ومحدث ـ وقال بعضهم: أشكال المداد قديمة أزلية . وقال بعضهم محل المداد قديم أزلي . وحكي عن بعضهم انه قال : المداد قديم أزلي. وأكثرهم يتكلمون بلفظ القديم ولا يفهمون معناه بل منهم من يظن انه قديم في علمه ومنهم من يظن ان معناه متقدم على غيره ، ومنهم من يظن ان معنى اللفظ انه غير مخلوق ، ومنهم من لا يميز بين ما يقول، فصار هؤلاء حلولية اتحادية في الصفات، ومنهم من يقول بالحلول والاتحاد في الذات والصفات، وكان منتهى أمر هؤلاء وهؤلاء الى التعطيل .

والصواب في هذا الباب وغيره مذهب سلف الامة وأئمتها انه سبحانه لم يزل متكلما اذا شاء ، وانه يتكلم بمشيئته وقدرته، وان كلماته لا نهاية لها ، وانه نادى موسى بصوت سمعه موسى، وانما ناداه حين أتى لم يناده قبل ذلك ، وان صوت الرب لا يماثل أصوات العباد، كما ان علمه لا يماثل علمهم وقدرته لا تماثل قدرتهم ، وانه سبحانه بائن عن مخلوقاته بذاته وصفاته ليس في مخلوقاته شيء من ذاته وصفاته القائمة بذاته ، ولا في ذاته شيء من مخلوقاته ، وان أقوال اهل التعطيل والاتحاد، الذين عطلوا الذات اوالصفات او الكلام او الافعال باطلة ، وأقوال أهل الحلول الذين يقولون بالحلول في الذات او الصفات باطلة ، وهذه الامور مبسوطة في غير هذا الموضع وقد بسطناها في الواجب الكبير والله أعلم بالصواب

فتوى أخرى لشيخ الاسلام

﴿ في اثبات أن الكلام صفة المتكلم لا عينه ولا غيره ﴾

(سئل أيضا رضي الله عنه) ماتقول السادة العلماء الجهابذة أئمة الدين رضي الله عنهم أجمعين: فيمن يقول الكلام غير المتكلم ، والقول غير القائل ، والقرآن والمقروء والقاريء كل واحد منها له معنى، بينوا لنا ذلك بيانا شافيا ليصل الى ذهن الحاذق والبليد أثابكم الله بمنه

(فأجاب رضي الله عنه)

الحمد لله ، من قال:ان الكلام غير المتكلم والقول غير القائل وأراد انه مباين له ومنفصل عنه فهذا خطأ وضلال ، وهو قول من يقول ان القرآن مخلوق فانهم يزعمون ان الله لايقوم به صفة من الصفات لا القرآن ولا غيره، ويوهمون الناس بقولهم العلم غير العالم والقدرة غير القادر والكلام غير المتكلم . ثم يقولون : وما كان غير الله فهو مخلوق ، وهذا تلبيس منهم

فان لفظ الغير يراد به مايجوز مباينته للآخر ومفارقته له ، وعلى هذا فلا يجوز أن يقال علم الله غيره ، ولا يقال ان الواحد من العشرة غيرها ، وأمثال ذلك، وقد يراد بلفظ الغير ماليس هو الآخر ، وعلى هذا فتكون الصفة غير الموصوف لكن على هذا المعنى لايكون ماهو غير ذات الله الموصوفة بصفاته مخلوقا، لان صفاته ليست هي الذات لكن قائمة بالذات، والله سبحانه وتعالى هو الذات المقدسة الموصوفة بصفات كماله، وليس الاسم اسما لذات لاصفات لها بل يمتنع وجود ذات لاصفات لها

والصواب في مثل هذا أن يقال الكلام صفة المتكلم ، والقول صفة القائل، وكلام الله ليس مباينا منه بل أسمعه لجبريل ونزل به على محمد ﷺ كما قال تعالى (والذين آتيناهم الكتاب يعلمون انه منزل من ربك بالحق) ولا يجوز ان يقال ان كلام الله فارق ذاته وانتقل إلى غيره. بل يقال كما قال السلف : انه كلام الله غير مخلوق منه بدأ واليه يعود. فقولهم منه بدأ رد على من قال : انه مخلوق في بعض الاجسام ومن ذلك المخلوق ابتدأ : فبينوا ان الله هو المتكلم به « ومنه بدأ» لا من بعض المخلوقات « واليه يعود» أي فلا يبقى في الصدور منه آية ولا في المصاحف حرف ، وأما القرآن فهو كلام الله ،

فمن قال ان القرآن الذي هو كلام الله غير الله فخطؤه وتلبيسه كخطأ من قال ان الكلام غير المتكلم، وكذلك من قال ان كلام الله له مقروء غير القرآن الذي تكلم به فخطؤه

ظاهر ، وكذلك من قال ان القرآن الذي يقرؤه المسلمون غير المقروء الذي يقرؤه المسلمون فقد أخطأ

وإن اراد بالقرآن مصدر قرأ يقرأ قراءة وقرآنا وقال أردت أن القراءة غير المقروء فلفظ القراءة مجمل ، قد يراد بالقراءة القرآن وقد يراد بالقراءة المصدر فمن جعل القراءة التي هي المصدر غير المقروء كما يجعل التكلم الذي فعله غير الكلام الذي هو يقوله ، وأراد بالغير أنه ليس هو إياه فقد صدق ، فان الكلام الذي يتكلم به الانسان يتضمن فعلا كالحركة ويتضمن ما يقترن بالفعل من الحروف والمعاني ، ولهذا يجعل القول قسيما للفعل تارة وقسما منه أخرى فالاول كما يقول : الايمان قول وعمل : ومنه قوله ﷺ « ان الله تجاوز لامتي ماحدثت به أنفسها مالم تتكلم أو تعمل به » ومنه قوله تعالى (اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه) ومنه قوله تعالى (وما تكون في شأن وما تتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل) وأمثال ذلك فيما يفرق بين القول والعمل ، وأما دخول القول في العمل ففي مثل قوله تعالى (فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون) وقد فسروه بقول لا إله الا الله ، ولما سئل ﷺ أي الاعمال أفضل؟ قال « الايمان بالله » مع قوله « الايمان بضع وسبعون شعبة أعلاها قول لا اله الا الله وأدناها إماطة الاذى عن الطريق » ونظائر ذلك متعددة

وقد تنوزع فيمن حلف لا يعمل عملا إذا قال قولا كالقراءة ونحوها هل يحنث ؟ على قولين في مذهب احمد وغيره بناء على هذا

فهذه الالفاظ التي فيها اجمال واشتباه إذا فصلت معانيها والا وقع فيها نزاع واضطراب والله سبحانه وتعالى أعلم

تم الكتاب المجموع ولله الحمد

يقول محمد رشيد آل رضا : قد جمع هذه المباحث والفتاوى عالم الشام السلفي الاثري، الاستاذ الشيخ جمال الدين القاسمي الشهير (رح) من كتاب الكواكب وغيره من كتب شيخ الاسلام وفتاويه ، وأرسله إلى صديقنا السلفي الاثري السري ، صاحب الفضيلة الشيخ محمد نصيف الحجازي . وقد رفعه هذا الى الامام الهمام، ومحيي مذهب السلف وسنة خير الانام ، عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود ملك الحجاز ونجد وملحقاتها فبادر إلى اصدار أمره الينا بطبعه مع رسائل أخرى لشيخ الاسلام قدس الله روحه لنشره في مملكته وغيرها كسائر مطبوعاته النافعة (وهي ماحواه هذا المجموع) وكنا نظن أن المرحوم القاسمي عني بقراءته وتصحيحه بنفسه، فأراحنا من التعب في طبعه ،ولكننا وجدنا فيه من الغلط والتحريف مااستبعدنا معه أن يكون عني بتصحيحه ،وقد هون علينا تصحيحه مافيه من تكرار المسائل فاستفدنا من مقابلة بعضها ببعض

وأما قيمة هذا المجموع الدينية العلمية فهي لاتقدر ، والتكرار فيه مفيد فان هذه التحقيقات الواسعة قلما يعيها أحد إلا اذا تكررت على ذهنه مراراً كثيرة

ومن الغريب أن هذه المسائل كان يكتبها شيخ الاسلام قدس الله روحه أو يمليها من غير مراجعة كتاب من الكتب ، وهي من الآيات البينات ،والبراهين الواضحات ، على ان هذا الرجل من أكبر آيات الله في خلقه ،أيدبها كتابه الذي قال فيه انه (يهدي للتي هي أقوم) وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وما كان عليه السلف الصالح من فهمها ، والاعتصام بها .

ويعلم من كل فتوى منها — بله جملتها ومجموعها — انه رحمه الله تعالى قد جمع من العلوم النقلية والعقلية الشرعية والتاريخية والفلسفية ومن الاحاطة بمذاهب الملل والنحل وآراء المذاهب ومقالات الفرق حفظا وفهما ما لا نعلم مثله عن أحد من علماء الارض قبله ولا بعده ، وأغرب من حفظه لها استحضارها إياها عند التكلم والاملاء أو الكتابة ، وأعظم من ذلك ماآتاه الله من قوة الحكم في ابطال الباطل واحقاق الحق في كل منها بالبراهين النقلية والعقلية، ونصر مذهب السلف في فهم الكتاب والسنة على كل ماخالفه من مذاهب المتكلمين والفلاسفة وغيرهم

(ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم)

فهرس عناوين كتاب

مذهب السلف القويم ، في تحقيق مسألة كلام الله الكريم